

مختارات من القصص الإنجليزي



دار دريم بن للطباعة والنشر
العنوان: مدينة العبور - الحي السادس، فيلا ٨، مدخل ١
هاتف: ١٠٠٣٢٨٨٥٩٦ (٠٠٢٠)
بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com

مختارات من القصص الإنجليزي

مجموعة مؤلفون
الطبعة الأولى، القاهرة 2020م
غلاف: إسلام أحمد
تنسيق وإخراج داخلي: مهند يحيى
رقم الإيداع: 4475 / 2020
I.S.B.N \ 978-977-6794-19-1

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونياً نسخاً أو تسجيلاً أو تخزيناً، دون إذن خطي من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

مختارات من القصص الإنجليزي

تأليف

تشارلز ديكنز وآخرين

ترجمة

إبراهيم المازني

تقديم

بقلم إبراهيم عبد القادر المازني

اختيرت هذه الأقاصيص لطائفة من كتاب القرن الماضي في إنجلترا وأمريكا، وإن كان بعضهم قد امتد به العمر إلى أوائل القرن العشرين. وروعي في الاختيار إبراز أسلوب الكاتب وخصائصه الفنية لا تسلية القارئ، والمراد هو التعريف بالكاتب بهذه الوساطة والإشارة إلى فنه لمن يعنيه التوسع في الدرس، ولم نر أن نترجم لأحد أو نزيد على إثبات سستي الميلاد والوفاة لأن كل ترجمة في مجموعة كهذه لا تكون إلا موجزة جداً ولا خير في مثل ذلك ولا جدوى.

وقد توخينا في الترجمة مثل ما روعي في الاختيار، أي إبراز أسلوب الكاتب لا أسلوب المترجم. ولم يكن هذا سهلاً

ولا كان مطلبه هيناً لشدة التفاوت، ولكننا تكلفناه وعسى أن نكون وفقنا فيه. وقد حرصنا على التزام الأصل حتى يمكن أن نقول إن الترجمة حرفية على قدر ما يتيسر ذلك في النقل من لغة إلى أخرى بينهما من الاختلاف ما بين العربية والإنجليزية، ولم نحذف من الأصل في هذه المجموعة كلها إلا بضعة سطور لا يزيد عددها على عدد أصابع اليدين، وكانت علة الحذف العجز التام عن الاهتداء إلى ما يؤدي معناها — مع شدة تفهمها — في لغتنا العربية وليس هذا نقصاً في اللغة العربية ولكنه نقص في المترجم.

وقد استعملت ألفاظاً شائعة في عاميتنا، وكان الظن أنها غير صحيحة، ولكنني وجدتها مثبتة في كتب اللغة ومستعملة في كتب الأدب، فلم أر مسوغاً لهجر هذا الصحيح المأنوس إلى الحوشي أو غير المؤلف أو النابي. وما دامت اللفظة قد استطاعت أن تحيا على ألسنة الناس فإنها أحق بالاستعمال من أخرى عجزت عن الحياة فدفت في المعجمات. وفي اللغة — كما في الأحياء — يبقى الأصلح لا الذي يظنه المتحذلقون الأفصح، وليس المعول في الفصاحة على القدم بل على الوفاء بحاجة التعبير بالقوة المطلوبة أو الجمال المنشود، وسهولة التلقف للمعنى وسرعة التأثر به. وليس هذا تعريفاً للفصاحة، وإنما هو إجمال للمطلوب بها.

وقد نبهت على بعض هذه الألفاظ في الهوامش وأهملت التنبيه في الأغلب اكتفاء باليسير من ذلك، وأقول على الجملة إنني ما استعملت لفظاً غير صحيح، وإن كان محسوباً من العامية إلا لفظة أو اثنتين أجنبيتين شائعتين على الألسنة، لم أجد لهما مقابلاً، أو استثقلت مقابلهما، فوضعتهما بين علامات التضمين أو الاقتباس.

وأقول أخيراً إن ما اختير في هذه المجموعة ليس خير ما في الأدب الإنجليزي من نوعه ولكنه من خيره، وعيب كل اختيار هو الاضطرار إلى ترك الأكثر والاجتزاء بالأقل. وكثيراً ما تؤدي الحيرة إلى سوء الاختيار، ولكن القارئ يستطيع أن يكون على يقين أن ما يقرؤه هنا هو — في الأصل إذا لم يكن في الترجمة — من الجيد على كل حال وبشهادة الزمن.

وأحب أن أشكر لجنة التأليف والترجمة والنشر على ما يسرت وأعانت وصبرت.

ناثانييل هورثون دفن مروجرمالفن

«من الحوادث القليلة التي وقعت في الحرب مع الهنود
الحمير، والتي تحتمل بطبيعتها أن تكون موضوعاً للقصاص
الروماتيكى، تلك الحملة التي قامت بالدفاع عن الحدود في
سنة ١٧٢٥ وانتهت (بمعركة لافيل) المذكورة. وقد يستطيع
الخيال — بترك بعض الظروف وإسقاطها — أن يرى كثيراً
مما يستحق الإعجاب في بطولة عصابة قليلة قاتلت ضعفي
عددها من العدو في قلب بلاده. وقد كانت البسالة الصريحة
التي أبدأها الفريقان مطابقة لآراء الحضر في معنى الشجاعة
ومقتضياتها، ولم تعدم الفروسية ما لا تحجل أن تسجله من
أعمال واحد أو اثنين من المقاتلة. ولم تكن المعركة — على
هول عنفها بالذين خاضوا غمارها — مشؤمة النتائج

للبلاد، فقد ألوت بقوة قبيلة وأفضت إلى السلم فاستقرت سنوات عدة. وقد عني التاريخ والراوية الشعبية — على خلاف العادة — بتفاصيل هذه الواقعة. ونال قائد نفيضة من رجال الحدود من الشهرة الحربية مثل ما يغنمه قائد الجيش المظفر. وفي بعض ما أنا مورده في الصفحات التالية ما سيفطن إليه — على الرغم من الاعتياض من الأسماء الحقيقية أخرى مخترعة — مَنْ سمعوا من أفواه الشيوخ بمصير القليلين الذين استطاعوا أن يرجعوا بعد معركة لافيل.»

خفقت أشعة الشمس الطالعة في طلاقة وبهجة على رءوس الأشجار التي رقدتحتها من الليلة البارحة جريحان مكدودان، وكان فراشهما ورق البلوط الذاوي اليبس المنتثر في مستوى ضيق من الأرض، في ظل صخرة قريبة من ضَهْر نجوة من تلك النجاء التي تختلف بها وجوه الأرض هناك. وكانت كتلة الصخر التي يذهب سطحها الأملس المستوي في الهواء مقدار خمس عشرة قدمًا أو عشرين، فوق رأسيهما، كأنها حجر قبر ضخم، وكأن عروقها الجارية كتابةً بحروف مجهولة. وكان البلوط وما إليه من الشجر العظيم يحيط بالصخرة في رقعة فسيحة، بدلاً من الصنوبر وهو الغرس المألوف في هذه المنطقة. وكان هناك عودٌ أخضر قوي على مقربة من الرجلين.

وكان الجرح البليغ الذي أصاب أكبر الرفيقين قد حرمه من النوم على الأرجح، فما كاد أول شعاع من الشمس يلمس أعلى شجرة، حتى جهد أن يغير رقدته، ثم اعتدل قاعدًا. وكانت غضون وجهه العميقة وما شاع من الشيب في رأسه، تدل على أنه جاوز خير شطري العمر. غير أن متانة أسره كانت خليقة — لولا ما كلفه جرحه — أن تعينه على احتمال التعب كما يحتمله الشاب في عنفوانه. وكان الفتور والإعياء مرتسمين على محياه المتهضم. وكانت نظرة اليأس التي يمد بها بصره في جوف الغابة تنبئ باقتناعه أن رحلته قد شارفت ختامها. ثم أدار عينه إلى رفيقه الراقد إلى جانبه. وكان هذا الشاب — فما بلغ مبالغ الرجال بعد — نائمًا ورأسه على ذراعه، وكان نومه مضطربًا، وكان يخيّل إلى الناظر إليه أن ضَرَبَانَ الوجع من جرحه، سيوقظه في كل لحظة من نومه. وكانت يده قابضة على بندقيته. وكان الاضطراب العنيف الذي ترسم مظاهره على معارف وجهه يوقع في الروع أنه يرى في منامه صورة من القتال الذي كان أحد القليلين الذين نجوا منه. وكأنها أطلق في منامه الذي يترأى له صيحة عميقة عالية، فاختلفت شفتاه بهمسة خافتة. وعلى أن هذا الصوت الخفيض الذي انبعث منه كان كافيًا لإزعاجه من رقاذه فاستيقظ فجأة، وكان أول ما فعل بعد أن عاد إليه الوعي، وتنبهت الذاكرة، أن أقبل على صاحبه الجريح يسأله عن حاله بلهفة، فهز رفيقه رأسه وقال: «روبن — يا بني — إن هذه الصخرة التي تقعد تحتها

حسبُ ذلك الصائد الكهل والمقاتل القديم صُوى لقبره.
فما تزال أماننا أميال عدة، دونها أميال طويلة، من المفاز
التي تنوح فيها الرياح وتعوي، ولن يجديني حتى أن تكون
مدخنة بيتي على الجانب الآخر من هذه الهضبة، لقد كانت
رصاصه الهندي أفتك مما ظننت.»

فقال الشاب: «إنما أتعبتك مسيرة الأيام الثلاثة. وأخلق
بالراحة أن تعيد إليك نفسك وتنعشك، فابق هنا ريثما
أجوب هذه الغابة التماساً للأعشاب والجزور لطعامنا،
ثم بعد أن تأكل تتكئ علي ونولي وجهنا شطر البيت، فما
أشك في أنك بمعونتي تستطيع أن تصل إلى بعض حاميات
الحدود.»

فقال الآخر بهدوء: «ليس فيّ دماءٌ يكفي يومين يا روبن،
ولن أحملك عبء جسمي الذي لا خير فيه، وأنت لا تكاد
تقوى على حمل نفسك. إن جراحك عميقة وقوتك تنضب
بسرعة، ولكنك قد تنجو إذا عجلت بالذهاب، أما أنا فلا
أمل لي وسأنتظر الموت هنا.»

فقال روبن بلهجة المصمم: «إذا كان لا بد من هذا فسأبقى
وأعنى بك.»

فقال رفيقه: «كلا يا بني، كلا، اجعل لرغبة رجل وجود بأنفاسه وزناً عندك. هات يدك ثم اذهب، وهل تظن أن لحظاتي الأخيرة يخففها علمي أني أتركك للموت البطيء؟ لقد أحببتك كحب الأب يا روبن، وفي مثل هذه الساعة ينبغي أن يكون لي بعض حق الأب وسلطانه، فأنا أدعوك أن تذهب، حتى أقضي نحبي بسلام.»

فقال الشاب: «ومن أجل أنك كنت أباً لي أينبغي لي أن أتركك تموت وتبقى بلا دفن في هذه الفلاة؟ كلا، إذا كان أجلك قد دنا حقاً فسأبقى بجانبك، وأتلقى آخر كلماتك، وسأحفر هنا قبراً بجوار الصخرة، فإذا خذلتني قوتي رقدنا فيه معاً، أما إذا وهبني الله القوة فسأخذ طريقي إلى البلدة.»

فقال الآخر: «إنهم في المدن وفي حيث تسكن الجماعات من الناس يدفنون الموتى في جوف الأرض، ويحجبونهم عن عيون الأحياء، ولكن هنا — حيث يتفق أن تمضي مائة سنة ولا تدب قدم — لماذا لا أرقد تحت السماء لا تغطيني إلا أوراق البلوط، حيث تنثرها رياح الخريف؟ وإذا كان لا بد مما يذكر بي ويدل على مكاني، فهذا هنا هذه الصخرة وسأحفر عليها بيدي الضعيفتين اسم «روجر مالفن»، فإذا اجتاز هذه الناحية أحد عرف أن ها هنا يرقد صائد مقاتل، فلا تتلكأ إذن من أجل سخافة كهذه، بل أسرع إن لم يكن من أجلك فمن أجل تلك التي لن تجد مؤاسياً بغير ذلك.»

وكان مالفن ينطق بالكلمات الأخيرة بصوت مضطرب، وكان وقعها في نفس صاحبه واضحاً جداً، فأذكرته أن هناك واجبات أخرى أصرح من مشاطرة صاحبه مآله، وأن موته معه لن ينفعه. وليس في الوسع أن يقال إن قلب روبن خلا من كل شعور أناني، وإن كان إدراكه لاضطراب نفسه بهذا الشعور، قد حمله على التشدد في مقاومة الرجاء الذي ألح به عليه زميله.

وقال روبن: «ما أهول أن يقعد المرء منتظراً دلوف الموت إليه في هذه الوحدة! ... إن الرجل المقدام لا يتهيب الموت في إبان المعركة، وحتى المرأة قد تتلقى الموت وهي ساكنة النفس إذا حف بسريرها الأوداء. ولكن هنا ...»

فقاطعه مالفن قائلاً: «لن أفرق من الموت حتى هنا يا روبن بورن. وإني لرجل غير منخوب القلب، ولو أنني كنت ذاك لكان لي عون أوثق من عون الإخوان. وأنت شاب والحياة حبيبة إليك وعزيزة عليك، وأنت في ساعاتك الأخيرة أحوج إلى المواساة مني. واعلم أنك بعد أن تدفنتني في جوف الثرى وتسمي مستفرداً وحيداً، ويلف الليل هذه الغابة في شملته، ستشعر حينئذ بكل مرارة الموت التي تغيب عنك الآن. على أي لن أحض نفسك الكريمة بدوافع من الأثرة. فاتركني من أجلي أنا ليتسنى لي بعد أن أدعو

الله لك بالسلامة، أن أتوجه إليه بقلبي مستغفراً من غير أن
تزعجني هموم الدنيا وأحزانها.»

فصاح روبن: «وابنتك؟ كيف أجرؤ أن أنظر إليها؟ ستسألني
عن مصير أبيها الذي أقسمت أن أبذل حياتي دونه. فهل
أقول لها إنه سار معي ثلاثة أيام من ميدان القتال وإني بعد
ذلك تركته يموت في الفلاة؟ أليس خيراً أن أرقد وأموت إلى
جانبك من أن أعود سالماً وأقول هذا لدوركاس؟»

فقال روجر مالفن: «قل لابنتي إنك على الرغم من
جراحك البليغة وضعفك وتعبك قدت خطاي المتعثرة عدة
أميال وإنك ما تركتني إلا إجابة لرغبتني الملحة لأنني لم أرد أن
أحمل تبعة موتك. قل لها إنك على الرغم من الألم والخطر
كنت وفيّاً. وأنه لو كان دم قلبك يستطيع أن يتقذني لأريق
في سبيلي إلى آخر قطرة، وقل لها إنك ستكون أحنى عليها
من أبيها، وإني أدعو لكما جميعاً، وإن عيني اللتين يوشك أن
يطبقهما الموت تستطيعان أن تريا طريقاً طويلاً تسلكانه معاً
وتحمدان السير فيه.»

وكان مالفن وهو يتكلم قد كاد يرفع نفسه عن الأرض،
وكأنما بعثت القوة التي نطق بها العبارة الأخيرة صورةً
من صور السعادة في هذه الغابة الموحشة، ولكنه تحلل

به الإعياء فهو على فراش الورق فانطفأ النور الذي التمعت به عينا روبن وأحس كأن من الإثم والجنون أن يفكر في السعادة في مثل هذه اللحظة. وكان صاحبه يلاحظ ما يتعاقب على محياه من المشاعر المختلفة، فأراد أن يحمله بالحيلة الكريمة على ما فيه خيره، ومضى في كلامه فقال: «عسى أن أكون واهماً في أجلي، ولعلي إذا أسعفت بالمعونة أبرأ من جراحي، ولا بد أن يكون أسبق اللاجئين قد حملوا قبل الآن أنباء ملحمتنا الويلة إلى الحدود، وأحسب أن جماعات قد خرجت لنجدة أمثالنا، فإذا لقيت جماعة منهم وعدت بها إلى هنا فمن يدري؟ لعله يقسم لي أن أجلس مرة أخرى إلى جانب موقدي.»

وظافت ابتسامة حزينة بمحيا هذا الرجل الذي يجود بنفسه وهو يوحى إلى صاحبه بالأمل الذي لا مطمع فيه، وإن كان قد ترك أثره في نفس روبن. وما كان أي باعث من الأثرة، ولا حتى أسى دوركاس وولها ليغريه بهجر رفيقه في ساعة كهذه، ولكن هوى قلبه تعلق بالأمل في إمكان إنقاذ مالفن، وأمدته طبيعته المستبشرة بما رفع إلى مرتبة اليقين ذلك الأمل البعيد، البعيد، في الحصول على معونة إنسانية.

وقال كأنها يحدث نفسه: «إن هناك على التحقيق دواعي — دواعي قوية — تبعث على الأمل في أن يكون بعض الإخوان

غير بعيدين منا. لقد فر جبان — خرج بلا جرح — في أول القتال، والأرجح جدًا أن يكون قد أسرع حتى بلغ مأمنًا، ولا شك أن كل ذي نجدة حقيق بأن يحمل بندقيته حين يسمع أنباء الواقعة، وقد لا تتوغل الجماعات في تطوافها إلى هذا المكان من الغابة، ولكنني قد ألتقي ببعضها بعد مسيرة يوم واحد.»

والتفت إلى مالفن وقد خامره الشك في حقيقة بواعثه فقال: «أشر علي بإخلاص. لو كنت أنا في مكانك أكنت تتركني وبي ذماء (بقية الروح)؟»

فقال روجر مالفن وهو يتنهد، وما خفي عليه التفاوت الشديد بين الحالتين: «لقد مضت عشرون سنة منذ فررت مع صديق عزيز عليّ من أسر الهنود قرب مونتريل، فسلخنا عدة أيام ونحن نجتاز الغابة حتى تكسر صاحبي من الجوع والجهد، فرقد وناشدني أن أتركه فقد كان يعلم أن بقائي معه يلحقني به، فجمعت كومة من الأوراق الجافة وجعلت منها وسادة لرأسه، ومضيت في سبيلي وأنا ضئيل الأمل في الحصول على نجدة.»

فسأله روبن: «وهل عدت إليه وأدركته؟»

وانتظر رده كأنه نبوءة تبشره بالتوفيق.

فقال مالفن: «نعم. وقعت على خيام لجماعة خرجت للصيد قبل الغروب في اليوم نفسه، فمضيت بهم إلى حيث كان صاحبي راقداً ينتظر الموت، وهو الآن رجل صحيح معافى يعمل في حقله بعيداً من الحدود، وأنا هنا جريح طريح في قلب هذه الغابة.»

وقد لقيت هذه الرواية، التي كانت عظيمة الأثر في توجيه عزم روبن، عوناً خفياً من بواعث أخرى مكنونة القوة، ولم تفت عين روجر مالفن أن الفوز كاد يكتب له فقال: «والآن اذهب يا بني وليكن الله في عونك، ولا تعد مع أصدقائك حين تلقاهم لثلاث تطيح بك جراحك وتعبك، ولكن وجه إليّ اثنين أو ثلاثة يكونون في فسحة من الوقت والعمل ليبحثوا عني. وصدقني يا روبن حين أقول لك إن كل خطوة تخطوها إلى بيتك تخفف عني ما أجد وتريح قلبي.»

على أن وجهه حال، وصوته تغير، وهو يقول ذلك، ولا عجب، فإنه مصير مرعب أن يُترك ليموت في هذه الغابة الموحشة.

ونفض روبن بورن أخيراً عن الأرض ووساوس الشك تساوره في صواب ما هو صانع، واستعد للرحيل. وجمع أولاً — على خلاف رغبة مالفن — ذخراً من الجذور

والأعشاب التي اتخذنا منها طعامهما في اليومين الماضيين، ووضع هذه المثونة العقيمة في متناول صاحبه، وجمع له كذلك كومةً جديدةً من أوراق الشجر لفراشه، ثم صعد إلى قمة الصخرة — وكان أحد جانبيها خشناً وعراً — وثنى إليه العود الأخضر وربط منديله بأعلى أغصانه، وكان هذا الاحتياط ضروريًا ليهتدي بالمنديل من عسى أن يجيء باحثًا عن مالفن، إذ كانت الصخرة ما عدا جانبها العريض الأملس يحجبها النبات الكثيف على وجه الأرض. وكان روبن يتخذ من هذا المنديل ضماًداً لجرح في ذراعه. وأقسم بالدم الذي عليه وهو يشده إلى الغصن أن يعود لينقذ حياة صاحبه، أو ليواري جثته في قبر. ثم انحدر ووقف مطرقاً ليتلقى من روجر مالفن آخر كلماته.

وكانت لتجربة مالفن الفضل في كثير من النصح الدقيق لرفيقه الشاب في اجتيازه هذه الغابة المضلّة. وكان وهو يتكلم في هذا هادئاً جاداً؛ كأنما هو يوجه روبن إلى القتال أو الصيد على حين يقعد هو آمناً في بيته، وكأنما هذا الوجه الإنساني الذي سيتركه ويغيب عنه ليس آخر وجه ستقع عليه عينه، ولكن هذا الثبات تزعزع قبل أن يختم حديثه: «بلغ دوركاس تحيتي ودعائي، وقل لها إن آخر دعواتي كانت لها ولك، ومرها ألا تظن بك سوءاً من أجل أنك تركتني، (وهنا أحس روبن بالحز في قلبه)، فإنك ما كنت لتحرص على حياتك وتضمن بها لو أن بذلها كان يجديني،

وستتزوجك بعد أن تحد على أبيها مدة، أطال الله عمركما وجعلكما من السعداء، وليحف بكما أحفادكما عند الممات. ويا روبن، (وهنا غلبه ضعف الإنسان الفاني) ارجع بعد أن تبرأ جراحك وتندمل، وتسترد العافية — ارجع إلى هذه الصخرة الموحشة وضع عظامي في قبر، وصل عليّ.»

وكان أهل الحدود يجعلون لمراسم الدفن قيمة تكاد تكون خرافية، ولعل ذلك راجع إلى عادات الهنود الذين كانوا يشنون الحرب على الموتى كما يشنونها على الأحياء. وهناك أمثلة كثيرة للتضحية بالحياة في سبيل السعي لدفن الذين طاح بهم «سيف الفلاة»، ولهذا كان روبن يدرك قيمة العهد الذي أعطاه لروجر مالفن بأن يعود ويدفن رفاته. وكان من الغريب أن مالفن بعد أن أفضى في كلماته الأخيرة بكل ما في قلبه، لم يعد يحاول أن يقنع رفيقه الشاب بأن أسرع النجدة قد يكون لها غناء في إنقاذ حياته. وكان روبن مقتنعاً فيما بينه وبين نفسه بأنه لن يرى وجه مالفن حياً مرة أخرى. وكانت مروءة نفسه تنزع به إلى البقاء بالغاً ما بلغ الخطر على نفسه حتى يقضي صاحبه نحبه فيدفنه، ولكن إرادة الحياة والأمل في السعادة قوياً في نفسه واستوليا على قلبه، فلم يقدر على مغالبتها.

وبعد أن أصغى مالفن إلى روبن وهو يعاهده أن يعود قال: «كفى، اذهب والله معك.»

فضغط الشاب يده في صمت، ودار على عقبه، وهم بأن يمضي، ولكنه لم يسر إلا قليلاً، ثم رده صوت مالفن يناديه بصوت ضعيف: «روبن، روبن»، فارتد إليه روبن وجثا إلى جانبه، فأفضى إليه بأخر رجاء: «ارفعني واجعل ظهري إلى الصخرة، ليكون وجهي شطر البيت، ولأراك لحظة أخرى وأنت تمشي بين الأشجار.»

ف فعل روبن ما طلبه صاحبه واستأنف السير، وكان يمشي أول الأمر بأسرع مما تسمح به قوته، لأن شيئاً من التحرج الذي يعذب المرء أحياناً، وإن كان عمله لا خطأ فيه ولا وزر، دفعه إلى الاستخفاء عن عين مالفن، غير أنه بعد أن أبعد في سيره على أوراق الشجر انكفاً راجعاً تدفعه رغبة ملحة مؤلمة في الوقوف على حال هذا الرجل المستفرد، واختبأ وراء شجرة مقلوعة، وجعل ينظر إليه، وكانت الشمس مشرقة لا يحجبها غيم، والأشجار — كبارها وصغارها — تعب في هواء مايو/ أيار الطيب. ولكن وجه الطبيعة كان عليه كالجهامة، كأنما أدركها العطف على آلام الإنسان وأشجانه. وكانت يدا مالفن مرفوعتين بالدعاء الحار، وكان بعض ما يجري به لسانه في هذا السكون الذي يشمل الغابة يصفح سمع روبن، فيعصر قلبه ألم لا سبيل إلى العبارة عنه، فقد كان الصوت الذي يبلغه نبرات متقطعة ترتفع بالدعاء له ولدور كاس بالسعادة، وكان وهو يصغي ينازعه ضميره ووجدانه أن يعود ويرقد معه إلى جانب الصخرة، وشعر

بهول المآل الذي قُضي به على هذا الرجل الكريم الرحيم الذي يهجره في شدته، وحدثه نفسه أن الموت سيدلف إليه كالجثة ويتسلل نحوه في هذه الغابة خطوة فخطوة، ويطالعه بوجهه المرعب الجامد من وراء شجرة بعد شجرة، ولكن هذا هو ما كان خليقاً أن يكون مصير روبن نفسه لو تلكأ يوماً آخر. ومن الذي يلومه إذا أشفق من تضحية عقيمة كهذه؟ وكان النسيم يحرك العلم الصغير المشدود إلى العود الأخضر وهو يلقي نظرة الوداع على صاحبه، فأذكره ذلك عهده له.

وعاقت الجريحَ أمورٌ شتى في مسيره إلى الحدود، ففي اليوم الثاني تكاثفت السحب في السماء فمنعت أن يهتدي في سيره بموقع الشمس، وكان أكبر ما يخاف أن ينأى به عن غايته ما يبذله من جهد نفسه المنهوكة القوى. وكان قوته النزر، العنبيات وغيرها من الأثمار. وكانت أسراب من الطباء ربما مرت به وهي تخطف، وكثيراً ما كان الطير يجدف عند قدميه، ولكن ذخيره كانت قد نفدت في المعركة ولم يكن معه ما يذبح به. وكانت جروحه تهبج وتنتقض عليه من الجهد المتواصل الذي ارتهن به الأمل في الحياة والنجاة، فيستلب هذا قوته، وربما تركه مضطرب العقل مغلطاً. ولكنه كان، حتى حين يدور رأسه ويضطرب، يتشبث بالحياة كل التشبث حتى عجز عن الحركة عجزاً تاماً فقعد تحت شجرة وراح ينتظر الموت.

وهنا أدركته جماعة أرسلت لإسعاف الناجين من المعركة لما وردت أنباؤها الأولى، فنقلوه إلى أقرب حلة واتفق أن كانت هذه حلته. فتولت دوركاس العناية بحبيبها الجريح وبقيت إلى جانب سريرته تتعهد على عادة ذلك الزمن، وأولته تلك الألفاف المرفهة التي لا يُحسن الاتحاف بها كقلب المرأة ويدها. وقد ظل روبن عدة أيام شارد اللب غائب الوعي والذاكرة بين المخاطر والمصاعب التي عاناها، وكان لا يستطيع أن يرد بجلاء على الأسئلة التي كان كثيرون يقبلون بها عليه متلهفين، فما كانت التفاصيل الصحيحة قد أذيعت على القوم، ولا كان أحد من الأمهات والزوجات والأبناء يعرف هل ذووهم في قيد الأسر أو في قيد الردى. وكانت دوركاس تطوي مخاوفها وجزعها في قلبها حتى كان مساءً فأفاق روبن من نومة مضطربة، وبدا عليه أنه قد عرفها وفطن إليها كما لم يكن يفطن في الأيام السالفة، ورأت أن عقله قد ثاب إليه وعادت إليه وثاقته، فلم تستطع بعد ذلك أن تظل تكبح قلقها على أبيها.

وبدأت تسأله: «وأبي يا روبن؟» ولكن ما اعتام وجهه من التغير ردها عن المضي.

وكان الفتى قد تقبض كأنما ألح عليه ألم مر، وتدفق الدم إلى وجهه المتهضم الممتقع. وكان أول ما فعل أن غطى وجهه

ثم غالب نفسه غلاباً شديداً، فرفع جسمه وقال بصوت شديد مدافعاً عن نفسه مما خيل عليها من التهم: «لقد أصيب أبوك يا دوركاس بجرح بليغ في المعركة، وأمرني أن أعفي نفسي من عبئه وأن أكتفي بأن أمضي به إلى شط البحيرة ليطفئ ظمأه ويموت. ولكنني لم أستطع أن أخذه في شدته، فأعنته وإن كان دم جروحي ينزف، ومنحته نصف قوتي وسرت به معي. ولبشنا ثلاثة أيام نسير معاً وكان حاله خيراً مما كنت أتوقع أن تكون، ولكنني ألفتته في صباح اليوم الرابع خائر القوى منهوگاً وعجز عن المشي وأخذ يجود بنفسه بسرعة و...»

فصاحت دوركاس بضعف: «مات؟»

ووجد روبن أن من المستحيل عليه أن يقرَّ لها بأن حبه الأناني للحياة نأى به عن صاحبه قبل أن يصير إلى مصيره، فأمسك عن الكلام وثنى رأسه على صدره، ثم ارتد إلى الفراش من الخجل والإعياء وأخفى وجهه في الوسادة، وبكت دوركاس لما أصبح شكها يقيناً، ولكن الصدمة لطول توقعها كانت من أجل ذلك أقلَّ عنفاً وشدة.

وكان السؤال الذي ألهمها إياه شعورها البنوي وتقواها: «وحفرت قبراً لأبي المسكين في الفلاة يا روبن؟»

فقال الفتى بصوت مخنوق: «كانت يداي كليلتين ضعيفتين ولكنني فعلت ما وسعني. وهناك حجر عال يشرف عليه. ولشد ما أتمنى لو أنني كنت ساكنًا كسكونه.»

وأحست دوركاس من عباراته الأخيرة ثورة النفس، فأمسكت في يومها عن الاستفسار، ولكنها وجدت رَوْحًا وراحة إذ علمت أن روجر مالفن لم يعدم ما تيسَّر من مراسم الدفن، وقصت على الأصحاب ما كان من شجاعة روبن ووفائه، ولم تنتقص الإعادة من حسن الرأي فيه شيئًا، وكابد الشاب المسكين بعد أن تطرح من فراش المرض إلى الهواء والشمس، ذلَّ الثناء الذي لا يستحقه وعذابه وألمه، وقال الناس جميعًا إنه حقيق بأن يطلب يد الغادة الحسنة التي وفي لأبيها «حتى الموت». ولكن قصتي ليست عن الحب، فحسبي أن أقول إن روبن صار زوجًا لدوركاس بعد بضعة شهور، وكانت العروس في حفلة الزواج مضطربة الوجه من الحفر والحياء، أما روبن فكان ممتقع اللون.

وصار في قلب روبن بورن خاطر لا سبيل إلى الإفضاء به — خاطر ينبغي أن يخفيه بعناية وحرص عمن لها حبه، وبها ثقته. وكان أسفه عميقًا على جنبه الذي أغراه بكبح لسانه عن الإفضاء إلى دوركاس بالحقيقة التي كان يهيم بأن ييوح لها بها، ولكن الكبرياء والخوف من فقْدانِ حبها

له، والإشفاق من الاحتقار العام — كل أولئك منعه أن يصدقها بعد أن كذب عليها. وكان يشعر أنه لا يستحق لومًا من أجل أنه ترك روجر مالفن، فما كان بقاؤه والتبرع ببذل حياته إلا ليزيدا آلام الرجل بلا موجب في ساعاته الأخيرة. ولكن كتمان الحقيقة أفاض على هذا العمل السائق كثيرًا من صفات الإثم وآثاره الخفية، فكان روبن على اقتناعه بأنه ما فعل إلا الصواب، يقاسي إلى حد كبير الآلام النفسية التي تعذب مجترَح جريمةٍ مستورة. وكانت خواطره تتداعى أحيانًا على نحو يجعله يتصور أنه قاتل. وظل سنوات يعاوده خاطر لا تخفى عليه سخافته وشططه، ولكنه لا يستطيع أن ينفيه ويستريح منه. وكان ذهنه لا يبرح يعذبه بصورة مخامرة — صورة صهره جالسًا — إلى الآن — عند الصخرة على أوراق الشجر الداوية — حيًّا ينتظر منه الوفاء بالمعونة الموعودة. على أن هذه الخدع العقلية كانت تروح وتجيء، وكان هو لا يغالط نفسه فيها فيخلطها بالحقائق، غير أنه في أصفى حالات عقله وأهدئها كان يشعر بأن في ذمته عهدًا لم يف به ولم ينجزه، وأن هناك جثة لم تدفن تصيح به من جوف الفلاة، ولكنه كان من نتائج مغالطته ولفه، أن عجز عن تلبية النداء وإجابة الدعوة. وكان قد مضى الوقت الذي يجوز فيه أن يطلب معونة أصدقاء مالفن للقيام بدفنه الذي طال إرجاؤه. وحالت الأوهام والمخاوف الخرافية التي كان أهل الحدود أحس بها من سواهم دون ذهاب روبن وحده لهذه الغاية. ثم إنه لم يكن يدري أين في هذه

الغابة المِصْلَّة المترامية الأطراف ينشد تلك الصخرة الملساء المعركة التي يرقد عند سفحها صاحبه. وكان تذكُّره لرحلته فيها غامضاً، ولم يكن في ذهنه أي أثر للشطر الأخير من هذه الرحلة. على أنه كان لا يفتأ يحس دافعاً ملحاً، ويسمع صوتاً من ذات نفسه يناديه أن يخرج لإنجاز وعده، وكان يخيل إليه أنه لو همَّ بذلك لقادته رجلاه إلى رفات مالفن مباشرة. ولكن العام كان يمضي تلو العام، وهذا الصوت الذي يحسه ولا يسمعه سواه لا يجد منه مجيباً. وصار هذا الخاطر المكتوم كالقيد، ولكن نفسه هي الموثقة العانية، أو كالحية، يعض وينفض في قلبه، فانقلب رجلاً ساهماً كاسف البال ولكنه ضجور سيئ الخلق.

وفي خلال سنوات قليلة بعد الزواج بدأت حالة الرخاء في حياة روبن ودوركاس تحول، وكانت ثروة روبن قلبه القوي وساعده المقتول، ولكن دوركاس — وارثة أبيها الوحيدة — جاءت زوجها بضيعة أكبر وأحفل بالأدوات والمواشي من مثيلاتها على الحدود، ولكن روبن بورن كان فلاحاً مهماً فكانت أرض سواه تزداد كل عام زكاءً وثمرة، وأرضه تزداد على النقيض كدوراً وتأخراً، وكانت متاعب الزراعة وأسباب التشييط عنها قد قلت قلة شديدة بانقطاع الحروب مع الهنود، ولم يعد الناس يتناولون المحراث بيد والبندقية باليد الأخرى ويمدّون حسن حظهم إذا سلمت محاصيلهم من التلف في الأهراء، أو في ميادين القتال حين

يغير العدو المتوحش، غير أن روبن لم ينتفع بما صار إليه الأمر من السكينة والأمان وإن كان لا نكران أن الفترات التي كان ينشط فيها للعناية بأموره لم تكن تجزيه إلا نجاحًا ضئيلاً. وكان فساد أعصابه من الأسباب التي أفضت به إلى الإكداء، وذهاب الخير لأن سوء خلقه كان كثيرًا ما يؤدي إلى الشجار والخلاف مع جيرانه في المعاملات التي لا بد منها معهم، فانتهى الأمر بقضايا لا عداد لها، إذ كان أهل «إنجلترا الجديدة» — ولاية بهذا الاسم — في العهد الأول من حياتهم المضطربة بهذه الولاية يؤثرون الوسيلة القضائية لفض منازعاتهم كلما تيسر ذلك. ونقول بإيجاز إن الأمور لم تستقم لروبن بورن فحل به الخراب، وإن كان هذا لم يصبه إلا بعد سنوات عديدة من زواجه، ولم يبق له إلا سبيل واحد ومخرج فرد من النحس الذي لحقه، وذلك أن يفيض نور الشمس على رقعة مظلمة في جوف الصحراء، وأن ينشد العيش والقوت من ثدي هذا المجهل البكر.

وكان الابن الوحيد الذي رزقه روبن ودوركاس قد بلغ الخامسة عشر، وكان شبابه الريان يبشر برجولة بارعة، وكان على استعداد قوي لما تقتضيه الحياة على الحدود من الكفايات، بل لقد بدأ يظهر في ذلك حذقًا عظيمًا، فكان خفيًا مشدد الذراع في الرماية، سريع الإدراك والفطنة، وندبًا شديد القلب، وكان كل الذين يتوقعون أن تُستأنف الحرب مع الهنود، يقولون عن «سيراس بورن» إنه الزعيم الذي

يدخره المستقبل للبلاد، وكان أبوه يحبه حبًا عميقًا صامتًا، كأنها كان كل ما فيه، هو، من الخير والسماحة قد انتقل إلى غلامه ومعه ما يقوى عليه القلب من الحب، حتى دوركاس — وإن كانت محبة محبوبه — صار ابنها أعز على أبيه منها، ذلك أن خواطر روبن المحجوبة، وعواطفه المعزولة جعلته على الأيام رجلًا أنانيًا، فلم يستطع أن يحب حبًا عميقًا، إلا ما كان يرى أو يتخيل فيه مشابهاً من نفسه. وقد طالعتة من سيراس صورة مما كان هو في الأيام الماضية، وكان ربما شاطر غلامه نفسيته، فتهب على حياته نفحة منعشة من السعادة. وقد استصحب روبن غلامه في رحلته لانتقاء رقعة من الأرض للإقامة، ولقطع الشجر وحرق الحشب، وهو ما لا بد منه تمهيدًا لنقل البيت. وسلخا في هذا شهرين من الخريف عادا بعدهما ليقضيا آخر شتاء في الحلة.



وفي أوليات مايو/ أيار بتت الأسرة الصغيرة ما كانت تتعلق به، وودعت القليلين الذين كانوا في أيام نحسها يحفظون لها عهد الصداقة. وكان أسى الفراق يخففه عند كل واحد من الثلاثة مخفف، فأما روبن فكان رجلًا طويل الوجوم كارهاً لبني الإنسان لأنه شقي في حياته، فلما آن الرحيل مضى وهو مقطب، مطرق لا يكاد يأسف على شيء، ويأنف أن يعترف بأسف أو ندم. وأما دوركاس فبكت بأربع على الوشائج

المتبوتة التي كانت تؤثّق ما بين نفسها الطيبة العطوف وبين كل ما هنالك، ولكنها كانت تحس أن ما حل في السواد من حبة قلبها يسيّر معها، وأن كل ما خلا ذلك لا تعدم عنه عوضاً في حيثما تكون. وأما الغلام فكفكف دمة واحدة وراح يتصوّر مُتّع الخطار في الغابة التي لم تطأها قدم أبيه، ومن ذا الذي لم تُغرّه الأحلام في عنفوان نشوتها، بأن يشتهي أن يطوّف في عالم من المجاهل المشمسة وإلى جانبه رفيق جميل يعتمد على ذراعه في رفق؟ في الشباب لا تعرف خطواته الحرة الجذلة عائقاً سوى عباب اليم المتحدر ورءوس الجبال التي يكسوها الثلج. ثم تجيء الرجولة الساكنة فتؤثر بيتاً في واد سخت عليه الطبيعة بالزخرف، وأجرت فيه غديرًا رائقاً شفافاً. حتى إذا دلفت إليه الشيخوخة بعد سنوات طويلات المدد من تلك الحياة النقية إذا به قد صار أباً لقبيل، ورأساً لشعب، ومؤسس أمة عظيمة تتمخض عنها الأيام. ثم يوافيه الحين فيستسلم إليه ويرحب به، كما نرحب بالنوم العذب بعد يوم سعيد، فيبكي ولده رفاتة الجليل. ويحيطه كر الأيام بهالة، ويكسبه مناقب وخصائص عجيبة ترفعه في أعين الأجيال التالية إلى قريب من مراتب الأرباب. وترجع الإنسانية بصرها من وراء قرن فتلمح مجده الخافت.

على أن الغابة المظلمة المعقدة المسالك التي كان يضرب فيها مَنْ أَرَوِي قصتهم، لم تكن تشبه في شيء تلك الأرض التي تصورها الأحلام. ولكنه كان في أسلوب حياتهم ما يجري

على نسق الطبيعة، وكانت الهموم المخامرة التي رافقتهم من الدنيا التي خرجوا منها، هي كل ما يعكر الآن صفو حياتهم ويحول دون استفاضة الشعور بالسعادة. وكان معهم جواد أشعث متين الأسر، يحمل كل ما يملكون ولا يجزع أن تضاف دوركاس إلى ما يحمل، وإن كانت نشأتها تعينها على السير إلى جانب زوجها في آخر كل مرحلة يومية. وكان روبن وابنه يمشيان بخطى ثابتة قوية وعلى كتف كل منهما بندقيته، وعلى ظهره فأسه، وعينه تدور باحثه عن قنينة للطعام. وكلما جاعوا وقفوا وأعدوا طعامهم على شاطئ غدير صاف، فإذا ظمئوا انحنوا بشفاهم على مائه السلسال ليرشفوا من نميره، وهو يترقرق عنهم في مثل دلال الغادة إذ تتلقى القبلية الأولى من فم حبيبها. وكانوا ينامون في كوخ يصنونه من الأغصان ويستيقظون مع أول خيط من النور، وقد انتعشوا وتهيئوا المتاعب اليوم التالي. وكانت دوركاس وابنها يمشيان مرحاً، حتى روبن كان أحياناً يشرق وجهه ويلمع فيه نور البشر، ولكنه كان يطوي بين أضلاعه كمدًا باطنًا يقرص قلبه ويتركه فيما يرى كمجرى الغدير جمد فيه ماؤه وغطته أوراق الشجر الخضراء النضيرة.

وكان سيراس بورن أعرف بمسالك الغابات وأخبر بالسير فيها من أن يخفى عليه أن أباه لا يلتزم الجادة التي ساروا فيها الخريف الماضي، فقد كان يتحي ناحية الشمال وينأى عن الأرض المأهولة ويضرب إلى حيث لا توجد إلا الوحوش

وأمثالها من الأدمين. وكان الغلام ينبهه إلى ذلك أحياناً فيصغي له روبن، ويعدل عن الطريق الذي كان آخذاً فيه، عملاً منه بنصيحة ابنه، ولكنه كان كلما فعل ذلك بدا كالمضطرب، فكان يمد لحظه ويحيله كأنما يتوقع أن يرى أعداء مختبئين وراء جذوع الشجر. وكان سيرا سيرا يرى أن أباه يرتد شيئاً فشيئاً إلى اتجاهه الأول الذي كان قد صرفه عنه، فيحجم عن معاودة الاعتراض، وكان يشعر أن شيئاً غامض الكنه قد بدأ يثبم على صدره، ولكن جرأته الفطرية على الخطار أبت له أن يأسف من أجل أن الطريق زاد طولاً وغموضاً.

وفي عصر اليوم الخامس وقفوا وهيئوا لأنفسهم مكاناً قبل الغروب بساعة، وكان وجه الأرض فيما قطعوا من الأميال الأخيرة يعلو ويهبط كأنه أمواج تحجرت. وقد أقاموا في منخفض منها كوخهم وأوقدوا نارهم. وكان في مقامهم هناك — وقد نأوا عن كل حي ووثق ما بينهم الحب — ما يشجو ويملاً القلب حرارة. وكانت أشجار الصنوبر تشرف عليهم وتتخلل الريح أغصانها العالية، فتجاوب الغابة بمثل أصوات الوله والأسى، أم ترى هذه الأشجار العتيقة تتوجع مخافة أن يكون الإنسان قد أقبل ليضرب في جذورها بفأسه...؟

ورأى روبن وابنه أن يدعا دوركاس تبيى الطعام وأن يتجولا في الغابة عسى أن يقعا على فريسة فقد أخطأهما الصيد في نهارهما. ووعد الغلام ألا يبعد وذهب يعدو خفيفًا كالطبي الذي يرجو أن يصيد. وشعر أبوه بنفحة عارضة من السعادة وهو يتبعه بعينه. وهمّ بأن يمضي هو في اتجاه آخر. وجلست دوركاس فوق جذع شجرة قديمة مقتلعة على كثب من العيدان التي أضمرت فيها النار. وكانت تلقي نظرها من حين إلى حين على القدر التي بدأت تفور وتغلي ثم ترد عينها إلى «تقويم ولاية ماساشوستس» وكان هذا التقويم ونسخة قديمة من الإنجيل كل مكتبة الأسرة. وليس أشد عناية بحساب الأيام ممن نأوا عن المجتمع الإنساني، فلا عجب إذا كانت دوركاس قد قالت لزوجها إن اليوم هو الثاني عشر من شهر مايو/ أيار كأنها هذا على أعظم جانب من الأهمية. فاضطرب روبن وتمتم: «الثاني عشر من شهر مايو...؟ إنني لحقيق بأن أذكره» وتزاحمت الخواطر في رأسه فأحدثت له اختلاطًا يسيرًا وراح يسأل نفسه: «أين أنا...؟ وإلى أين أنا ماضٍ؟ وأين تركته...؟»

وكانت دوركاس قد ألفت من زوجها غرابة أطواره فلم تعد تلقي بالها إلى ما يبدو من شذوذها. فوضعت التقويم إلى جانبها وقالت له بتلك اللهجة الشجية المعهودة التي يتخذها رفاق القلوب حين تكرر بهم الذكرى إلى أحزانهم القديمة التي خمدت نارها: «لقد ترك أبي هذا العالم إلى آخر

خير منه في مثل هذا الشهر منذ ست عشرة سنة. ولكنه لم يعد ساعداً قوياً يسند رأسه وصوتاً حنوناً يخفف عنه غصص الموت يا روبن. إن عنايتك به ووفاءك له قد عزيانى مراراً كلما جشأت نفسي وجاشت. ألا ما أهول الموت على المستفرد الوحيد في مثل هذا المكان الموحش!»

فقال روبن بصوت متهدج: «ادعي الله يا دوركاس ألا يدرك الموت أحداً نحن الثلاثة وهو وحيد، وألا يبقى غير دفن في هذه الغابة العاوية.»

وأسرع ومضى عنها وتركها تنظر إلى النار تحت الصنوبر.

وخفت وطأة روبن وأبطأت رجله لما خفت حدة الألم الذي أحدثته له دوركاس بما قالت عفواً. ولكن الخواطر الأليمة كانت تتزاحم وتتدافع في رأسه فكان يمشي كالنائم لا كالصائد. ولم يكن عن قصد منه أنه بقي على مقربة من الكوخ فقد كانت رجله كأنها تدب به دائرة. ولم يفتن إلى أنه قد صار على رأس طريق مكتظ بأشجار السنديان وغيره من الأشجار العظيمة. وكانت أصول الشجر قد نمت عليها وازدحمت حولها الأغصان النابتة وبقي ما بين الشجر عارياً لا يكسوه إلا الورق الداوي المنتثر. وكان روبن كلما سمع حفيف الأغصان أو صوت تمايل الجذوع — كأنها

انبعثت الغابة من سباتها — يرفع بندقيته المراحة على ذراعه ويدير عينه بسرعة في كل ناحية. ثم يقتنع بأن لا شيء من الحيوان هناك فيعود إلى ما يدور في نفسه ويضطرب به جنانه. وكان يفكر فيما صرفه عن الطريق الذي كان معتزماً أن يأخذه ورمى به قلب الغابة. ولم يستطع روبن أن يتغلغل بعينه إلى مكامن الأسرار من نفسه وأن يهتدي إلى البواعث الحقيقية المكنونة في قرارة الوجدان، فاعتقد أن صوتاً من وراء الحس قد دعاه، وأن قوة من وراء الطبيعة قد حالت دون ارتداده، وتمنى أن تكون مشيئة الله قد أتاحت له فرصة للتكفير عن خطيئته، ورجا أن يعثر على العظام التي بقيت هذا الزمن الطويل بلا دفن، فيدرجها في جوف الأرض فتعود إلى نفسه السكينة وتنشر النور بين حنايا ضلوعه التي صارت أحلك من القبر.

وانتبه على حفيف في الغابة على مسافة من الموضع الذي تقوده إليه رجلاه، ولمح حركة وراء النبات الأثيث الملتج، فأطلق بندقيته بدافع من غريزة الصيد وبإحكام الرامي المدرب. ولم يلتفت إلى الأنة الخفيفة التي تنبئ بإصابة المرمى، والتي يستطيع حتى الحيوان أن يعرب بها عما يعاني من أخذ الموت بكظمه.

ولكن ما هذه الذكريات التي بدأت الآن تطوف برأسه؟ ...

لقد كان الموضع المعشوشب الذي أطلق روبن بندقيته قريباً من قمة مرتفع من الأرض ومن أصل صخرة ملساء كأنها حجر ضخمة مما يرفع على القبور. وكانت تبدو لروبن كأن لها صورة معكوسة في مرآة ذاكرته — بل لقد تذكر تلك العروق الجارية على وجه الصخرة كالكتابة بلغة منسية — كل شيء بقي كما كان سوى أن النبات الكثيف غطى أصل الصخرة، فهو يستطيع أن يحجب رفات روجر مالفن لو أنه بقي كما تركه قاعداً هناك، ولكن عين روبن لم تلبث أن أخذت بعض ما أحدثه الزمن من التغيير مذ كان واقفاً هنا وراء جذع الشجرة الذاهبة في الهواء، وذلك أن العود الذي ربط إليه الخرقة الملطخة بالدم قد نما واشتد وصار شجرة عظيمة كثيرة الفروع المورقة، وإن كانت لم تستوف كل حظها من النماء. وقد رأى روبن في هذه الشجرة ما جعله يضطرب، فقد كانت الغصون الوسطى والسفلى ترف فيها نضرة الحياة، وكانت الخضرة اليانعة تحف بأصل الشجرة، ولكن آفةً على ما يظهر أصابت قممها فبدأ الغصن الأعلى ذائلاً جافاً ميتاً. وتذكر روبن أن الخرقة التي نشرها كالراية كانت تحف على هذا الفرع لما كان أخضر وريقاً، فأى خبيثة يا ترى عصفت به وأذوته...؟ ومن عسى أن يكون ذاك الذي اقترفها...؟

...

وكانت دوركاس تواصل عملها في إعداد الطعام بعد أن تركها زوجها وابنها، وقد اتخذت من ساق شجرة غليظة متجدعة مائدةً نشرت على أعرض موضع فيها منديلاً ناصع البياض، ورتبت فوق هذا ما بقي عندها من الأوعية المعدنية التي كانت تُزهى بها في بيتها. وكان لهذه البقية من الأدوات المنزلية منظر غريب في قلب الغابة الموحشة، وكانت الشمس الغاربة لا تزال تضيء قمم الأشجار القائمة على الرى. ولكن ظلال المغيب كانت قد ارتمت وتكاثفت على وجه المنخفض الذي أقيم فيه الكوخ. وكانت النار ترسل ألسنتها فتضيء سيقان الشجر، ويخفق نورها على النبات المحيط بالمكان. ولم يكن في قلب دوركاس حزن، فقد كانت تحدث نفسها بأنه خير لها أن تجوب الغابة مع اثنين تحبهما ويحبانها من أن تكون وحدها بين من لا يعبئون بها.

وشغلت نفسها بإعداد مقاعد من خشب الشجر المتقادم المتجدع المغطى بالورق لنفسها ولروبن ولابنها. وكانت ترسل الصوت في جوف الغابة المظلمة فيرقص على نغم أغنية تعلمتها في صباها. وكانت هذه الأغنية الساذجة التي نظمها شاعر لم يفز بالذكر تصف ليلة شتوية في كوخ على الحدود، حيث كانت الأسرة ترح وتنعم بالدفء من النار الموقدة، وقد أمنت عدوان المتوحشين بفضل ما تكس من الثلوج. وكان للأغنية ذلك السحر الخفي الذي تمتاز به الخواطر المبتكرة غير المستعارة. ولكن أربعة أبيات منها

كانت تبرز وتضيء وتشع النور والحرارة كلسان النار الذي
تصف السرور حوله، وفي هذه الأبيات استطاع الشاعر أن
يصوغ السحر بألفاظ قليلة، وأن يستقطر معاني الحب البيتي
ويجسد السعادة المنزلية، فصارت الأبيات شعراً وصوراً في
آن معاً.

وكانت دوركاس وهي تغني تحس أن جدران بيتها الذي
فارقته تحيط بها هنا، فلم تعد ترى أشجار الصنوبر المظلمة،
أو تسمع الأنات الجوفاء التي ينتهي بها نواح الرياح بين
الأفنان، ولكن ردها إلى ما حولها طُلّقَ بندقية فاضطربت
جداً من مفاجأة الصوت، أو من فرط الشعور بالوحدة
وهي إلى جانب النار، على أنها ما عثمت أن ضحكت وقد
عمر قلبها الزهو بابنها، فقالت تحدث نفسها: «يا له من
صائد جميل ... لقد أصاب ابني ظيئاً.» فقد تذكرت أن
صوت الطلق جاء من الناحية التي ذهب إليها سيراس
باحثاً عن طريدة. وانتظرت فترة كافية توقعت بعدها أن
تسمع وقع قدمي سيراس يعدو إليها ليخبرها بما ظفر به،
ولكنه لم يجيئ، فأرسلت صوتها المرح بين الأشجار تدعوه
إليها: «سيراس ... سيراس ...»

ولكنه أبطأ ولم يجيئ، فاعتزمت أن تذهب هي إليه، فقد كان
صوت الطلق ينبئ بأنه منها قريب، ثم إنه قد يحتاج إلى

معونتها لحمل ما منت نفسها أن يكون قد صاده. ونهضت ومضت مهتدية بذكري الصوت الذي سمعته، وكانت تغني وهي سائرة، ليسمعها ابنها فيخف للقائها، وكانت ترجو أن يطالعها وجهه من وراء كل شجرة، وكل ما يمكن أن يحجبه من النبات العالي، وأن تسمع ضحكته المنبعثة عن روح العبث في المغامر حين يلقي من يحب. وكانت الشمس قد غابت وراء الأفق، وكان الضوء المختلف بين الأشجار من الخفوت بحيث يجسد الأوهام لخيال المتطلع. وقد خيل إليها مرات أنها لمحت وجهه — ولكن في غير وضوح — مطلقاً من بين الأوراق، وكبر في وهمها مرة أنه واقف إلى جانب صخرة، وأنه يومئ إليها، على أنها بعد أن أوسعت هذه الصخرة تحديقاً، تبينت أن الذي بجانبها ليس إلا ساق شجرة تحف بها أغصان كثيرة، كان أحدها ممتداً وكان النسيم يحركه. وظلت تتقدم حتى بلغت الصخرة، فألفت نفسها بغتة أمام زوجها الذي كان قد جاء من ناحية أخرى، وكان متكئاً على صدر بندقيته التي انغrust فوهتها بين الأوراق وهو يتأمل شيئاً عند قدميه.

فصاحت به دوركاس: «ما هذا يا روبن...؟ أتراك صدت الظبي ثم نمت عليه...؟»

وكانت تضحك مغتبطة بما لمحت أول الأمر من وقفته

وهيئته، ولكنه لم يتحرك ولا حوّل إليها عينه، فذب في قلبها الخوف، وأخذتها رعدة مجهولة المصادر والعلل، وتفرست فتبينت في وجهه الامتقاع والتصلب، حتى لكانما عجزت معارف محياه أن تغير ما ارتسم عليها من صورة اليأس.

ولم يبد منه ما يدل على أنه أحس بقربها، فصاحت به: «أتوسل إليك يا روبن أن تكلمني» وأفزعها صوتها أكثر مما أفزعها هذا السكون الرهيب.

وتنبه زوجها ونظر إليها ثم جرّها إلى الصخرة وأشار بإصبعه، فإذا غلامها هناك راقد ... نائم نومًا لا حلم فيه ولا يقظة منه ... على أوراق الشجر الجافة، وخده على ذراعه، وأعضاؤه مسترخية قليلاً ... أفتراه أدركه إعياء مباغت ...؟ أيمكن أن يوقظه صوت أمه ويرده إليها ...؟ كلا ... فقد أدركت أنه الموت الذي لا حيلة فيه.

وقال زوجها: «هذه الصخرة العالية هي الحجر القائم على قبر أبيك يا دوركاس ... وستسقط أشجارك على ابنك وأبيك كليهما.»

ولم تسمع دوركاس ما قال، بل أطلقت صرخة جزع انشقت عنها حبة قلبها المطعون، وهوت مغشياً عليها إلى جانب

فتاها، وفي هذه اللحظة انقصف الفرع اليابس الذي في قمة
الشجرة ... وتهاوى هشيمه وتناثر ما يلي منه على الصخرة
... وعلى الأوراق الداوية المبعثرة ... وعلى روبن وزوجته
وابنهما ... وعلى رفات روجر مالفن.

وانعصر قلب روبن، وتفجرت الدموع من عينيه كما يتفجر
الماء من ينبوعه ... لقد وفي الرجل الذي حاقت به اللعنة
بالنذر الذي نذره وهو شاب جريح ... وقد كفر عن
خطيئته فزالت عنه اللعنة.

وفي هذه الساعة التي أهرق فيها دمًا أعز عليه من دمه،
اختلجت شفاته بصلاة ارتفعت إلى السماء، وكانت الأولى
التي تحرّكت بها منذ سنين وسنين.

إدجر ألان بو نبذ الأموثيلادو

احتملت من «فورتيناتو» ألف مساء ومساء، ولكنه اجترأ عليّ بالإهانة، فأقسمت لأنتقم منهُ، وأنت يا من تعرف طباعي معرفتها لن تظن بي أنني أجريت لسانِي بتهديد أو نطقت بكلمة وعيد. كلا... لقد آليت أن أنتقم، ووطنت نفسي على ذلك، وكان هذا مني قرارًا حاسمًا لا رجعة فيه ولا تردد. على أن هذه الصبغة النهائية لما اعتزمته استوجبت أن أتقي المجازفة. فإنه لا يكفي أن يحل به عقابي، وإنما ينبغي أن أكون في أمان من المخاوف وأنا أفعل ذلك، فإن أخذك المرء بذنب كان منه لا يكون فيه معنى الانتصاف إذا تعقبك منه ثأر؛ كذلك لا يكون الانتصاف انتصافًا إذا عجزت عن جعل الآثم المسيء يدرك ذلك.

ويجب أن يتقرر في الأذهان أني حرصت على أن أتقي كل لفظ أو عمل يحمل فورتيئاتو على الشك في حسن نيتي، ومن أجل هذا ظلت أبتسم له كعادتي كلما لقيته، ولم يدرك هو أن ابتسامي الآن إنما هو لما أتخيله من صورته إذ أقدمه قرباناً على مذبح غضبي.

وكان في فورتيئاتو هذا موضع ضعف، وإن كان فيما عدا ذلك رجلاً جديرًا بالاحترام، بل مرهوب الجانب أيضًا، وذلك أنه كان يعتز ويباهي بحذقه في تمييز أصناف النبيذ. وقَلَّ من الإيطاليين الحاذق الصادق، ويغلب أن يكون ما يلغطون به من ذلك دعوى يدعونها ليسا يروا الزمن ويغتنموا الفرص ويخدعوا أثرياء الإنجليز والنمساويين. وقد كان فورتيئاتو دعيًا كغيره في التصوير وما إليه، أما في الأنبذة المعتقدة فكان أستاذًا مخلصًا، ولم يكن بيني وبينه في هذا تفاوت يستحق الذكر، فقد كان لي مثل براعته، وكنت أشترى مقادير عظيمة لأعتقها كلما تيسر لي ذلك.

وفي إحدى الليالي، عند الشفق، وقد بلغ جنون الناس في موسم المرافع منتهاه، لقيت فورتيئاتو، وكان قد أسرف في الشراب قبل ذلك، وكان في ثياب محبوكة التفصيل متعددة الألوان، وعلى رأسه طرطور ذو أجراس، فبلغ من سروري برؤيته أنه خيل إلي أني لن أقضي وطري من مصافحته.

وقلت له: «يا صديقي العزيز، إني سعيد الحظ بلقائك،
وتالله ما أنضر وجهك اليوم ... لقد تلقيت بضعة دنان مما
يزعمونه نبيل الأمونتيلاادو ولكن الشكوك تساورني.»

فقال: «ماذا ...؟ أمونتيلاادو؟ ... مستحيل ... وفي منتصف
موسم المرافع أيضًا؟ ...»

قلت: «إني عظيم الشك أيضًا، ولكني لغفلي أديت الثمن
الوافي لهذا الشراب قبل أن أرجع إليك وأستشيرك، غير أنني
لم أعثر عليك، وخفت أن تفلت مني الفرصة.»

فجعل يتمتم: «أمونتيلاادو ...؟»

قلت: «إني أشك فيه.»

فظل يتمتم: «أمونتيلاادو؟»

فقلت: «لا بد أن أتبين.»

فعاد يتمتم: «أمونتيلاادو؟»

قلت: «ولما كنت أنت مشغولاً فسأذهب إلى لوشيزي فإنه
ذوّاق، ولا شك أنه سيجلولي ...»

فقال مقاطعاً: «إن لوشيزي لا يستطيع أن يميز النبيذ الأبيض
من نبيذ الأمونتيلا دو!»

قلت: «ومع ذلك يزعم الجاهلون أن ذوقه كذوقك!»

قال: «تعال ... امضي بي ...!»

قلت: «إلى أين؟»

قال: «إلى أقبيتك.»

قلت: «كلا يا صديقي، فلن أستغل طيب قلبك، وإني
أستطيع أن أرى أنك على موعد، وفي لوشيزي ...»

قال: «لست مرتبطاً بشيء ... تعال.»

قلت: «لا يا صديقي فإني أرى أنك مصاب ببرد شديد،
والأقبية لا تطاق رطوبتها، وجدرانها مغطاة بطبقة من
الأملاح.»

قال: «فلنذهب على الرغم من هذا البرد، فما هو شيء
... أمونتيلا دو ...؟ لقد ضحكوا عليك وخدعوك ... أما
لوشيزي فإنه يعجز عن تمييز هذا من النبيذ الأبيض!»

ولف ذراعه بذراعي، فأرخت على وجهه قناعاً من الحرير
الأسود، وضممت شملتتي وتركته يمضي مسرعاً إلى قصري.

ولم يكن في القصر خدم، فقد ولوا جميعاً ليقتصفوا احتفالاً
بالعيد، وكنت قد أخبرتهم أنني لن أعود إلا في الصباح وأمرتهم
أمري صريحاً ألا يبرحوا القصر، وكنت على يقين من أن هذا
الأمر وحده كاف لإغرائهم بالخروج متى أوليتهم ظهري.

وتناولت مشعلينناولت فورتيناتو أحدهما وتخللت به
حجرات عدة، حتى بلغنا العقد المفضي إلى القبو، ونزلنا
سلمًا طويلاً متلوياً، وأنا أرجو منه أن يأخذ حذره وهو
يتبعني حتى بلغنا الدرجة الأخيرة، ووقفنا معاً على الأرض
الرطبة في مقبرة «آل مونتريزور».

وكان صاحبي يترنح قليلاً في مشيته، وكانت أجراس
طرطوره تتلاقى وهو يخطو فتكون لها رنة.

وسألني: «أين الدنان؟ ...»

قلت: «إنها على مسافة من هنا ... ولكن انظر هذا البياض
الملتمع على جدران هذه المغارة.»

فالتفت إلي وأتأرنى النظر بعينين كأن عليهما غشاء من سجادير

السكر^١.

وسأل أخيرًا: «أملأح؟...!»

قلت: «نعم، ولكن منذ متى هذا السعال؟»

فراح يسعل، وظل المسكين دقائق كثيرة لا يستطيع أن يجيب مما أخذه من سعاله، ثم قال أخيرًا: «إنه لا شيء!»

فقلت بلهجة حازمة: «اسمع، سنعود أدراجنا، إن صحتك غالية، وأنت غني ومحبوب وعزيز مكرم وسعيد أيضًا، كما كنت أنا في بعض ما خلا من العمر... ومثلك يفتقد... أما أنا فأمرى على خلاف ذلك، فسنعود إذن، فأني أخاف أن يثقل عليك الداء ولست أستطيع أن أبوء بهذه التبعة، ثم إن هناك لوشيزي...»

فقال: «كفى، إن هذا السعال لا شيء، ولن يقتلني، كلا، لن تيتني سعة.»

قلت: «صدقت، وما كان قصدي أن أثير مخاوفك ووساوسك بلا موجب، ولكن عليك أن تحاذر، ولعل كرة روية من نيزد الميدوك هذا يقينا شر الرطوبة.»
١ - السمادير ما يترأى للإنسان من السكر.

وضربت عنق قارورة أخرجتها من صف طويل من
القوارير القائمة على الأرض الرخوة وقدمتها إليه وقلت:
«اشرب» فرفعها إلى شفثيه وعينه تومض فيها معاني السرور
والظفر، وهز رأسه إلى فرنت أجراس طرطوره وقال: «إني
أشرب نخب المدفونين الراقدين هنا.»

فقلت: «وأنا أشرب متمنيًا لك عمرًا مديدًا.»

وعاد إلى ساعدي فتناوله واستأنفنا السير.

وقال: «إن هذه الأقبية طويلة.»

قلت: «لقد كان آل مونتريزور كثيرين وسادة.»

قال: «لقد نسيت شارتك!»

قلت: «قدم عزيمة من الذهب في حقل لازوردي، والقدم
تدوس حية قائمة وناباها مغروزان في الكعب!»

قال: «وشعاركم؟...!»

قلت: «لا أمن لمن يستفزني.»

قال: «حسن.»

وكانت عينه تلتمع من فعل النبيذ، والأجراس ترن، وكان الشراب قد طار في رأسي أيضًا فنشط خيالي، وكنا قد اجتزنا جدرانًا تكدست إلى جانبها العظام، واختلطت بالدنان والرواقيد والخوابي، حتى بلغنا أقصى أركان المقبرة، فوقفت وتشجعت وقبضت على ذراعه من فوق المرفق وقلت:

«هذه الأملاح ... انظر ... إنها تزداد على الجدران وتبدو معلقة كالطحلب فإنها تحت مجرى النهر، وقطرات الرشح تجري بين العظام، فلنعد قبل أن تضيع الفرصة، فإن سعالك ...»

فقال: «إنه لا شيء فلنستمر، ولكن هات اسقني أولاً من النبيذ المبدوك.»

فأطرت عنق زجاجة من نبيذ «دي جراف» وناولته إياها فأفرغها في فمه ولمعت عيناه لمعًا قويًا، وضحك ورفع يده بالزجاجة إلى فوق مشيرًا بها إشارة لم أفهم لها معنى.

ونظرت إليه مستغربًا، فكرر الإشارة — وكانت فيما يبدو لي مضحكة — فقال: «ألا تفهم؟»

قلت: «لا...»

قال: «إذن أنت لست من العشيرة؟»

قلت: «ماذا تعني؟»

قال: «لست من عشيرة البنائين (الماسون).»

قلت: «نعم، نعم، أنا منهم!»

قال: «أنت؟ بناء...؟ مستحيل...»

قلت: «بناء.»

قال: «هات أمانة.»

قلت: «هذه هي.»

وأخرجت له مِسْجَةً^٢ من ثنايا عباة تي.

فقال وهو يتراجع بضع خطوات: «إنك تمزح، ولكن هيا بنا إلى دنان الأمونتيلا^٣دو.»

قلت: «فليكن ما تريد.»

٢ - سج الحائط مسحه بالطين أو نحوه والمسجة التي يطلى بها.

ورددت المسجّة إلى حيث كانت تحت مشملي وناولته ذراعي ليتأبطها فاتكأ عليها بوزنه ومضينا في طريقنا إلى الأمونيتيلادو وسرنا تحت سلسلة من العقود الواطئة، وانحدرنا شيئاً ثم استقمنا ثم عدنا فانحدرنا كرةً أخرى وبلغنا جديرة^٣ طويلة فاسدة الهواء حتى لكان المشعلان يتوهجان ولا يرتفع لهما لسان.

وكان في أقصى هذه الجديرة أخرى أضيق منها، وكانت جدرانها قد رصت إلى جانبها العظام البشرية وارتفعت على مستواها إلى العقد على نحو ما في المقابر الكبرى في باريس. وكانت ثلاثة من جدران هذا المخبأ الداخلي مزدانة على هذه الصورة، أما الجدار الرابع، فقد سقطت عنه العظام واختلطت على الأرض وصار بعضها كومة. ورأينا من فرجة في الحائط الذي انكشف لنا بسقوط العظام عنه مخبأً داخلياً آخر يبلغ طوله أربع أقدام، وعرضه ثلاث أقدام وارتفاعه من ست أقدام إلى سبع. ولم يكن فيما يبدو متخذاً لغرض خاص، وإنما كان فرجة بين عمادين ضخمين يحملان سقف المقابر، وكان آخره أحد حيطانها المبنية من الصخر الأصم.

وعبثاً حاول فورتيناتو أن يرفع مشعله ليرى آخر هذا المخبأ فما كان هذا الضوء الخافت ليساعد على الرؤية.

٣ - الجديرة: مجموعة من الصخور.

وقلت له: «امش فإن هنا دنان الأمونتيلاادو. أما لوشيزي
«...»

فقال مقاطعًا: «إنه جهول.» وخطا إلى الأمام في اضطراب وأنا في أثره، وما لبث أن بلغ آخر المخبأ، وألقى الصخر يحول دون المضي، فوقف مذهولًا كالأبله، وما هي إلا هنيهة حتى كنت قد قيدته إلى الصخرة، وكان على وجهها حلقتان من حديد تتدلى من إحداهما سلسلة قصيرة ومن الأخرى قفل. ولم أحتج إلى أكثر من ثوان قليلة لأشد السلسلة على خصره وأثبتها في القفل، وكان هو من فرط الذهول لا يقاوم.

ونزعت مفتاح القفل وتراجعت خارجًا من المخبأ وأنا أقول: «أرح كفك على الحائط فلن يسعك إلا أن تحس الأملاح. والحق أنه مكان رطب جدًّا. فاسمح لي مرة أخرى أن أناشدك أن ترجع ... لا؟ إذن لا يسعني إلا أن أدعك وما أثرت لنفسك، غير أنني سأؤدي لك قبل رحيلي كل ما يدخل في طوقي.»

فصاح: «الأمونتيلاادو.» وكان لا يزال في ذهوله لم يفق منه.

فقلت: «صحيح ... الأمونتيلاادو.» وأقبلت وأنا أقول ذلك

على كوم العظام الذي أسلفت ذكره فنحيته وكشفت عن حجارة وطنين. وبهذا وتلك — وبفضل المسجّ الذي كان معي — شرعت أبني المخبأ وأسده.

ولم أكد أفرغ من أول مدماك^٤ حتى تبينت أن فروتيناتو قد راحت سكرته إلى حد كبير وكان أول ما دلني على ذلك أنين خافت من أعماق المخبأ، ولم تكن هذه بآنة رجل سكران، وأعقب ذلك سكون طويل، ورفعت المدماك الثاني ثم الثالث ثم الرابع فسمعت صوت السلسلة وهو يجاهد بعنف أن يفكها، وظلت هذه الضجة دقائق عديدة كففت في أثنائها عن العمل وقعدت على العظام لأنصت. وانقطع الصوت فعدت إلى العمل وبنيت المدماك الخامس فالسادس فالسابع بلا شاغل. وصار الجدار الذي أرفعه محاذياً لصدري فتوقفت مرةً أخرى ورفعت المشعل فوق البناء فأراق ضوءه الضعيف على الرجل. وفي هذه اللحظة أطلق فورتيناتو سلسلة صيحات حادة فاجأني بها فأحسست أني رُددت إلى الوراء، فترددت لحظة قصيرة واضطربت أيضاً وجردت خنجري من قرابه ورحت أضرب به داخل المخبأ، ولكن التفكير السريع أعاد إلى نفسي الاطمئنان فوضعت يدي على البناء المتين وأحسست بالارتياح والرضى. وعدت إلى الحائط الذي أرفع بناءه وأجبت الصارخ من ورائه ... رجّعت صدى صوته ... أعنته ... بذذته بأعلى من صياحه وأشد ... فقررت الضجة وعادات السكينة.

٤ - المدماك الصف من الحجارة المبنية، ولفظه عربي صحيح.

وكان الليل قد انتصف وقارب عملي ختامه، فقد أتممت المدماك الثامن فالتاسع فالعاشر، ولم يبق على تمام الحادي عشر إلا حجر واحد أضعه في مكانه وأمسح عليه، فحملته بجهد وشرعت أضعه، ولكن ضحكة ضعيفة ارتفع بها الصوت إليّ من أعماق المخبأ، فوقف لها شعر رأسي، وتلاها صوت حزين كان من العسير أن أصدق أنه صوت فورتيناتو النبيل، وكان الصوت يجري هكذا: «هاهاها... هي هي هي... يا لها من فكاهة... مزحة ظريفة جدًا... سنضحك كثيرًا حين نعود إلى القصر... هاهاها... على الشراب... هاهاها.»

فقلت: «الأمونتيلاادو.»

فردد ضحكته وكلمتي: «هي هي هي... هاهاها... نعم الأمونتيلاادو... ولكن ألسنا قد تأخرنا جدًا...؟ سيطول عليهم الانتظار في القصر... السيدة فورتيناتو والبقية... فلنذهب.»

قلت: «نعم فلنذهب.»

فصاح: «أستحلفك بالله يا مونتريزور.»

فقلت: «نعم أستحلفك بالله.»

وعبثاً انتظرت أن أسمع جواباً لهذا، فضجرت وصحت:
«فورتيناتو»، فلم أسمع جواباً، فصحت مرة أخرى
«فورتيناتو».

فلم يتأد إليّ صوت، فدفعت يدي بالمشعل من الفرجة
الضيقة الباقية وتركته يقع، فلم أسمع سوى رنين
الأجراس، فأحسست بقلبي يعصره شيء، من جراء الرطوبة
في هذه المقبرة. فأسرعت وأتممت عملي وثبّتُ الحجر الأخير
في مكانه وطلّيته بالطين، ثم رصصت على البناء الجديد
العظام القديمة، وقد مضى نصف قرن لم يزعجها فيه شيء.

تشارلز ديكنز

شجرة الميلاد

ثلاثة أفرع

(١) الفرع الأول: «نفسى»

احتفظت بسر واحد في حياتي، ذلك أني رجل حيي. وما من أحد يخطر له ذلك، وما من أحد خطر له ذلك، وما من أحد يمكن أن يخطر له ذلك، ولكني بطيعتي رجل حيي. وهذا هو السر الذي لم تضطرب به شفتي قبل اليوم.

وفي وسعي أن أحرك نفس القارئ ببيان الأماكن العديدة التي اتقيت أن أذهب إليها، والناس الكثيرين الذين اجتنبت أن أزورهم أو أن أستقبلهم، وما اضطرت أن أتحماهم من المجتمعات لا لسبب سوى أني بطبيعة تكويني، وما بنيت

عليه فطرتي، رجل حيي. غير أني أؤثر أن أدع نفس القارئ ساكنة، وأن أمضي إلى غايتي.

وغايتي هي أن أروي ما كان من رحلتي إلى فندق شجرة الميلاد، وما وقفت عليه فيه هناك حيث ضرب عليّ الجليد نطاقًا. وكان ذلك في عام ستظل ذكراه باقية، فارقت فيه «أنجيلا ليث» إلى غير رجعة، وكنت أهم بزواجها، فعلمت أنها تؤثر صديقي الحميم «إدوين»، وكنت منذ عهد التلمذة أقر له فيما بيني وبين نفسي بالتفوق والمزية والرجحان. وقد حز في نفسي تفضيلها له ولكنني لم يسعني إلا أن أدرك أن الأمر طبيعي، فحاولت أن أصفح عنهما، وانتويت الرحيل إلى أمريكا، في طريقي إلى الشيطان.

ولم أفض بشيء مما علمت إلى أنجيلا أو إدوين، وقلت أبعث إلى كل منهما بكتاب أضمنه دعائي لهما وعفوي عنهما، ويحمله عامل السفينة إلى صندوق البريد، على حين أكون أنا مولياً وجهي شطر العالم الجديد — أقول إنني دفنت حزني في صدري، وعزيت نفسي بما وطتها عليه من التسامح والمروءة، وفارقت كل ما هو عزيز عليّ، وشرعت في هذه الرحلة الموحشة التي أسلفت الإشارة إليها.

وكان الشتاء على أشد ما يكون قرصًا حين غادرت بيتي

إلى الأبد، في الساعة الخامسة صباحًا. ولا أحتاج أن أقول إنني حلقت ذقني على ضوء شمعة، وإن البرد كان يهرؤني هراء شديدة، وإنني كنت أحس كأني قمت من النوم لأشنع، وهو إحساس مقترن عندي بالنهوض قبل الأوان في مثل هذه الأحوال.

وما زلت أذكر جهامة «فليت ستريت»، لما خرجت إليه من حي «التمبل» وكانت ألسنة المصاييح تضطرب من زيف الرياح النكباء، حتى لكأن الغاز نفسه قد تقبض من البرد. وكنت أرى أعالي البيوت البيضاء، وصفحة السماء المقرورة، والنجوم فيها خفاقة اللمعان، والساعين إلى الأسواق وغيرهم من المبكرين وهم يهرولون ليدور في عروقهم الدم الذي كاد يجمد، وألمح الضوء، وأكاد أحس الدفء من المقاهي القليلة المفتوحة لأمثال هؤلاء الزباين، ولا يسعني إلا أن أشعر بالبرَد الذي كان الهواء يجلد به وجهي كالسوط.

وكان باقيًا على نهاية الشهر وختام العام تسعة أيام، وكانت السفينة الذهابية إلى الولايات المتحدة ستغادر ميناء «ليفربول» — إذا كان الجو ملائمًا — في اليوم الأول من الشهر التالي، فأمامي فسحة من الوقت، فخطر لي أن أزور مكانًا (لا داعي لذكر اسمه) على الحدود القصوى لمقاطعة

يوركشير. يذكرنيها دائماً، ويحبها إليّ أني التقيت فيها أول ما التقيت بأنجيلا في بيت ريفي، وقد أحسست أن مما هو خليق أن يخفف لواعجي، أن أودع هذا المكان قبل أن أنفي نفسي، ويحسن أن أقول هنا إنني أردت أن أمنع البحث عني قبل إمضاء عزمي، فكتبت إلى أنجيلا ليلاً قبل رحيلي — كما كانت عادي — أقول لها إن عملاً لا يحتمل الإرجاء، ستعرف تفاصيله فيما بعد، استوجب سفري وغيابي أسبوعاً أو عشرة أيام.

ولم تكن السكة الحديدية الشمالية قد مُدت في ذلك الحين، وكان الانتقال والسفر بالمركبات التي أراني أحياناً — كغيري من الناس — أتكلف الأسف على زوال عهدها، وإن كان كل امرئ يفرق من ركوبها ويعدّه عذاباً غليظاً. وكنت قد احتفظت بمقعد إلى جانب الحوذي على أسرع هذه المركبات، وكان همي الآن أن أركب شيئاً ومعني حقيتي إلى نزل «البيكوك» في أسلنجتون وهناك أنضم إلى الركب. ولكن الحمال الذي كانت معه حقيتي روى لي أن كتلاً عظيمة من الجليد سابحة منذ بضعة أيام في النهر تلاقى في الليل وصارت معبراً في النهر من «حدائق التمبل» إلى شاطئ «ساري»، فلما سمعت هذا رحلت أسأل نفسي «أليس مقعدي إلى جانب الحوذي خليقاً أن يضع نهاية سريعة مقرورة لشقائي؟» ولا شك أني كنت محزوناً كسير القلب، ولكنني لم أكن قد بلغت من ذاك مبلغاً يرغمني في الموت برداً.

ولما بلغت نزل البيكوك — حيث ألفت كل امرئ يحتسي
شرابه حارًّا التماسًا للمحافظة على الذات — سألت هل
في المركبة مقعد داخلي؟ على أني تبينت أني — في الداخل
والخارج — الراكب الوحيد. وكان هذا مما زاد شعوري
بشدة الشتاء وسوء الجو، فقد كان الإقبال على هذه المركبة
خاصة عظيمًا. واحتسيت شيئًا من الشراب ألفتته سائغًا
جدًّا، وركبت فغطوني بالقش إلى وسطي، وبدأت رحلتي
وأنا شاعر بما في منظري من بواعث الإضحاك والسخرية.

وغادرنا «البيكوك» والدنيا ما زالت ملفوفة في مثل الشملة
من الظلام، وكانت أشباح البيوت والأشجار تبدو غائمةً
باهتة كأنها منظورة من خلال الضباب ثم طلع النهار
جامدًا أسود مصرورًا. وكان الناس يضرمون النار في مواقدهم
والدخان يرتفع مستقيمًا ذاهبًا في طبقات الهواء الرقيق،
ونحن نفرقر بمركبتنا إلى «هايجيت ارشوي» على أوعر أرض
رن عليها حافر. ودخلنا في الريف فخیل إليّ أن كل شيء قد
شاخ وعلته شبيهة — الطرق والأشجار والسقوف والبيادر
— وقد ترك الناس العمل خارج البيوت، وتجمد الماء المعد
لشرب الجياد، وخلت الطرق من العابرين، وأحكم إيصاد
الأبواب، وعلت ألسنة النار في بيوت الحراس الصغيرة،
وجعل الأطفال (حتى الحراس لهم أطفال ويبدو عليهم
أنهم يجوبونهم) يمسحون الغيم عن الزجاج بسواعدهم البضة
لتأخذ عيونهم اللامعة منظر المركبة الفريدة المارة بهم. ولا

أدري متى بدأ البرد يتكاثف، ولكنني أدري أننا كنا نغير الخيل في مكان ما فسمعت الحارس يقول إن السماء جادة في إلقاء الثلج علينا، فنظرت فألفيته يسقط علينا بسرعة وكثرة.

وانقضى النهار الموحش وقد نمته كما يفعل المسافر المستفرد، وأحسست بالدفء والقوة والشجاعة بعد الطعام والشراب — ولا سيما بعد العشاء — أما ما خلا أوقات الطعام فإني لا أحس فيه إلا بالانقباض. وكنت ذاهلاً عن الزمان والمكان، وأكاد أكون في غير وعيي. وكانت المركبة والجياد كأنما تشدو بلحن لا ينقطع ولا يختلف حتى لأزعجتني الدقة في ذلك، وبينما كانت الخيل تغيّر كان الحراس يدبذبون وهم يتمشون راثحين غادين، ويتركون آثار أحذيتهم على الثلج ويُفرغون في بطونهم من الشراب مقادير عظيمة لم تؤثر فيهم، فلما دخل الظلام مرة أخرى اختلط عليّ أمرهم بـمِلمِلمين كبيرين هناك. وتعثرت الخيل في مواضع فأنهضناها، وكان هذا خير ما حدث لي وأمتع ما وقع لأنه أشعري الدفء. وكان الثلج لا يزال يسقط، ويسقط ولا يكف عن السقوط. وظل الحال على هذا المنوال طول الليل. وهكذا دارت الساعة دورتها وعدنا إلى الطريق على أصوات الحوافر والعجلات، بينما كانت السماء ماضية في إلقاء الثلج علينا لا تكف عن ذلك ولا تني أو تفر.

وقد نسيت أين كنا ظهر اليوم الثاني، وأين كان ينبغي أن نكون، ولكنني أعلم أننا كنا متأخرين عشرات من الأميال، وأن الحال كان يزداد سوءاً ساعةً بعد ساعة، فقد أخذ الثلج المتساقط يعلو جداً والعالم تختفي فيه، وصارت الطرق والحقول شيئاً واحداً، وبدلاً من أن تكون هناك حواجز وأسوار تهدينا في سيرنا كنا نخبط فوق سطح أبيض متصل غير منقطع قد يخوننا في أية لحظة فنرتمي على سفح تل. ولكن الحوذي والحارس — وكنا معاً لا ينفكان يتشاوران ويديران عيونهما فيما حولهما — استطاعا أن يسددا خطوات الجياد بدقة مذهشة.

وكنا إذا صارت بلدة على مرأى منا يخيل إلينا أنها تشبه رسماً كبيراً على أردواز^٥ وأن الكنائس والبيوت — حيث الثلج أكثر — كانت أوفر حظاً من التخطيط. وكنا ندنو من البلدة فنلقى ساعات الكنائس كلها قد تعطلت ووجوهها قد غطاها الثلج وأسماء الفنادق قد محيت فيبدو لنا المنظر كأنها هو مكسو بالنبات الأبيض. أما المركبة فقد صارت كرة من الثلج. كذلك الرجال والأطفال الذين كانوا يعدون إلى جانبنا إلى آخر البلدة ويساعدون على إدارة العجلات المرتطمة ويستحثون الجياد اللاهثة — هؤلاء أيضاً كانوا في رأي العين رجالاً وأطفالاً من الثلج. أما البيداء الموحشة التي تحلفوا عنا على تخومها فقد كانت صحراء

٥ - الأردواز: صخر أزرق أو أخضر.

ثلجية. وكان المرء معذورًا إذا توهم أن الطبيعة بلغت غاية مجهودها، وأنه ليس فوق ما صنعت زيادة لمستزيد، ولكنني أقسم أن السماء ظلت تثلجنا وتثلجنا ولا تزال تثلجنا ولا تكف أو تني عن ذلك أو تفتري.

ولبنا على هذا الحال النهار كله لا نرى شيئًا خارج البلدان والقرى غير الآثار التي يتركها القاقم والأرنب والشعلب والطير أحيانًا. وفي الساعة التاسعة ليلاً نبهتني نفخة مرحة في بوق المركبة وأصوات أناس تستبشر بها النفس وحركات مصابيح وإذا نحن قد وقفنا في ساحة من أرض يوركشير لتغيير الخيل.

وساعدوني على النزول فقلت لخادم صار رأسه العاري أبيض كرأس الملك لير في دقيقة واحدة: «أي فندق هذا؟»

قال: «فندق شجرة الميلاد.»

فالتفت إلى الحوذي والحارس بهيئة المعتذر وقلت: «أظن أنه لا بد لي أن أتخلف هنا.»

وكان صاحب الفندق وامرأته وكل من في المكان من خدم وعمال قد سألوا السائق على مرأى ومسمع من بقية

من هناك من المتطلعين المتلهفين على الجواب: هل ينوي أن يستأنف السفر فكان جوابه: «نعم سأمضي بها (يريد المركبة) إذا لم يتخل عني جورج.» وكان جورج هذا هو الحارس وكان قد أقسم أن يظل معه. ولهذا راح الرجال يخرجون الخيل.

ولم يكن إقرارى بالهزيمة بعد هذا الحديث إعلاناً بغير تمهيد، بل الواقع أنه لولا أن مهد لي الحديث طريقي إلى إعلان عزمي لكان من المشكوك فيه — وأنا رجل حيي — أن أجترئ على ذلك. على أن رغبتى قوبلت بالرضى حتى من الحارس والحوذي. ولهذا وبعد أن عززت رغبتى وسمعت ملاحظات شتى من بعض الواقفين وهم يتحادثون، ومن بينها أن: «السيد يستطيع أن يسافر مع البريد غداً. أما الليلة فليس أمامه إلا أن يموت برداً. وأي خير في أن يموت امرؤ برداً؟ آه، ودع عنك دفنه حيّاً! (العبارة الأخيرة مما زاده رجل هزّال على سبيل المزاح، على حسابي، وقد قوبلت أحسن مقابلة).

أقول إني، بعد ذلك رأيت حقيقتي تخرج من المركبة وكأنها جسم متجمد، وبذلت للحوذي والحارس ما فيه رضاها وحييتها وتمنيت لهما رحلة موفقة وسفرًا سعيدًا، ثم تبعت صاحب الفندق وامرأته وخادمه إلى الطبقة الثانية، وأنا خجل من ترك الرجلين يكافحان وحدهما.

وحُيِّلَ إِلَيَّ أَنِي لَمْ أَرِ فِي حَيَاتِي غُرْفَةً فِي سَعَةِ هَذِهِ الَّتِي مَضَوْا بِي إِلَيْهَا. وَكَانَ لَهَا خَمْسُ نَوَافِذَ عَلَيْهَا سِتَائِرٌ حُمْرَاءٌ دَاكِنَةٌ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْتَصَّ الضَّوْءَ مِنْ زِينَةِ عَامَةٍ، وَكَانَتْ رَعُوسُ هَذِهِ الْأَسْتَارِ مُحَلَّاةٌ بِضُرُوبٍ مَعْقَدَةٍ مِنَ النَسِيجِ مَمْتَدَّةٌ عَلَى الْحَائِطِ عَلَى نَحْوِ عَجِيبٍ. وَقَدْ طَلَبْتُ أَنْ تَكُونَ غُرْفَتِي أَصْغَرَ، فَقَالُوا إِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ مَا هُوَ أَصْغَرُ مِنْ هَذِهِ وَلَكِنْ فِي وَسْعِهِمْ أَنْ يَضَعُوا لِي سِتْرًا مَتَحَرِّكًا. وَجَاءُونِي بِسِتْرِ يَابَانِيٍّ عَلَيْهِ صُورُ أَنْاسِ (يَابَانِيِّينَ عَلَى مَا أَظُنُّ) يَبَاشِرُونَ أَعْمَالًا سَخِيفَةً وَتَرْكُونِي أُشَوِّى أَمَامَ نَارٍ عَظِيمَةٍ.

وَكَانَتْ غُرْفَتِي هَذِهِ عَلَى مَسَافَةِ رُبْعِ مِيلٍ أَوْ حَوْلَ ذَلِكَ مِنْ بَدَايَةِ دَهْلِيزٍ طَوِيلٍ يَفْضِي إِلَيْهِ سَلَمٌ عَظِيمٌ. وَقُلٌّ مِنْ يَدْرُونَ أَيَّ عَذَابٍ يَحْدِثُهُ هَذَا لِلرَّجُلِ حَيًّا. يُوْثَرُ أَلَّا يَلْتَقِيَ بِأَحَدٍ عَلَى دَرَجَاتِ السَّلَمِ. وَكَانَتْ الْغُرْفَةُ أَكْلَحَ مَا جِثْمَ عَلَى صَدْرِي فِيهِ كَابُوسٌ. وَكَانَ كُلُّ مَا فِيهَا مِنْ أَثَاثٍ ضَخْمًا عَالِي الظَّهْرِ مُسْتَدَقٌ الْوَسْطَ كَالْمَغْزُولِ وَلَا أُسْتَشْنِي مِنْ ذَلِكَ عَمْدَ السَّرِيرِ الْأَرْبَعَةِ وَالشَّمْعَدَانِيَيْنِ الْفَضِييْنِ الْقَدِيمَيْنِ. وَكُنْتُ فِيهَا إِذَا أَطْلَلْتُ بَوَجهِي مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ الْمُتَحَرِّكِ، يَهْجُمُ عَلَيَّ تِيَارُ الْهَوَاءِ كَأَنَّهُ الثُّورُ الْمَجْنُونُ، وَإِذَا بَقِيتُ لَا أَرِيْمُ مَكَانِي عَلَى مَقْعَدِي اشْتَدَّ عَلَيَّ حَرُّ النَّارِ وَتَرْكَنِي كَالْأَجْرَةِ الْجَدِيدَةِ، وَكَانَتْ الصَّفَّةُ الَّتِي فَوْقَ الْمَوْقِدِ عَالِيَةً جَدًّا وَعَلَيْهَا مَرَاةٌ سَوْءٌ، أُسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ إِنَّهَا «مَتَمُوجَةٌ» فَكُنْتُ إِذَا وَقَفْتُ وَنَظَرْتُ فِيهَا أَرْتَنِي مَا يَنْمُو فَوْقَ رَأْسِي، وَقَلَمًا يَكُونُ مَا فَوْقَ

الحاجبين منظرًا حسنًا، وإذا أوليت الموقد ظهري استقبلت
قبواً جهماً من الظلام فوقى، وفيما وراء الستر لا سبيل إلى
تحويل العين عنه، وكانت الأستار العشرة على النوافذ
الخمس تتلوى وتمسح الجدران كأنها عشب من الديدان
العظيمة.

وأحسب أن ما أراه في نفسي لا بد أن يراه في أنفسهم غيري
ممن لهم مثل طباعي وفطرتي، ومن أجل هذا أجتري على
القول بأنني في أسفاري ما نزلت بمكان قط إلا وددت أن
أبادر إلى الخروج منه، فقبل أن أرفع يدي عن عشائي —
وكان قوامه دجاجة محمرة ونبیذاً معتقاً ساخناً — شرحت
للخادم بالتفصيل تدابير رحيلي في الصباح: الإفطار ومعه
بيان التكاليف في الساعة الثامنة ... والسفر في الساعة
التاسعة ... جوادان ... أو إذا احتاج الأمر إلى أكثر فأربعة
...

وكنت متعباً مكدوداً، ولكن الليل مع ذلك طال علي حتى
لكأنه أسبوع. وكنت في فترات الراحة من الكابوس أفكر
في أنجيلا. وضاعف شعوري بالهم والحزن أنني في مكان على
أقصر طريق إلى «جريتينا جرين». وما لي أنا وجريتينا جرين؟
... وحدثت نفسي بمرارة أنني لست ماضياً إلى الشيطان عن
هذا الطريق، بل عن طريق أمريكا ...

وفي الصباح علمت أن الثلج ظل يسقط طول الليل، ورأيت أنه ما زال يسقط، وأدركت أنني في نطاق من الجمد. وما من شيء يستطيع أن يخرج من هذا المكان أو يأتي إليه قبل أن يجيء العمال ويرفعوا الثلج عن الطريق. ومتى يشقونه إلى هذا الفندق؟ لا يعلم أحد.

وصرنا في يوم عيد الميلاد. وهو عيد لا اغتباط لي به في هذا العام في أي مكان على كل حال، فلا قيمة للأمر من هذه الناحية، ولكن احتباسي هنا كان أشبه بالموت بردًا، وهو أمر لم يكن لي في حساب. وأحسست بوحشة. ومع ذلك لم أستطع أن أقترح على صاحب الفندق وامرأته أن يأذنا لي في مجالستهما (وكان هذا خليقًا أن يسرني) كما لا أستطيع أن أطلب إليهما أن يهديا إليّ شيئًا من الآنية! وها هنا محل الإشارة إلى سري الأكبر، وأعني به أي رجل شديد الحياء بالفطرة، ومن عادة الرجل الحي أن يتوهم أن غيره مثله. لهذا خجلت أن أرجو منهما أن يضماني إلى مجلسهما، بل كبر في وهمي أن هذا قد يحدث لهما ارتباكًا شديدًا.

لهذا بدالي أن خير ما أصنع هو أن أستقر في غرفتي، فسألت هل هنا شيء يقرأ؟ فجاءني الخادم بكتاب عن الطرق، وصحيفتين أو ثلاث قديمة، وكتاب أغان صغير، ينتهي بمجموعة من «الأنخاب» وكتاب نكت، ونسخة قديمة

من «بريجرين بيكل» و«الرجعة العاطفية» وكنت أعرف كل حرف من الكتابين الأخيرين، ولكنني مع ذلك قرأتها مرة أخرى، ثم حاولت أن أشدو بالأغاني، ولم تفتني نكتة مما في كتابها، وقد وجدت فيها ذخراً من الكآبة واءمت حالتي النفسية! واقترحت على نفسي كل الأنخاب المدونة وأعربت عن جميع العواطف المسجلة، وحفظت ما في الجرائد عن ظهر قلب، ولم يكن فيها سوى إعلانات عن بضائع وبيان عن اجتماع وخبر عن حادثة سطو في الطريق. ولما كنت منهوماً بالقراءة فقد التهمت ما أعطونيه قبل دخول الليل، بل لقد فرغت منه كله قبل وقت الشاي، ولم يبق لي إلا ما أستطيع أنا تدبيره لتزجية الوقت، فقضيت ساعة أفكر فيما عسى أن أصنع بعد ذلك. وأخيراً خطرت لي (فقد كان يعنيني أن أنقي من رأسي كل خاطر له صلة بأنجيلا وإدوين) أن أنشر المطوي مما وعته الذاكرة من تجاربي المقترنة بالفنادق، وأنظر أي وقت يذهب في ذلك، فحركت النار وأدريت كرسياً من الستر المتحرك — ولم أجرو أن أدنو جداً مخافة أن تهجم عليّ الريح المتربصة ورائه، وكنت أسمع صوتها — وبدأت.

أقدم ما أذكر من أمر الفنادق يرجع إلى عهد الطفولة، لهذا كررت راجعاً إلى ذلك العهد واتخذت منه بداية، فألفت نفسي على ركبة امرأة شاحبة الوجه ضيقة العينين، قنواء الأنف، خضراء الثوب، لا تعرف من الأقاصيص إلا واحدة

عن سري من أهل الناحية كان ضيوفه يخنفون بلا سبب، ومضت سنوات ثم ظهر أن همه من حياته أن يصنع من لحومهم «فطيرًا» ولكي يكون تخليه أتم لهذا الضرب من الصناعة وتوفره عليه أرقى أنشأ بابًا سرّيًا خلف رأس السرير، فإذا نام الضيف (المتخوم بالفطير) دخل عليه هذا السرير وفي إحدى يديه مصباح وفي الأخرى سكين وقطع رقبتة ثم طبخه وصنع منه فطيرًا. ولهذا اتخذ في موضع مستور تحت السرير مراجل لا تفتأ تغلي. وكان يحدو رقاقه هذا في فحمة الليل، ومع ذلك لم يسلم من وخز الضمير، فما نام قط إلا تتمم «الفلفل كثير» فما لبث أن أسلمته التمتمة إلى العدالة.

وما كدت أفرغ من قصة هذا المجرم حتى تذكرت أخرى من مخلفات ذلك العهد عن رجل كانت صناعته في الأصل السطو على البيوت، وقد جر عليه ذلك صلح أذنه اليمنى في إحدى الليالي بينما كان يهم بالدخول من نافذة، صلمتها له خادمة جميلة قوية القلب (كانت العجوز ذات الأنف الأقنى وإن كانت أبعد خلق الله عن هذا الوصف، تدع السامع يتوهم أنها هي تلك الخادمة الحسنة الجريئة). وبعد سنين عدة زُفت هذه الغيداء الباسلة إلى صاحب فندق وكانت له عادة غريبة هي أنه يلبس قلنسوة من حرير لا ينزعها أبدًا في ليل أو نهار كائنه ما كانت الأحوال. ففي إحدى الليالي نزعَت هذه المرأة الجميلة الجريئة قلنسوته عن أذنه اليمنى

فإذا هي مصلومة! فأدركت أنه هو اللص الذي قطعت له أذنه وأنه تزوجها ليفتك بها، انتقامًا منها، فأسرعت إلى السفود أو المحضاء فأحمته وقضت به عليه قبل أن يقضي عليها، فحملوها إلى الملك جورج على عرشه حيث تقبلت منه الشاء الملكي السامي على حكمتها وعقلها وشجاعتها.

وكانت هذه القصة العجوز، على ما تبينت من زمان طويل، تجدل لذة وحشية في إرغابي وإطارة صوابي من الخوف، وقد روت لي ما زعمته قصة واقعية من تجاربها ولكنني أعتقد أنها مولدة من رواية «ريموند واجنز أو الراهبة الدامية» وقد قالت: إن الحادثة وقعت لزوج أختها، وكان على ما ادعت غنيًا جدًا، ولم يكن أبي كذلك. وكان يسر هذه العجوز الغولية المزاج أن تعرض أقاربي الأذنين وأصدقائي على عقلي الصغير، في صور مستهجنة. قالت: وكان قريبها هذا يخترق غابة وهو ممتط صهوة جواد أصيل (ولم يكن لنا جواد أصيل) يتبعه ويمشي في ركابه كلب قوي لا يقوم بهال (ولم يكن لنا كلب). وأمسى عليه الليل وهو سائر فعرج على فندق ففتحت له الباب امرأة سمراء فسألها: هل يجد عندها سريراً؟ فقالت: نعم، وأدخلت حصانه الإسطل ومضت به هو إلى غرفة فيها رجلان أسمران، وبينما كان يتمشى شرع ببغاء، كان في الغرفة، يتكلم ويقول: «الدم! الدم! امسحوا الدم!» فهض إليه أحد الرجلين الأسمرين ولوى عنقه فمات، وعاد وهو يقول: إنه

يجب البيغاوات المحمّرة، وأنه سيفطر بهذا في الصباح. وبعد أن أكل صاحبنا الغني جدًّا وشرب حتى هنئ صعد لينام، ولكنه كان ساخطًا لأنهم حبسوا كلبه في الإسطبل زاعمين أنهم لا يسمحون بترك الكلاب طليقة في الخان. ولبث ساكنًا أكثر من ساعة يفكر، ولما أشفت شمعته على الفناء سمع صوت حك بالباب ففتحه وإذا بكلبه وراءه، ودخل الكلب على مهل وجعل يشم ثم مضى رأسًا إلى قش في ركن، قال أحد الرجلين الأسمرين: إنه يغطي تفاحًا، ونثر الكلب القش فكشف عن ملاءتين ملوثتين بالدم، وفي هذه اللحظة انطفأت الشمعة، ونظر صاحبنا من ثقب بالباب فألقى الرجلين الأسمرين يصعدان على أطراف أصابعهما ومع أحدهما خنجر يبلغ طوله خمس أقدام، ومع الثاني ساطور وغرارة وفأس. وقد نسيت بقية القصة وأحسب أن الرعب أورثني الخدر وأفقدني القدرة على الإصغاء حوالي ربع ساعة.

وانتقلت من هذه الأفاقيص — وأنا قاعد أمام الموقد في فندق شجرة الميلاد — إلى قصة خان «رودسيد»، وكيف ضبط صاحبه إلى جانب سرير الضيف المقتول، وسكينه عند قدميه، والدم على يديه. وكيف شنقوه على الرغم من قوله إنه صعد إليه ليقتله ولكنه جمد في مكانه إذ وجده قد ذبح قبل ذلك، وكيف أنه بعد سنين عدة، اعترف خادم الخان بالقتل.

ولما بلغت إلى هنا في نشر المطوي من ذكرياتي، استولى عليّ القلق فنهضت وحركت النار وأوليتها ظهري ولبثت هكذا حتى لم أعد أطيق حرها، وكنت أحرق في الظلام الحالِك وراء الستر، وأنظر إلى الستائر التي تتحرك كالديدان في أنشودة «ألونزو الشجاع وإيموجين الحسناء».

وتذكرت خانًا في البلدة التي دخلت مدرستها، ولما كانت ذكرياته أحلى وأشرح للصدر، فقد تناولتها وأحيتها. كان ذلك خانًا ينزل فيه الأصدقاء وكنا نحن نقصد إليه فيسخر علينا صاحبه بما عنده، وكنت مجنونًا بحب ابنته — ولكن دع هذا — وفي هذا الخان حنت عليّ أختي الصغيرة وهي تبكي لأن عيني ورمت في ملاكمة. وقد ذهبت أختي منذ سنوات طويلات المدد، إلى حيث تجف العبرات، ولكن هذه الذكرى، على بعد مسافة الزمن، عطف قلبها ورققته لها.

وتناولت شمعتي ومضيت إلى سريري وأنا أقول: «البقية تأتي غدًا.» ولكن سريري تكفل بإبقاء خواطري في هذا المجرى، فألفيتني أحمل، على مثل البساط المسحور، إلى مكان قصي (وإن كان في إنجلترا)، وهناك نزلت من مركبة عند باب خانٍ والسماء تثلجنا. وأعدت وأنا نائم تجربة غريبة وقعت لي بالفعل. ذلك أنه قبل هذه الرحلة التي كرت بي الذاكرة

إليها، بأكثر من عام، تُوفي صديق لي كان عزيزاً علي وأثيراً
عندي، فصرت أراه كل ليلة في أحلامي سواء أكنت راقداً في
بיתי أم في غيره، وكان يبدو لي تارة كأنه ما زال حياً، وطوراً
كأنه عائد إليّ من عالم الأرواح والأشباح ليعزيني ويسليني،
ولكنه دائماً جميل، ساكن، سعيد، لا يُجري في البال أو يحرك
في النفس أي معنى من معاني الجزع والأسى. وكان الخان
الذي نزلت فيه بعد ذلك الحادث في رقعة فسيحة من
الريف، وبعد أن أشرفت من نافذة غرفتي على الثلج الذي
يكسو الأرض ويضيئه القمر، جلست إلى جانب الموقد لأكتب
رسالة. وكنت إلى تلك اللحظة قد حرصت على أن أكتُم أني
أرى صديقي العزيز الذي فقدته، في منامي كل ليلة. فدونت
هذا في الرسالة التي كتبتها وزدت على ذلك أني أريد أن أرى
هل يظل موضوع أحلامي ثابتاً على الوفاء لي على الرغم
من بعد الشقة (في هذا المكان) ومن تعب السفر ومجهوده؟
... كلا ... فقدت الخيال لما بحث بالسر! ولم تكتحل به
عيني سوى مرة واحدة في ستة عشر عاماً، بعد ذلك ...
وكنت في إيطاليا، فاستيقظت (أو خيل إليّ أني استيقظت) وفي
مسمعي ذلك الصوت الذي لا يُنسى، كأوضح ما يكون،
وأنا أحدثه، فتوسلت إليه — وهو يسمو فوقِي، ويخلق
ذهاباً في الهواء، صاعداً إلى قبة الغرفة العتيقة — أن يجييني
عن سؤال لي عن الحياة الأخرى. وكانت يداي لا تزالان
مبسوطتين إليه بالرجاء والتوسل لما اختفى. فسمعت جرساً
يدق على كُثب من الحديقة وصوتاً في سكون الليل العميق

يدعو المسيحيين الصادقين أن يصلوا لأرواح موتاهم ويترحموا عليهم ...

وكان ذلك اليوم، يوم عيد الموتى ...

وأعود إلى فندق شجرة الميلاد الذي أنا فيه، فأقول إني لما استيقظت في صباح اليوم التالي ألفت الحمد على حاله، والسماء الدانية المسفة تنذر بالمزيد، فأفطرت ثم ارتددت بالكرسي إلى مكانه السابق، واستأنفت ذكريات الخانات ...

كان هناك خان حسن في «ويتشير»، نزلت فيه مرة، وكان ذلك أيام كانت «ويتشير» تصنع جعتها القوية، وقبل أن تفسد الجعة ولا يبقى منها إلا المرارة. وكان الخان على تخوم سهل سالسبري، وكانت رياح الليل التي يخشخش لها شباكي تهب نائحة من «ستونهج»، وكان هناك خادم أشيب طويل الشعر، عينه زرقاء كأنها حجر الزنناد، وكان لا ينفك شاخصاً ببصره مرسلاً طرفه إلى بعيد، وكانت دعواه أنه راع قديم، وكان يبدو للناظر أنه يرقب أن يظهر على خط الأفق شبح قطيع من الغنم أكل من أزمنة مديدة. وكان له اعتقاد غريب، هو أنه ما من إنسان يستطيع أن يعد حجارة ستون هنج مرتين، ولا يختلف العدد، وأن من عدها ثلاثاً في تسع ثم وقف وقال: «إني أتحدى» ظهر له شبحٌ هائل فيموت على المكان. وقد ادعى أنه رأى الحبارى على النحو الآتي:

قال إنه خرج إلى السهل في مساء يوم في أخريات الخريف، فلمح شيئاً غامضاً يحجل حجلاناً^٦ متقطعاً فظنه لأول وهلة مظلة مركبة أطارتها الريح عنها، ثم توضّحه فاعتقد أن هذا قزم قميء على مُهر صغير. وراح يتبع هذا الشيء مسافة، ولا يدركه، ويناديه ويهيب به ولا يتلقى جواباً، فجعل يذنبه أميلاً وأميلاً، حتى لحقه أخيراً، فإذا به آخر حُبّارى في بريطانيا العظمى، وقد انحطت وفقدت جناحيها وصارت تمشي على الأرض! وآلى ليقنصنها أو يموت، فهجم عليها، ولكن الحبارى كانت قد اعتزمت هي أيضاً ألا تموت وألا يقنصها أحد، فكرت عليه وصرعته، وشوهدت بعد ذلك تسير غرباً. وهذا الرجل الغريب الشأن لعله كان في تلك المرحلة من تطوره، ممن يمشون وهم نائمون، أو لَصّاً، أو غير ذلك. ولكنني استيقظت ليلة فالفيتة في الظلام إلى جانب سريري يرتل بأعنف صوت وأقواه، فدفعت إلى الخان حسابه في اليوم التالي ورحلت عن المقاطعة كلها بأقصى ما يسعني من السرعة.

وفي خانٍ صغير في سويسرا وقعت حادثة ليست عادية، وأنا نازل به. وكان الخان أشبه بالبيت، في قرية ليس فيها إلا رُقاق ضيق يلتوي بالسالك في الجبل، وكان المدخل الرئيسي للخان من حظيرة البقر، ثم يمر الإنسان بالبغال ٦ - حجل يحجل حجلًا وحجلانًا، وهو أن يرفع المرء رجلاً ويمشي على أخرى؛ ففي المثنية شيء من الوثب.

والكلاب والطيور قبل أن يرتقي في السلم الكبير العاري إلى
الغرف التي كانت مصنوعة من خشب بلا تمليس أو دهان
أو ورق، فكأنها صناديق للتعبئة. ولم يكن هناك، فيما عدا
الخان، سوى الزقاق الملتوي وكنيسة صغيرة ذات قبة نحاسية
اللون، وغابة صنوبر، وغدير، ثم الضباب وجوانب الجبل.
وكان في الخان شاب اختفى منذ ثمانية أسابيع (وكان الوقت
شتاء) وقيل، على الظن، إن حباً له خاب، فانتظم في سلك
الجنديّة. وذكروا أنه نهض من فراشه في الليل وألقى بنفسه
في الزقاق من الغرفة التي يشاركه فيها رجل آخر. وقد
استطاع أن يتسلل من الفراش ويثب من النافذة ويسقط
على الأرض في أتم سكون، حتى إن زميله ورفيقه لم يسمع
أي صوت، وظل مستغرقاً في نومه العميق حتى أيقظوه في
الصباح وسألوه: «لويز، أين هنري؟» وراحوا يبحثون عنه
في كل مكان، ثم يئسوا فأقصرّوا. وكان هناك أمام الخان —
ككل مسكن في القرية — كوم من خشب الوقود، ولكن
كوم الخان كان أعلى وأكبر من غيره من الأكوام، لأن الخان
كان أكبر المنازل وأثراها وأحوجها إلى الوقود الكثير، وقد
لوحظ، أثناء البحث عن الغائب، أن ديكاً من ديكة الخان
كان يدع رفاقه ويزهد في معاشرّة الدجاجات، ويأبى إلا أن
يصعد إلى قمة كوم الخشب، ويظل هناك ساعات وساعات
وهو يصيح حتى ليكاد ينشق ويتفطر. ومضت خمسة
أسابيع، وانقضى الأسبوع السادس، وهذا الديك الفظيع
لا يزال يهمل واجباته البيّنة، ولا يكف عن الارتقاء إلى

قمة الكوم، ولا يفتر عن الصباح وإن كانت عيناه تكادان
تخرجان من قوة الصوت وعنفه. ولوحظ في ذلك الوقت
أيضاً أن لويز امتلأ قلبه بغضاً لهذا الديك الفظيع وسخطاً
عليه، ففي صباح يوم رآته امرأة كانت جالسة إلى نافذتها
في خيط من أشعة الشمس الفاترة، تعالج غدتها الدرقية،
أقول رآته هذه المرأة يتناول جذلاً من الخطب، وهو يسب
ويلعن، ويرمي به الديك الصائح على رأس الكوم فيقتله.
وفي هذه اللحظة انبثق النور في رأس المرأة فحقت إلى الكوم
من الخلف، وكانت تحسّضن التسلق كغيرها من نساء هذه
الناحية، فارتقت إلى رأس الكوم وصوبت عينها ثم انطلقت
تصرخ وتصرّح: «اقبضوا على لويز القاتل!» وقد رأيت هذا
القاتل في ذلك اليوم. وإني لأراه الآن وأنا جالس بجوار الموقد
في فندق شجرة الميلاد، وهو مقيد بالحبال وملقى على القش
في الإسطل، وعليه عيون البقر الوديدة، وأنفاسها المتدخنة،
وهو ينتظر مقدم البوليس، ويتلقى نظرات السخط من أهل
القرية. وكان وهو ملقى في الحظيرة يبدو لي أنه حيوان غليظ
— بل إنه أبلد ما في الإسطل — رأس سخيف، ووجه هو
كتلة من البهيمية، ولا أثر هناك لإحساس. وقد كان الشاب
المقتول يعلم أن قاتله اختلس مبالغ شتى صغيرة من مال
سيده، فيظهر أنه لجأ إلى وسيلة القتل ليخلو له وجه حياته
من هذا الذي قد يتهمة يوماً ما، بما يعلم. وقد اعترف
القاتل بهذا كله في اليوم التالي كأنها أراد أن يفرغ من الأمر
كله بعد أن قبضوا عليه وانتووا أن يقتصّوا منه. ورأيت

مرةً ثانية يوم رحلت من الخان. ولا يزال السيف في هذه الناحية يعمل عمله بالسيف، وقد رأيت هذا القاتل قاعدًا على كرسي ومشدودًا إليه، فوق منصة في سوق صغيرة، وكانت عيناه معصوبتين، ثم لمع سيف صقيل ماض «نصله مسقى بالزئبق» وخفق حوله كالريح أو النار، فلم يبق وجود لمخلوق كهذا في الدنيا. ولم يكن عجبي من سرعة العصف به، بل من أن رأسًا من هذه الرءوس المحيطة بالمكان لم يقطفه هذا السيف البتار وهو يقطع الهواء!

وثم خان حسن آخر نزلت به في ظل «مونت بلانك» صاحبتة طيبة القلب بسامة الثغر أبدًا، وبعلمها رجلٌ تقي مستقيم السيرة، وكانت الجدران في إحدى غرفه مكسوة ورقًا عليه صور حيوان، ولكن الورق لم يُعن نفسه بالإحكام والدقة في وصل قطع الورق بعضها ببعض، فصار للفيل ذيل النمر ورجلاه، وللأسد خرطوم الفيل وناباه، وللدب صورة الفهد! وقد صادفت كثيرين من الأمريكيين في هذا الفندق وكانوا جميعًا ينطقون اسم الجبل «مونت بلانك» «ماونت» ما خلا واحدًا منهم سرى النفس حسن العشرة رقيق الحاشية، اتخذ من الجبل صديقًا لا حاجة معه إلى التكلف، فكان يقتصر عند ذكره على «بلانك» فيقول عند الإفطار مثلاً: «بلانك يبدو اليوم عاليًا جدًا.» أو يكون في المساء وهو يتمشى في الفناء فيعرب عن اعتقاده أن في بلاده بعض الأقوياء المغامرين الذين يستطيعون أن يتسلقوا «بلانك» ويصلوا إلى ذروته في ساعتين.

وقضيت مرة أسبوعين في خان بشمال إنجلترا حيث لازمني شبح فطيرة مهولة. وكانت كالقلعة إلا أنها قلعة مهجورة خاوية، ولكن الخادم كان يرى أن من الأصول التي ينبغي أن تُرعى في كل وجبة أن يضع الفطيرة على المائدة، وبعد بضعة أيام رأيت أن أفهمه بأساليب شتى رقيقة أني أعد هذه الفطيرة مفروغاً منها ولا محل لها على السفرة، فكنت أصب فيها سؤر الكأس وأضع في جوفها أطباق الجبن والملاعق كأنها سلة، أو زجاجات النبيذ كأنها ثلاجة، وكان هذا كله مني عبثاً وعناء باطلاً لا يجدي، فقد كانت الفطيرة تنظف وتعاد إلى مكانها المألوف، فشككت في أمري وخيل إليّ أني لعلّي مصاب بهذيان العين، وأشفقت أن تضعض صحتي وتهدي كياني أهوال هذه الفطيرة المتخيلة فتناولت السكين وقطعت منها مثلثاً عظيماً. وما كان في وسع إنسان أن يرى ما سيكون من وراء أستار الغيب، ولكن الخادم عالج الفطيرة وأصلحها ورمّها، واستعان بنوع من الملاط ورد المثلث إلى مكانه، فأديت الحساب وفررت!

وكان فندق شجرة الميلاد قد أخذت الجهمامة تستولي عليه فقممت برحلة إلى ما وراء الستر وذهبت إلى النافذة الرابعة، ولكن الرياح ردتني منهزماً، فعدت إلى مشتاي مرة أخرى وأضرمت النار، واستأنفت نشر ما انطوى من ذكريات الفنادق.

هو خان في أقصى مقاطعة كورنول. وكان المعدنون يحتفلون فيه بعيد سنوي لهم، فأقبلت أنا وزملائي المسافرون ليلاً على الجمع المائج وهم يرقصون أمام الخان على نور المشاعل. وكانت مركبتنا قد أصابها عطب في مكان صخري على مسافة أميال، فكان من دواعي الشرف لي أن قدت أحد الجياد المحلولة. وإذا كُتب لسيد أو سيدة، ممن يقرءون هذه السطور، أن يقود حصاناً ضليعاً عالياً تتدلى رُبُطه وسُموطه وأبازيمه^٣ إلى قوائمه، وأن يمضي به وفي يده عنانه ويدخل به على حفلة راقصة ريفية فيها مائة وخمسون زوجاً من المتراقصين، فإن هذا السيد — أو السيدة — يستطيع حينئذ — وحينئذ فقط — أن يتصور كيف يدوس الحصان قدمي قائده! والأرجح أن يرتد الحصان متهيئاً حين يرى ثلاث مائة من الرجال والنساء يدورون أمامه، وقد يرفس ويضرب برجليه أيضاً على نحو لا يحفظ لقائده سمته وأهته. وعلى هذه الصورة التي نالت قليلاً من وجاهة مظهري العادي، بدوتُ أمام الخان فكنت موضع عجب القوم جميعاً. وكان الخان غاصّاً، بل كان فيه عشرون ضعفاً لسعته ولا سبيل إلى إيواء مخلوق فيه غير الحصان — وإن كان ربحاً ولا شك أن يتخلص المرء من هذا الحيوان الكريم — فوقفنا نتشاور أنا وزملائي في الأمر وكيف نقضي الليل وأكثر النهار الذي سيطلع إلى أن يكون الحداد المرح، والنجار المرح، على حال تسمح لهما بالسير إلى حيث تركنا المركبة لإصلاحها، فخرج علينا رجل من الزحام وعرض علينا طابقاً من بيته ذا

غرفتين ووعد أن يكون عشاؤنا لحم الخنزير والبيض وشرابنا عليه الجمعة، فتبعناه فرحين إلى أنظف بيت نعمنا فيه بالطعام والشراب. ولكن الطريف في الأمر أن صاحب البيت نجار يصنع الكراسي، وأن الكراسي التي قُدمت لنا كانت هياكل ليست لها مقاعد، فقضينا الوقت على أطرافها وحافاتها مشيين إلى الأمام، ولم يكن هذا أسخف ما جربنا، فقد كان أحدنا إذا نسي واعتدل، أو ضحك وارتقى إلى الوراء، يختفي ويغيب. وقد سقطتُ، ونحن نأكل اللحم والبيض على ضوء الشمعة، خمس مرات وانطويت على نفسي انطواءً لا سبيل إلى الفكاك منه بغير معونة، كما يقع أحد اللاعبين الهزّالين في حوض ماء.

وألح عليّ الشعور بالوحشة وأنا في غرفتي بفندق شجرة الميلاد، وبدأت أدرك أن الموضوع الذي اخترته لتزجية الوقت لن يكون حسبي حتى يُفرج عني الجليد، فقد أبقى هنا أسبوعاً وقد يمتد المقام إلى أسابيع.

وتذكرت قصة عن خان قضيت فيه ليلة في بلدة قديمة جميلة على تخوم ويلز، وخلاصتها أن رجلاً انتحر بالسم وهو راقد على أحد سريرين في غرفة كبيرة بالخان، على حين كان النازل معه في الغرفة نائماً فلم يشعر بشيء من فرط ما كان به من الإعياء. ولم يستعمل بعد ذلك سرير المنتحر، وتُرك في الغرفة على حاله لا يُزحزح عن موضعه

ولا تنال منه يد التغيير. وتقول القصة إن كل من نام في هذه الغرفة ولو كان غريباً آتياً من أقصى المعمورة كان يغادرها في الصباح وهو يتوهم أنه يشم رائحة صبغة الأفيون، وأن خواطره كلها كانت تدور على الانتحار، وأنه كان لا بد أن يشير إلى هذا الموضوع إذا تحدث. ودام الحال على هذا المنوال سنين عدة، ثم رأى صاحب الخان أن الأحجى، والأولى به، أن ينقل هذا السرير الذي لا يُستعمل وأن يحرقه كله — الفراش والكلية والأستار وغيرها — قال الرواة فتغير الأثر الذي يخلفه النوم في الغرفة وفتر فصار الذي يرقد فيها، إذا أصبح يحاول أن يتذكر حلمًا رآه في منامه. وكان صاحب الخان يتظاهر بمعاونته على التذكر فيقترح عليه موضوعات شتى يعلم أنها ليست هي المنشودة. ثم لا يكاد يقول: «السم» حتى يتنفذ المسافر ويقول: «نعم» ولم يحدث قط أن قال المسافر «لا» ولم يحدث قط أنه تذكر من حلمه المنسي أكثر من ذلك.

وقد أثارت هذه القصة ذكريات الخانات الفرنسية على العموم ورفعت صورها لعيني، فرأيت النساء بقبعاتهن المستديرة، والعازفين، بلحاهم البيضاء، يضربون على القيثارة وراء الباب وأنا أتعشى. وانتقلت بي الذكري إلى خانات إيقوسيا الجبلية وفطائر الشعير، والعسل، وشرائح لحم الغزال، والسمك المصيد من الخور، والوسكي، وما إليه من الأشربات. واتفق لي مرة أن كنت عائداً إلى الجنوب من

جبال إيقوسيا، وكنت مسرعاً، وفي مرجوي أن يتيسر تغيير الخيل في محطة واقعة في واد تظللله جبال تاريخية، فرأيت، والألم يفري في جوفي، صاحب الخان يخرج وفي يده منظاره ويدير به عينه باحثاً عن الخيل، وكانت هذه ترعى فلم تبد للعيان إلا بعد أربع ساعات!

وتداعت الذكور، فانتقلت من سمك الخور إلى خانات الصيادين بإنجلترا (وقد اشتركت مرات عدة في صيد السمك، فكنت أرقد في قاع السفينة أياماً كاملة وأثابر على تفادي العمل. وقد وجدت أن هذا ليس أقل جدوى في صيد الأسماك من استعمال الشص والبراعة والحذق فيه) وتذكرت من هذه الخانات غرفها البيضاء النظيفة المعطرة بأنفاس الورود النضيرة، المشرفة على النهر والسفن والفضاء المعشوشب، وقباب الكنائس والجسر، و«إمّا» الفتانة وعينيها البراقتين وابتسامتها الحلوة وكيف كانت — بارك الله فيها — تقوم على خدمتنا خفيفة رشيقة.

وصوّبتُ عيني إلى الموقد الذي يتوهج فيه الفحم المضطرم فبرزت لي صور عشرات من هذه الخانات التي كانت مراحل للبريد، والتي نفتقدها في هذه الأيام ونأسف على زوالها، وكانت رحيبة مريحة، وكانت فوق هذا عنواناً على الخضوع الإنجليزي للغضب والنهب والابتزاز. ومن شاء أن

يشهد هذه المنازل تقضي نحبها، فليمش من «بيسنجستوك» — أو حتى من «وندسور» — إلى لندن، عن طريق «هانسلو» ولنظر كيف يُعَفِّي عليها الزمن؛ الإسطبلات تتهدم وتنقض، والسابلة، والعمال الذين أخطأهم الاستقرار ينامون في الغرف المقدَّمة أمامها، والحشائش تنبت وتفرّش في عرصاتها، والحجرات التي كانت مئات من الأسرة اللينة تسوى وترتب فيها، تؤجر للأيرلنديين بشلن ونصف شلن في الأسبوع، وخمارة سوء في مكان الحانة القديمة، وبوابات مخازن المركبات تحرق للوقود، وكلب أعوج الساق واقف في المدخل.

واستطردت إلى خانات باريس، والحجرة الجميلة ذات القطع الأربع، بعد أن نصعد إليها خمسًا وسبعين ومائة درجة مصقولة بالشمع، وتدق الجرس النهار طوله فلا ترى أنك استطعت أن تؤثر في جسم إنسان أو عقله، سواك، وتتناول عشاء دون شِبعك، إذا اعتبرت الثمن، وتحولت عن هذه إلى خانات الريف بفرنسا حيث تطل بروج الكنائس على الأفنية، وترن أجراس الخيل وهي تضرب الأرض بقوائمها، والساعات من كل ضرب وعلى كل صورة، في كل غرفة، وليس بينها واحدة مضبوطة، إلا إذا اتفق أن تكون قد سبقت الوقت الصحيح أو تأخرت عنه اثنتي عشرة ساعة لا تزيد أو تنقص دقيقة. ومضيت من هذه إلى الخانات الصغيرة على الطريق في إيطاليا، حيث تجد كل الثياب القذرة التي

في البيت (غير الملبوسة!) كوماً في غرفة الاستقبال، وحيث يُحِيل البعوض وجهك في الصيف خبيصة محشوة بالزيب، ويحيل برد الشتاء لونك إلى زرقة السماء عن حمرة الورد، وحيث تأخذ ما يتيسر، وتنسى ما يتعذر، وحيث أشتهي مرة أخرى أن أغلي الشاي في وليقة إذ لا إبريق هناك! ومن ثم انتقلت إلى القصور القديمة والأديرة العتيقة التي صارت خانات، في مدن هذه البلاد المشرقة، وسلايمها الضخمة، ومنها تستطيع أن تصعد طرفك من خلال العُمد المتقاربة، إلى قبة السماء الزرقاء، وارتسمت أمامي قاعات المآدب الفخمة، والمقاصف الرحيبة، وحجرات النوم المحيرة، ولمحات خواف من شوارع رائعة ليس لها مظهر من الحقيقة، ومن هناك وثب بي الخيال إلى الخانات الصغيرة في المناطق الموبوءة بالمalaria، وخدمها الصفر الوجوه ورائحتها الخاصة المعهودة في كل مكان لا يدخل إليه الهواء، ثم إلى خانات البندقية المهولة العجيبة، وصياح النواقي تحتها وهم يجرون زوارقهم وينعطفون بها، وروائح البحر التي تتشبث بأنفك ولا تعفيك ما دمت هناك، وجرس كتدرائية سان مارك، وهو يندق نصف الليل. وعرجت بعد ذلك على خانات الرين المضطربة، التي لا تأوي فيها إلى فراشك إلا كان هذا إيذاناً بنهوض كل امرئ سواك، وفي حجرة الطعام وإلى طرف من مائتها الطويلة يجلس لفيف من الرجال الضخام الأبدان المستديري الكروش، يلبسون الحلي والأقذار ليس إلا، فما على أبدانهم سوى ذلك فيما

ترى العين، ويُحيون الليل كله ساهرين يشربون ويقرعون الكأس بالكأس ويتغنون بالنهر الذي يجري، والدوالي التي أينعت، ونبذ الرين الذي تطيب نشوته، ونساء الرين اللواتي يتبسمن، وهات لي كأسًا، وخذ كأسًا يا صاحبي، واشرب، واشرب، يا أخي، إلى آخر ذلك. وكان طبيعيًا أن أذكر خانات ألمانية أخرى تُسغف فيها الآكال بما يجعل مذاقها جميعًا واحدًا، ويزعج المرء فيها أن تقدم له اللواثق السخنة، والعُنب المغلي، والحلواء، على ترتيب غير متوقع بين الألوان الأخرى. وبعد أن كرعت — بخيالي — كرعة روية من الجعة من قدح مزبد، وألقيت نظرة على مشارب الجعة التي يختلف إليها الطلبة في هيدلبرج وغيرها، ركبت البحر إلى خانات أمريكا حيث يبلغ عدد الغرف المفردة في الواحد منها أربعمائة، وحيث يجتمع على العشاء كل يوم ثمان مائة أو تسع مائة من السيدات والسادة. فرأيتني أقف مرةً أخرى في المقصف، وأترشف من فم الكأس، وأصغي ثانية لصديقي «الجنرال»، الذي لم يمض على معرفتي به سوى خمس دقائق استطاع في خلالها أن يوثق أو اصر الود والإخاء إلى آخر العمر بيني وبين «صاغين» استطاعا هما أيضًا أن يجعلاني صديقًا حميمًا مدى الحياة لثلاثة «لواءات» صرت بفضلهم أخصًا لاثنتين وعشرين من المدنيين غير المحاربين، كل ذلك في خمس دقائق ليس إلا، أقول إنني أصغيت مرةً أخرى إلى صديقي الجنرال وهو يشرح لي مزايا الخان وما فيه من أسباب الراحة والترف وكيف أن فيه حجرات عدة

للجلوس والاستقبال، للرجال ولل سيدات، في النهار والليل، وأخرى للموسيقى والمطالعة، وأربع مائة غرفة نوم، كل هذا وضعت رسومه وتم بناؤه وتجهيزه في اثني عشر شهرًا؛ تبدأ من اليوم الذي أزيلت فيه أنقاض البناء العتيق الذي كان قائمًا، وكيف أن جملة التكاليف بلغت نصف مليون ريال. وألفيتني وأنا أكر بخيالي إلى هذا، أذهب إلى أنه كلما كان المنزل أضخم وأفخم وأبهظ تكاليف، كان ذلك أبعث على الزهد فيه وأقل استحثًا للرغبة في المقام به. على أني مع ذلك شربت على البعد نخب صديقي الجنرال، وإخواني الصاغات واللواءات والمدنيين جميعًا، فإنهم على الرغم من كل قذى رآته عيناى في عيونهم، أبناء شعبٍ عظيم رقيق كريم القلب.

وكنى وأنا أتذكر هذا أغذ السير في رجعتي القهقرى إلى ما مضى وفات، لأنفى الشعور بالوحدة وأخفف ثقل الوحشة، ولكنى أضمرنى الكلال فانقطعت من الإعياء وكففت عن متابعة هذه الخواطر. وصار السؤال الملح: ماذا أصنع؟ وماذا عسى أن يحل بي؟ أفعل كما فعل البارون «ترنك» وأبحث عن جرد أو عنكبوت حتى إذا وجدت واحدًا منها تسليت في سجنى هذا بتدريبه ورياضته؟ ولكن هذا لا يخلو من خطر إذا اعتبرنا المستقبل، فقد آلف ذلك وأشغف به حتى إذا رفع الثلج عن الطريق وخرجت فيه مرةً أخرى، فمن يدري؟ لعلى حينئذٍ أبكى وأتوسل — كسجين الباستيل

الذي أفرج عنه في شيخوخته — أن يعودوا بي إلى هذه النوافذ الخمس والستائر العشر والأفرشة السميكة المتينة.

وألح علي خاطر أغراني به اليأس. ولو كنت في أحوال غير هذه لتمردت عليه وأبته، ولكني، وأنا في هذا المأزق، تعلقت به فهل أستطيع أن أغالب حيائي الفطري الذي صدني عن مجلس صاحب الفندق وحرمني ما عسى أن أجد من الأنس عنده، وأدعو إليّ البستاني وأرجو منه أن يتناول كرسيًا — وشيئًا من الشراب أيضًا — وأن يحادثني؟ نعم أستطيع ... وسأفعل ... وقد فعلت!

(٢) الفرع الثاني: «البستاني»

أأسأل أين كان في زمانه؟ أعاد الرجل السؤال لما ألقيته عليه، وقال: إنه كان في كل مكان. وماذا كان عمله؟ لقد كان يعمل في كل شيء يخطر على البال ذكره.

أترأه رأى كثيرًا في حياته؟ بلى، ولا شك في ذلك، وإن في وسعه أن يؤكد لي هذا، فليتني أعرف جزءًا من عشرين مما صادفه في طريقه! ألا وإنه لأسهل عليه فيما يعتقد أن يذكر لي ما لم ير ...

وما أغرب ما شاهده؟ من يدري؟ ليس في وسعه أن يقول،

من عفو الخاطر ما أغرب شيء شاهده — إلا أن يكون الغول، وقد رآه مرة في سوق! ولكن إذا قيل لي إن صبيًا يناهز الثامنة من العمر، فرّ مع بنت في السابعة من عمرها الغض ليتزوجها، ألا يكون هذا في رأيي غريبًا؟ لا شك! فلا أعلم إذن أنه شاهد بعينه هذه الأعجوبة وأنه نظف لها الأحذية التي لبساها حين فرّا، وإن الأحذية كانت من الصغر بحيث كان يتعذر عليه أن يدخل يده فيها!

وحكاية ذلك أن والد الصبي «هاري وولمرز»، كان يقيم في ضيعة «إلمز» على مقربة من تلال «شوتر»، وعلى مسافة ستة أميال أو سبعة من لندن. وكان رجلًا ألمعيًا حديد القلب وسيم الطلعة، يرفع رأسه إذ يمشي، ويُشعرُك إذ تراه بمثل بأس النار وصولتها. وكان يقرض الشعر، ويركب الخيل، ويعدو، ويلعب «الكريكت»، ويرقص، ويمثل، ويمجد كل ذلك ويحذقه. وكان مزهواً بابنه «هاري»؛ فقد كان وحيده، غير أنه لم يفسده بالتدليل، فقد كان ذا إرادة ماضية، وعين لا يفوتها شيء، ومع أنه كان يتخذ من ابنه الذكي صاحبًا، ويسره أن يراه مقبلًا على كتب الأساطير يعب فيها عبًا، ولا يمل أن يسمعه يمدّ الصوت ويرجّعه شاديًا بأغاني الحب، إلا أنه احتفظ بسلطانه الأبوي على فتاه، فبقي الصبي كما ينبغي أن يكون، فليت كثيرين مثله!

وكيف عرف كل هذا؟ عرفه لأنه كان مساعد البستاني، ولا

يمكن أن يكونه، وأن يكون أبداً على المكان، يجز، ويقتلع،
ويطعم، ويفعل هذا وذاك، من غير أن يلزم بأحوال الأسرة
ويحيط بأمورها خبراً. وقد جاءه الصبي هاري مرة وسأله:
«كوبز، كيف تتهجى نورا؟»، ثم راح يحفر الاسم على سياج
الخشب!

ولم يسبق لكوبز عهد بالأطفال قبل ذلك، ولا كان يعيرهم
التفاناً، ولكنه لم يسعه إلا أن يلاحظ هذين الصغيرين وهما
يتمشيان معاً، وقد غرقا في الحب إلى الرأس! ويا لشجاعة
الغلام وشهامته! لقد كان يبدو لي أنه لا يتردد أن يرمي
قبعته، ويشمر عن ساعديه الصغيرين، ويهجم على أسد
لو اتفق لهما أن يلتقيا بواحد، وأن تفزع الفتاة منه! وقد
وقف مرةً وهي معه، حيث كان كوبز يعمل وقال: «كوبز،
إني أستلطفك». فقال كوبز: «صحيح يا سيدي! إني فخورٌ
بذلك». فقال الغلام: «نعم، أستلطفك فهل تعرف لماذا يا
كوبز؟» فقال: «لا أدري». قال الغلام: «لأن نورا تستلطفك
يا كوبز!» فقال الرجل: «صحيح يا سيدي! إن هذا من
بواعث الاغتياب». فقال الغلام: «من بواعث الاغتياب يا
كوبز؟ إنه خير من ملايين من أنفس الماسات، أن تستلطفك
نورا». فقال الرجل: «لا شك يا سيدي». فسأله الغلام:
«إنك ستترك عملك هنا، أليس كذلك؟» قال الرجل: «نعم
يا سيدي». قال الغلام: «أحب أن أجد لك عملاً آخر؟»
قال الرجل: «لا مانع عندي إذا كان حسناً موافقاً». قال

الغلام: «إذن ستكون البستاني الأول عندنا، بعد أن نتزوج.»
وضم عليها شملتها الزرقاء وأحاطها بذراعه، ومضى بها!

وأقسم كوبز أن هذا المنظر كان أبهى وأوقع في النفس من صورة مرسومة وأنه كان أشبه بالرواية أن يرى هذين الطفلين بشعرهما الطويل اللامع المتلوي، وعيونهما البراقة، وخطوتهما الخفيفة الجميلة، يتمشيان في الحديقة، وقد عمر الحب المتبادل قلبيهما الصغيرين. وقال لي: كوبز إنه يعتقد أن العصافير ظتتها عصفورين فغردت لهما لتسرهما. وكانا ربما جلسا في ظل شجرة، وذراع كل منهما على عنق الآخر، وخداهما الأسيلان يتلامسان من فرط التذاني، وراحا يقرآن قصة الأمير والتنين، أو الساحرين الطيب والخبيث، أو بنت الملك الفاتنة. وكان يسمعها أحياناً يلهجان بيت ينويان أن يبنياه في الغابة ويتخذا فيه خليّة للنحل، وبقرة ويجتزآن من الطعام باللبن والعسل. ومرّ بهما مرة وهما على البركة فسمع الغلام «هاري» يقول: «نورا، يا معبودتي، قبليني، وقولي إنك تحبينني حباً يزدهف لبك، وإلا ألقيت نفسي في البركة.» ولم يخالج كوبز أي شك في أنه كان حقيقةً أن يرمي نفسه في الماء لولا أنها أجابت سؤله. قال كوبز: وقد كان هذا يخيل إليه أنه هو أيضاً قد أمسى عاشقاً، لولا أنه لا يدري لمن!

وقال له هاري ذات مساء، وكان يسقي الزهر: «إني ذاهب في هذا الصيف لزيارة جدتي في يورك.»

فقال كوبز: «أَوْفَعْل أنت يا سيدي؟ أرجو إذن أن يطيب مقامك، وأن تنعم بما يسرك. أنا أيضًا ذاهب إلى مقاطعة يورك بعد أن أغادر هذا المكان.»

فسأله الغلام: «أذهبتُ أنت إلى جدتك يا كوبز؟»

فقال: «كلا، يا سيدي، ليس لي شيء كهذا.»

— «لا جدة لك يا كوبز؟»

— «كلا يا سيدي.»

فصوب الغلام عينه إلى الأزهار التي يسقيها البستاني، ثم قال: «سيكون من أقوى بواعث السرور لي أن أذهب يا كوبز، فإن نورا ذاهبة.»

فقال كوبز: «ستكون بخير إذن يا سيدي، ما دام إلى جانبك حيثك الجميلة.»

فاضطرم وجه الغلام وقال: «كوبز، إني لا أسمح لأحد أن يمازحني في هذا إذا وسعني أن أمنعه.»

فقال كوبز بلهجة المتطامن: «لم يكن هذا مزاحًا يا سيدي، لم أقصد إلى ذلك.»

— «يسرني هذا يا كوبز، فإني أستلطفك، كما تعلم. ثم إنك ستعيش معنا. كوبز!»

— «نعم يا سيدي!»

— «ماذا تظن جدتي ستعطيني حين أذهب إليها؟»

— «ليس في وسعي أن أخمن يا سيدي.»

— «ورقة بخمسة جنيهات يا كوبز!»

فزام كوبز وقال: «هذا مبلغ يا سيدي!»

— «إن المرء يستطيع أن يصنع كثيرًا بمبلغ كهذا، أليس كذلك يا كوبز؟»

— «صدقت يا سيدي.»

وقال الغلام: «سأفضي إليك بسر، يا كوبز؟ إنهم في بيت نورا يعابثونها ويركبونها بالمزاح من أجلي، ويتظاهرون بالضحك منا، لأننا خطيبان، ويهزءون ويسخرون يا كوبز.»

فقال كوبز: «هذا بعض مظاهر النقص والعيب في الطبيعة الإنسانية.»

فوقف الغلام برهة — وهو صورة مصغرة إلا أنها دقيقة، من أبيه — ومحياه المتقد إلى الشمس، ثم مضى وهو يقول: «عم مساءً، يا كوبز، إني داخل.»

ولا يدري كوبز كيف اتفق أن يغادر البيت في ذلك الوقت، وعنده أنه لو شاء أن يبقى هنالك إلى الآن، لبقى، ولكنه كان شاباً، وكان ينبغي أن يغير عمله عسى أن تنتقل به الأحوال، وقد قال له المستر وولمرز لما أبلغه كوبز أنه اعتزم ترك العمل: «أهنأك ما تشكو منه؟ إني أسأل لأنني أحب إذا كان لأحد من رجالي شكاة، أن أزيل أسبابها.» فقال كوبز: «كلا يا سيدي، وشكراً لك، وإني هنا لعلّي خير ما أرجو أن أكون في أي مكان، ولكن الحقيقة يا سيدي أنني راحل لأجرب حظي في التماس الثراء.» فقال المستر وولمرز: «صحيح يا كوبز؟ إذن أرجو لك التوفيق.» وأكد لي كوبز وهو يقص علي ذلك أنه لم يوفق بعد.

ترك كوبز ضيعة «المز»، وذهب الغلام هاري إلى جدته العجوز في يورك، وكانت لا تضمن على حفيدها بالأسنان التي في فمها (لو كان في فمها شيء) فقد كانت مجنونة به. ولكن ماذا تظن أن هذا الطفل صنع؟ فإن لك أن تسميه طفلاً وألا تخشى الغلط؟ لقد فر من جدته مع نورا وقصدا إلى «جريتينا جرين» ليتزوجا هناك!

وكان كوبز يعمل في هذا الفندق عينه — فندق شجرة الميلاد — (وكان كثيراً ما يتركه ليحسن حالته ولكنه كان يعود إليه دائماً لسبب ما) وفي مساء يوم من أيام الصيف وقفت المركبة ونزل منها الطفلان! وقال الحارس لصاحب الفندق: «إن أمر هذين الراكبين الصغيرين يبدو لي كاللغز، ولكن الغلام قال لي إنه يريد أن آتي بهما إلى هنا.»

... ينزل الغلام، ويمد يده إلى فتاته ليعينها. وينفح الحارس بشيء على سبيل التجزية، ثم يلتفت إلى رب الفندق ويقول له: «سنبقي هنا الليلة، من فضلك ... وسنحتاج إلى حجرة جلوس وغرفتي نوم ... وهات كفاية اثنين من اللحم المشروح والفالوذ بالعناب.» ويضم على حبيبته شملتتها السماوية الزرقاء، ويحيطها بذراعه ويدخل ثابت الجنان!

وقال كوبز: إنه يترك لي أن أتصور الذهول الذي استولى

على كل من في الخان حين رأوا الصغيرين يجيئان وحدهما، ويفعلان ما فعلا! وكان كوبز يراهما ولا يريانه، فلم يكتف رب الفندق رأييه، في بواعث هذا السلوك والغاية من هذه الرحلة، فقال صاحب الفندق: «إذا كان الأمر كذلك يا كوبز فسأركب إلى يورك لأطمئن أهما. ويجب عليك أن تجعل عينيك عليهما، وأن تسليهما وتلهيهما حتى أعود. ولكني أحب قبل أن أقدم على هذه الرحلة، أن تستوثق منهما لتعرف أمصيب أنت في رأيك أم مخطئ.»

فقال كوبز: «سيكون ما تريد حالاً.»

وصعد كوبز إليهما، فألقى الغلام هاري على أريكة عظيمة، وإنها لعظيمة وكبيرة في كل حال وفي كل وقت، ولكنها بدت أعظم وأضخم لما اتكأ عليها هاري ليكفكف لنورا دموعها ويمسحها بمنديله، وكانت أرجلهما معلقة في الهواء وقد أعرب كوبز لي عن عجزه عن وصف صغرهما وضآلتهما.

وصاح السيد هاري: «هذا كوبز... هذا كوبز.» وأقبل عليه يعدو، وتناول يده، وجرت إليه الأنسة نورا أيضاً، ووقفت إلى جانبه الآخر، وتناولت يده الثانية، وجعلا يتوثبان وينطان من الفرح.

فقال كوبز: «لقد رأيتهما من المركبة، فعرفتكما، وهل كان يمكن أن أغلط أو أنسى؟ ماذا وراء هذه الرحلة يا سيدي؟ الزواج؟»

فقال الغلام: «ستزوج يا كوبز في جريتنا جرين. وقد فرنا لهذا الغرض. إن نورا مكتتبة قليلاً يا كوبز، ولكنها جديرة بأن يسعدها الآن أنا وجدناك فإنك لنا صديق.»

فقال كوبز: «أشكر يا سيدي، وأشكر يا آنسة، على حسن ظنك بي. والآن هل معكما أشياءكم؟»

وإذا صدق كوبز الذي أقسم أن الأمر كما يصف، فقد كان مع نورا شمسية وزجاجة نوشادر، وخبزات يابسات مدهونات بالزبدة، وثمانية نعناعات وفرشاة أسنان يخیل إليك أنها مصنوعة للعبة، أما الغلام فكان معه حوالي ست ياردات من الخيط، ومبرة، وثلاث ورقات أو أربع مطوية، وقده عليه اسمه.

فقال كوبز: «وماذا أعددت من التدابير يا سيدي؟»

قال الغلام، وما أبهر شجاعته: «أن نمضي إلى غايتنا في الصباح فتزوج غداً.»

قال كوبز: «هو كذلك يا سيدي. فهل يوافقكما أن أوافقكما؟»

فلما سمعا هذا السؤال جعلا ينطان من الفرح ويصيحان: «نعم، نعم، يا كوبز، نعم.»

فقال كوبز: «إذا سمحتما لي باقتراح فهذا هو ... إني أعرف فرسًا يمكن أن نشده إلى مركبة أستطيع أن أستعيرها فتحملكما (وأكون أنا الحوذي إذا وافقتما) إلى آخر رحلتكما في أوجز وقت. ولست واثقًا من أن هذا الفرس سيكون غدًا رهن مشيئتنا، ولكن إذا احتجنا أن نتنظر إلى ما بعد الغد، فإن الفرس جدير بالانتظار. أما الفندق، ونفقات الإقامة فيه، فلا تفكرا في ذلك إذا لم يكن معكما الكفاية من المال؛ فإني شريك في هذا المحل، ومن السهل إرجاء الحساب إلى وقتٍ آخر.»

ويحلف كوبز أنه لما رآهما يصفقان سرورًا وينطان ويدعوانه: «كوبز الطيب» و«كوبز العزيز» ويتعانقان ويتلاشان وهما جذلان مطمئنان واثقان، أحس أنه أنذل من ولده أم في هذه الدنيا، لأنه خدعهما وغشهما.

وقال كوبز، وبه وخز الضمير ما به: «هل تريدان الآن شيئًا يا سيدي؟»

فقال الغلام وهو يطوي ذراعيه على صدره، ويمد إحدى ساقيه، ويحديق في وجه كوبز: «نريد بضع كعكات بعد العشاء، وتفاحتين ... ومربى ... ومع العشاء خبزاً محمراً ... واسمع يا كوبز، إن نورا قد اعتادت أن تشرب مع الفاكهة قليلاً من شراب الزبيب ... وأنا مثلها.»

قال كوبز: «سأعد لكم ذلك.» وخرج.

وحدثني كوبز أنه، وهو يروي لي هذه التفاصيل، يشعر، كما يشعر حينئذ، بأنه كان أثر عنده، وأحب إليه، أن يلاكم صاحب الفندق في بضع جولات، من أن يتواطأ معه على هذين الطفلين، وأنه كان يتمنى من أعماق قلبه لو أن في الدنيا مكاناً يستطيعان فيه أن يتزوجا، ويعيشان بعد ذلك سعيدين. ولكن هذا لا سبيل إليه، فلم يسع كوبز إلا أن يأتمر بهما مع رب الفندق، فركب هذا إلى يورك بعد نصف ساعة.

ويرى كوبز أن من العجائب أن كل أنثى في الفندق — ذات بعل، أو عذبة أو عذراء — صغت بقلبها إلى هذا الغلام لما سمعت قصته. وقد عانى كوبز جهداً جاهداً في صد هؤلاء النسوة عن اقتحام الغرفة واحتضان الغلام وتقبيله. وكنّ يخاطرن بحياتهن ويصعدن فوق الأشياء لينظرن إليه من

وراء الزجاج. وكان سبعة منهم يتزاحمن على ثقب الباب لينظرون في وقت معاً! فقد طارت عقولهن وفَتَتِهْن جراته.

وفي المساء دخل كوبز على الهاربين ليرى كيف حالهما. وكان الغلام على حافة النافذة، وبين ذراعيه فتاته. وكانت العبرات على خديها، ولكنها كانت متعبة وأقرب إلى النوم منها إلى اليقظة، ورأسها على كتفه.

وقال كوبز: «هل السيدة متعبة يا سيدي؟»

قال: «نعم، متعبة يا كوبز، فما اعتادت أن تنأى عن البيت، وقد عاودها الاكتئاب، فهل تستطيع أن تَجِيئني بمنعش؟»

فقال كوبز: «معذرةً يا سيدي، ولكن ما تبغي؟»

قال: «شيءٌ ينعشها، ويرد إليها روحها.»

فخرج كوبز ينشد المنعش المطلوب فلما عاد به، قدمه الغلام إلى الفتاة وأعانها، ولكن النعاس كان يثني رأسها ويثقله، فجعلها ذلك شكسة جافية. وقال كوبز: «ما قولك يا سيدي في شمعدان لغرفة النوم؟» فوافق، وسارت الخادمة في الطليعة، والفتاة في شملتها السماوية الزرقة بعدها، ووراءهما،

وفي حراستها هذا الغلام الشهم. وعانقها عند الباب، ثم ارتد إلى غرفته، فأوصدها عليه كوبز بخفة.

ولم يكن يسع كوبز إلا أن يزداد شعوره حدة بأنه غشاش وضيع، لما سأله الغلام في الصباح وهما يتناولان طعام الإفطار (وكانا قد أمرا أن يعد لهما لبنًا وخبزًا محمرًا ومربى) عن الفرس، وكان يجحد مشقة في النظر إليهما وهو يعلم كيف يخدعهما بالأباطيل، غير أنه واصل الكذب وأخبرهما أن من سوء الحظ أن القوم يقصون للفرس شعره، ولكنهم لم يقصوا سوى جانب، ولو خرج على هذه الصورة لأصابه سوء، ولكنهم سيفرغون من القص في هذا النهار، وفي الساعة الثامنة من صباح الغد تكون المركبة معدة. ومن رأي كوبز، وهو يحدثني بهذا في غرفتي، أن الفتاة بدأت في ذلك الوقت تراجع وتندم؛ فقد نامت من غير أن يُرَجَّل لها شعرها، ولم تكن بحيث تستطيع هي أن تمتشط، وصار الشعر يدخل في عينيها فيغيظها ويحنقها، ولكن الغلام ظل ثابتًا شديد القلب، وكان وهو جالس إلى المائدة وأمامه فنجان الشاي يلتهم المربى، فيخيل إليك أنه أبوه.

ويميل كوبز إلى الاعتقاد أنهما بعد الإفطار جعلتا يتسليان برسم الجنود على الورق، فقد وجدت جنود كثيرة مصورة على الورق في الموقد، وكلها على ظهور الخيل. ودق هاري

الجرس وسأل كوبز، وما أعجب ثباته: «أليس في جوار هذا المكان ميادين صالحة لأن يمشي فيها المرء؟»

قال كوبز: «نعم يا سيدي، طريق العشاق.»

فصاح الغلام به: «رح. رح. إنك تمزح.»

فقال كوبز: «عفوًا يا سيدي، ولكن هناك طريقًا اسمه طريق العشاق. وإنه لجميل، وإنه ليكون من دواعي فخري أن أريكه أنت والسيدة.»

فقال هاري: «يا عزيزي نورا، إن هذا لاتفاق عجيب، وينبغي أن نرى طريق العشاق هذا. فالبسي قبعتك يا حبيبتني ولنذهب إليه مع كوبز.»

ودعاني كوبز أن أتصور قوة شعوره بنذاته ولؤمه لما قال له هذان الطفلان الغيران، وهما يمشيان إلى جانبه، إن عزمهما صح على أن أكون البستاني الأول لهما، بألفي جنيه في العام، لأني صديق وفيٌّ لهما. وقد تمنى كوبز في تلك اللحظة أن تنشق الأرض فتبتلعه؛ فقد أحس بشدة الضعة والحقارة وهما ينظران إليه بعيونهما البراقة، ولا يخالجهما شك في صدقه! فاحتاج أن يغير موضوع الحديث، ويعطفه عن

مجرأه، ومضى بهما في طريق العشاق إلى البحيرة، وكاد هاري يغرق فيها وهو يحاول أن يقطف لفتاته زنبقة، وأخيراً تعباً، وأضناها الجهد، فاستلقيا على الأرض المخضرة، والأفاحي ترف عليهما، وناما.

ولا يدري كوبز — ولعلي أنا أدري، ولكن دع هذا فما له قيمة — لماذا يرق قلب المرء حين يرى هذين الطفلين الجميلين راقيدين تحت السماء الصافية في النهار المشمس، لا يحلمان بشيء وهما نائمان، كما يحلمان وهما مفتوحا العيون، ويذهب كوبز إلى أن المرء لا يسعه إلا أن يفكر في نفسه، وفيما كان من سيرته وتقلب الأحوال به مذ كان في المهد، وكيف أنه لم يبلغ في الحياة مبلغاً، وليس له إلا الذكرى، والأمل ولا حقيقة بينهما.

واستيقظا أخيراً، وتبين كوبز أن الفتاة بدأت تشمس وتعسر، فلما طوق هاري خصرها بذراعه قالت إنه يضايقها، فلما قال لها: «يا نورا، يا قمر الربيع، هل يضايقك هاري؟» قالت: «نعم. وأريد أن أعود إلى البيت!»

على أن دجاجة مسلوقة، وشيئاً من الحلواء، فترا من حدثها، وردا إليها سجاجة الطبع، ودماثة الخلق، ويقول كوبز إنه كان يود لو أنه رآها أعظم عنايةً بالصوت الهاتف بحبها

منها بالحلواء التي نسيت نفسها وهي تلتهمها. أما هاري فلم يزعزعه شيء، وظل قلبه الكبير يخفق بالحب، كما كان. ودخلنا في الغسق فخفق رأس الفتاة وشرعت تبكي ... ولهذا أوت إلى فراشها كما فعلت في الليلة السابقة ... ولم ينس الفتى أن يقوم بواجب المرافقة والتوديع، على نحو ما كان منه البارحة.

وحوالي منتصف الليل أقبل صاحب الفندق في مركبة، ومعه المستر وولمرز وسيدة عجوز، وكان المستر وولمرز يبدو عليه الجذ الصارم، والتفكه في آن معًا وقد قال لزوجة الفندق: «إننا مدينون لك يا سيدي بالشكر على عنايتك بولدينا وأنا لعاجزون عن تجزيتك. أين الغلام يا سيدي؟» فقالت: «إن كوبز يسهر على الولد العزيز ويرعاه يا سيدي. أراه الغرفة الأربعين يا كوبز.» فقال المستر وولمرز: «إني مسرور بأن أراك يا كوبز. فقد علمت أنك هنا.» فقال كوبز: «نعم يا سيدي، وما زلت خادمك المطيع.»

ويقول كوبز: إني قد أستغرب منه أن يذكر لي أن قلبه كان يدق كالمطرقة وهو يصعد درجات السلم، ولكن هذه هي الحقيقة، وقد قال المستر وولمرز، وهو يفتح له الباب: «معذرة يا سيدي، ولكنني أرجو ألا تكون حانقًا على السيد هاري. إنه غلام شهم يا سيدي، وسيكون مفخرة لك.»

ويؤكد لي كوبز أن نفسه كانت جائشة في تلك اللحظة، فلو أن المستر وولمرز ذهب إلى العناد، للكمه واحتمل ما عسى أن يكون من نتائج ذلك.

ولكن المستر وولمرز قال: «كلا يا كوبز ... لا يا صاحبي. وشكرًا لك.» وكان الباب قد فتح، فدخل.

وتبعه كوبز وفي يده الشمعة، فرأى المستر وولمرز يمشي إلى السرير ويخنو عليه في رفق، ويلثم ذلك المحيا الصغير، ثم يعتدل، ويُنثره النظر لحظة، فيعظم الشبه بين الوجهين (ويقال إن المستر وولمرز فرم مع من تزوجها)، ثم هز كتف الغلام برفق ويناديه: «هاري ... يا ولدي العزيز ... هاري!»

فيتنبه هاري وينظر إليه، وإلى كوبز أيضًا، كأنما أراد أن يتبين هل أوقعه كوبز في ورطة.

ولكن المستر وولمرز يقول له: «لست غاضبًا يا بني، وكل ما أريد منك هو أن تلبس ثيابك لتعود إلى البيت.»

فيقول الغلام: «نعم يا أبي.»

وينهض فيرتدي ثيابه بسرعة، ويعلو صدره وهو يكاد يفرغ من ارتدائها ويزداد علوًا حين يقف أخيرًا، ناظرًا إلى أبيه، وأبوه واقفٌ ينظر إليه، وكلاهما صورةٌ دقيقة من الآخر.

ويقول الغلام، وهو يتشدد ويتجلد ويرد الدموع التي تهم بالتحدر: «من فضلك يا أبي ... هل تسمح لي ... أن أقبل نوراً قبل أن أذهب؟»

فيقول المستر وولمرز: «لك ذلك يا بني.»

ويتناول يد الغلام، ويمضي به، وكوبز أمامهما بالشمعة حتى يبلغوا الغرفة الأخرى فإذا السيدة العجوز متكئة على السرير والفتاة غارقة في النوم. فيرفع الوالد غلامه إلى الوسادة، فيسند خده الصغير لحظة إلى جانب خد الفتاة الذاهلة ثم يديني محياها منه ويلثمه، ويبلغ من وقع هذا المنظر في النفوس أن تصيح الخادمة، وكانت تنظر من ثقب الباب: «من العار أن تفرقوا بينهما.» ولكن هذه الخادمة كانت معروفة بركة القلب، وإن لم تكن امرأة سوء ... حاشا لله!

قال كوبز، وانتهى الأمر بذلك. ركب المستر وولمرز عائداً إلى بيته، ومعه ابنه. أما السيدة العجوز، والفتاة التي لم يقسم

لها أن تكون المسز وولمرز (لقد تزوجت بعد ذلك ضابطاً في الجيش وماتت في الهند) فعاداً في اليوم التالي. وقد سألتني كوبز في ختام كلامه هل أوافق على رأيين له؛ الأول: أنه قل أن يكون هناك اثنان على وشك الزواج، في مثل طهر هذين الطفلين. الثاني: أن من الخير لكثيرين ممن يهتمون بالزواج أن يؤخذ عليهم الطريق، ويحال بينهم، فيرتد كل منهم إلى بيته على حدة؟

(٣) الفرع الثالث: «الحساب»

لبثت في الفندق محصوراً، من جراء الثلج المتساقط، أسبوعاً كاملاً. وكانت الأيام تمضي سراعاً، فيما أحس، فلولا وثيقة موضوعة على المنضدة أمامي لما صدقت أنني قضيت هنا أسبوعاً.

وكان الثلج قد رفع عن الطريق في اليوم السابق، أما الوثيقة التي أمامي فهي حساب الفندق. وهي تشهد شهادة حاسمة بأنني أكلت، وشربت، وادّفأت، تحت الأغصان الورقية الوريقة الظليلة لشجرة الميلاد سبعة أيام كاملة.

وكنت قد آثرت أن أدع الطريق يتحسن أربعاً وعشرين ساعة أخرى لأنني احتجت إلى هذه المسافة من الزمن لإتمام عملي. وأمرت أن يُيَين لي الحساب وأن تكون المركبة معدة أمام

الباب «في الساعة الثامنة من مساء الغد.» وكانت الساعة قد بلغت الثامنة من «مساء الغد» لما جمعت أدوات الكتابة التي أتخذها في أسفاري وطويتها في حقيبتها الجلدية، وأديت الحساب، وتعطفت بأرديتي الدافئة، وتلفعت بشمليتي. وكان الوقت قد صار أضيق من أن يسمح بالذهاب لإضافة عبرة متجمدة إلى بلورات الثلج التي تكسو البيت الريفي الذي رأيت فيه أنجيلا أول مرة. ولم يبق إلا أن أغذ السير في أقصر طريق إلى ثغر ليفربول وهناك آخذ حقائبي الكبيرة وأركب السفينة. وكفى بهذا عملاً، ولا سبيل إلى إرجائه ساعة واحدة.

وودعت كل من عرفت في الفندق — وكدت أودع حيائي أيضاً — ووقفت بالباب أراعي الخادم وهو يلف الحبل الذي يشد به حقيبتني إلى المركبة وإذا بمصاييح تقترب سراعاً من الفندق. وكان الطريق مغطى بالثلج فلم نسمع للعجلات صوتاً، ولكننا جميعاً رأينا المصاييح تقبل علينا وتدنو منا بسرعة، بين جدارين من الجليد الذي رفع عن الأرض وصار كوماً على كل جانب. وتنبأت الخادمة وصاحت: «توم ... هذه رحلة إلى جريتينا.» وكان توم يعرف أن لها قدرة فطرية على التنبؤ بالزواج وما إليه، فانطلق يعدو ويصيح: «أعدوا الجياد الأربعة الأخرى.» وفي لحظة واحدة صار المكان كله هرجاً ومرجاً.

وشعرت برغبة في رؤية ذلك السعيد، المحب المحبوب،
فتلکأت على الباب حتى بلغه القادمَان. ووثب من المركبة
رجل برّاق العين متلفع — ومتلثم — بشملة، فكاد من
شدة الوثبة والسرعة فيها يلقيني على الأرض، فالتفت إليّ
ليعتذر وإذا به «إدوين!»

فصاح وهو يتراجع: «شارل! يا إلهي، ماذا عساك تصنع
هنا؟»

فقلت وأنا أترجع أيضًا: «إدوين! ماذا تصنع أنت هنا؟»

وضربت جبيني وأنا أقول ذلك، فأحسست أن لساناً من
النار لا يطاق خطف أمام عيني.

فأدخلني إلى القاعة (وكان في موقدها دائماً نار فاترة، ولا
محرك هناك) حيث وقف المسافرون ينتظرون تغيير الجياد،
وقال وهو يرد الباب: «سامحي يا شارل!»

قلت: «إدوين! هل كان هذا جميلاً منك؟ وأنا الذي أحبها
كل هذا الحب؟ وأنا الذي طويت أضلاعي على هواها كل
هذا الزمن؟»

ولم أستطع أن أزيد على ذلك. فراعته أن يقرأ في وجهي ما أكن من الألم والأسى، وقال وهو لا يدري ما في ذلك من القسوة: إنه ما كان يحسب أن يبلغ من قلبي الحزن هذا المبلغ.

فنظرت إليه — أقصرت عن العتاب — ولكن نظرت إليه.

وقال: «شارل، يا صديقي العزيز الأثير، أرجو ألا تظن بي سوءاً، وإني لأعلم أن لك حقاً في أن أطلعك على دخيلة قلبي. وصدقني حين أقول إني ما ضننت قط من قبل عليك بالثقة بك والاطمئنان إليك، وإني لأمقت الكتمان فإنه لؤم لا يطاق، ولكني أنا وفتاتي حرصنا على الكتم من أجلك.»

هو وفتاته! لقد جعل ذلك قلبي حجراً.

وقلت وأنا أتعجب لوجهه الصريح كيف وسعه أن يلقيني به: «حرصت على الكتمان من أجلي أنا يا سيدي؟»

قال: «نعم، ومن أجل أنجيلاً أيضاً.»

فأحسست أن الأرض تدور بي، وتضطرب، كالنحلة. وقلت وأنا أعتمد على الكرسي بيدي: «هل لك أن تفسر معنى ذلك؟»

فقال إدوين بلهجته الودية: «يا عزيزي شارلي. فكر! لقد كنتَ على خير حال وأسعده مع أنجيلا، فكيف أزج بك في ورطة مع أبيها بإشراكك في العلم بأمر خطبتنا، وبما عزمنا عليه سرًّا، بعد أن رفض؟ من المحقق أنه خير لك أن تستطيع أن تقول، وأنت صادق: «إنه لم يستشرني قط، ولم يخبرني بشيء، ولم ينبس بكلمة على مسمع مني.» وإذا كانت أنجيلا قد فطنت إلى الباطن من أمري، وأولتني كل ما في طاقتها من العطف والتأييد، بارك الله فيها من فتاة منقطعة النظير، وزوجة يُعبي الزمان مكانُ ندها، فما كان لي في هذا حيلة، وما قلنا لها — لا أنا ولا إميلين — شيئًا، كما لم نقل لك شيئًا، وقد توخينا الكتم عنها، كما توخيناك عنك، لنفس السبب، فثق بي، وصدقني.»

كانت إميلين بنت عم أنجيلا، وكانت تعيش معها، وقد شبا معًا، وكان والد أنجيلا قيرًا عليها، فإن لها مالا.

فقلت وأنا أعانقه عن أحر عاطفة: «هل إميلين في المركبة يا إدوين؟»

فقال: «وهل تحسبني ذاهبًا إلى جريتنا جرين بغيرها؟»

فخرجت أعدو مع إدوين، وفتحت باب المركبة، وعانقت

إميلين، وضممتها إلى صدري، وكانت ملفوفة في فراء أبيض ناعم كهذا الوادي المكسو بالثلج، ولكنها كانت كاعبًا جميلة حارة. وقد ربطتُ الجوادين المقدمين إلى مركبتهما بيدي، ونفحت الخادم بخمسة جنيهاً، وحييتهما أحر تحية وهما يمضيان، ثم ركضت بي الخيل في الطريق إلى لندن.

لم أذهب إلى ليفربول، ولم أرحل إلى أمريكا، وإنما رجعت إلى لندن وتزوجت أنجيلا، ولم أكشف لها إلى هذه الساعة عن سري، ولا قصصت عليها كيف كلفني الغلط هذه الرحلة، وسيجيء يوم تقرأ فيه هي، وهما — أعني — إدوين وإميلين — وأبناؤنا الثمانية، وأبناؤهما السبعة (وقد صارت كبراهم تشابه أمها) هذه الصفحات — وأين المفر من ذلك؟ — فيعرفون جميعاً ما كان خافياً عليهم، لا بأس؛ فإن في مقدوري أن أحتمل ذلك، ولقد بدأت في الفندق — بمحض المصادفة — أقرن وقت عيد الميلاد بالعوامل الإنسانية، وأعنى بالبحث في حياة من ألفتني محوطاً بهم، وفي مرجوي ألا أكون قد خسرت بذلك، وألا يكون أحد — قريباً كان أو بعيداً مني — قد خسر بذلك، وإني لأدعو أن تزدهر شجرة الميلاد الوريقة النضيرة، وأن تضرب جذورها وتغوص وتتقرر في أرضنا الإنجليزية، وأن تنفض طيور السماء لقاحها على العالم قاطبة.

وليم ويلكي كولنز

السريـر الرهيب

بعد أن أتممت تحصيلي في الكلية بقليل، اتفق لي أن أقيم في باريس مع صديق إنجليزي. وكنا يومئذ في عنفوان الشباب، وأعترف أننا كنا نسيم سرح اللهو في هذه المدينة البهيجة ونركب الحياة بشبابنا، فحدث ذات ليلة أن كنا نتمشى على مقربة من «الباليه رويال»، وكنا حائرين لا نستقر على رأي فيما نشغل به أنفسنا من لهو، فاقترح صاحبي أن نذهب إلى محل «فراسكاتي» ولكن اقتراحه لم يرقني، فقد كنت أعرفه — كما يقول الفرنسيون — عن ظهر قلب. وقد خسرت وربحت فيه كثيرًا، ابتغاء التسلي، حتى لم يبق فيه لا تسلية ولا تلهية، ومللت مظاهر السمت والأبهة لذلك الشذوذ الاجتماعي الذي ينطوي عليه محل مقامرة. وقلت لصاحبي:

«نشدتك الله إلا ما ذهبنا إلى حيث نجد قمارًا حقيقياً عنيماً على الرغم من الفاقة، ليس فيه تمويه ... لندع فراسكاتي الوجيه إلى مكان لا يأنف أصحابه أن يُدخلوا فيه ذا ثوب خلق لبيس، أو من لا ثوب له، لبيساً كان أو غير لبيس.» قال صاحبي: «حسن، على أنه لا داعي للإبعاد والخروج من نطاق الباليه رويال، للفوز ببغيتك، هذا هو المحل أماننا. وإنه، فيما تتواتر به الرواية عنه، لكما تشتهي أن يكون ضعة وخشونة.»

وبلغنا الباب، ودخلنا البيت الذي رسمت ظهره. ١٠

وصعدنا بعد أن تركنا القبعتين والعصوين مع البواب، فمضوا بنا إلى قاعة القمار الكبرى، فلم نجد فيها كثيرين، ولكن القليلين الذين كانوا فيها والذين رفعوا رءوسهم لينظروا إلينا ونحن ندخل، كانوا جميعاً نماذج — صادقة دقيقة لسوء الحظ — من طبقاتهم.

لقد جئنا وفي مرجونا أن نرى جماعة من الطعام والهمج، فوقعنا على شر من ذلك، وإن لكل ضرب من الضعة لجانبها الفكاهي المضحك، أما هنا فما تحس النفس سوى المأساة ... مأساة خرساء لا فكاك منها ولا حيلة فيها، وكان السكون في الغرفة فظيماً؛ هنا فتى نحيل متهضم الوجه،

طويل الشعر، يرشق بعينيه الغائرتين أوراق اللعب، ولا ينطق بحرف. وهنا آخر مترهل خرج البشرُ بوجهه الغليظ، وهو يخرق ورقة أمامه ليحصي كم مرة كسب الأسود، وكم مرة كسب الأحمر، ولا ينطق بحرف. وها هنا شيخ قذر مغضن الوجه، له عين الصقر، وعليه ثوب طال ترداده إلى الرفو، وقد خسر آخر فلس، ومع ذلك يأبى إلا أن يراقب اللعب الذي لا يستطيع أن يشترك فيه، ولكنه لا ينطق بحرف! حتى صوت الضريب^٢ كان مكتومًا مخنوقًا وغليظ الجرس في جو هذه الغرفة. وقد كان رجائي وأنا أدخل هذا البيت أن أجد فيه ما يضحك، فإذا أمامي منظر يبعث الأسى ويغري بالبكاء. فلم يسعني إلا أن ألتمس معاذًا من هذه الكآبة التي تستولي عليّ بسرعة، وشاء سوء الحظ أن أقبل على أول ما وجدت، فذهبت إلى المائدة وشرعت ألعب. وأبى لي الحظ السيئ، كما سترى، إلا أن أربح ... أربح مقادير جسيمة ... مقادير يخطئها الحساب، ولا تدخل في عقل عاقل ... حتى أحاط بي اللاعبون، وراحوا يحدجون مكاسبي على المائدة بعيون ناطقة بالنهم والروعة، ويتهامسون فيما بينهم بأن الإنجليزي سيخرب «البنك».

وكان القمار على «الأحمر والأسود» وقد جربت حظي في هذه اللعبة في كل مدينة بأوروبا، ولكن من غير أن أعنى «بنظرية الحظ» التي تعد «حجر الفلاسفة» عند المقامرين. وما كنت قط مقامرًا بالمعنى الصحيح، فقد سلمت من

هذه الشهوة الجائحة فلعبتي للتسلية وتزجية الفراغ، وما أعرفني قامرت بدافع من الحاجة أو الضرورة، لأنني لم أعان قلة المال أو النقص فيه. وكنت إذا قامرت لا أعكف حتى أُنمى بخسارة لا قِبَلَ لي باحتمالها، أو أفوز بمكسب يدير رأسي ويخرج بي عن طوري من الاتزان. وأقول بإيجاز إنني كنت أختلف إلى أندية القمار كما أختلف إلى المراقص والمسارح لأنني أجد فيها تلهية، ولا أدري بأي شيء آخر أشغل نفسي وأزجّي الفراغ.

ولكن الحال في هذه المرة كان مختلفاً جداً، الآن — وللمرة الأولى في حياتي — جربت شهوة القمار الحقيقية وعرفت كيف يكون عصفها بالنفس، واستحواذها على اللب. وكانت مكاسبي قد أذهلتني في أول الأمر، ثم أسكرتني، بأدق المعاني الحرفية لهذا اللفظ. ومن الحقائق الغريبة التي يتعذر تصديقها أنني كنت لا أخسر إلا حين أحاول أن أقدر فرص الربح والخسارة، وأقامر على مقتضى ما تبين لي من الحساب السابق. أما حين أدع الأمر كله للحظ، وألعب بلا حساب أو تدبر، فالربح لا شك فيه ولا مفر منه على الرغم من كل عامل من عوامل الترجيح لكفة «البنك». وكان اللاعبون يخاطرون في أول الأمر بهائمهم، وهم مطمئنون، على اللون الذي اختاره، ولكنني زدت المبالغ التي أقامر بها إلى حد لا يستطيعون أن يجاروني فيه، فكفوا — واحداً بعد واحد — عن اللعب، واكتفوا بالمشاهدة وأنفاسهم معلقة.

وظفقت أزيد المبالغ التي أخطرها، وأكسب مع ذلك، فجاشت النفوس وسرت الحمى في الدماء. وصار السكون لا يقطعه إلا التمتمة كلما دُفع الذهب على المائدة إلى ناحيتي. حتى الضريب الرزين رمى بمجرافه على الأرض وقد ثارت نفسه ثورة «فرنسية» من فرط دهشته لنجاحي. ولكن رجلا واحداً في الغرفة كان يضبط أعصابه ويحتفظ باتزانها. وأعني به صديقي. وقد جاء إليّ، وهمس في أذني بالإنجليزية بالرجاء أن أرحل عن هذا المكان وأن أقنع بما ربحته. وأنصفه فأقول إنه أعاد تحذيره ورجاءه مرات عديدة، ولم يتركني ويخرج إلا بعد أن رفضت نصحه (وكانت سورة القمار قد اشتدت بي) بالفاظ جعلت من المستحيل عليه أن يخاطبني مرة أخرى في تلك الليلة.

وبعد أن خرج صديقي ببرهة، سمعت صوتاً أجش يقول من ورائي: «اسمح لي يا سيدي العزيز، اسمح لي أن أعيد إليك جنيهين سقطا. يا له من حظ يا سيدي! إني أقسم بشرفي، أنا الجندي القديم، أني في تجربتي الطويلة للعب لم أرقط مثل حظك أبداً. استمر يا سيدي، استمر بجراحة واخرب البنك.»

فأدرت وجهي فرأيت رجلاً مديد القامة في معطف خفيف عليه شارات عسكرية، يهزلي رأسه ويتسم في أدب جم، ولو أن عقلي لم يعزب، لكان الأرجح أن أشته فيه وأستريب

به، فقد كانت عيناه جاحظتين وحمراوين كالدم وكان شارباه منفوشين متهدلين وبأنفه أثر من كسر، وكان لصوته نبرات عسكرية، ولكن من أخط طبقة. أما كفّاه فأقذر ما رأيت في حياتي، حتى في فرنسا. ولكن هذه المميزات الشخصية لم يكن لها عندي أي تأثير منقّر فقد تركني الجنون الذي أورثنيه مكاسبى الهائلة مستعداً أن أُوأخي كل من يشجعني على اللعب. فتقبلت من هذا الجندي القديم مقدار شمة من السعوط، وربتُ له على كتفه وحلفت أنه خير من دب على الأرض، وأنه أجد أثر تخلف من «الجيش الكبير»^٣، فقال صديقي العسكري وهو يفرقع أصابعه معتبلاً: «استمر استمر واربح. اخرب البنك. أي نعم يا صديقي الإنجليزي الشهم، اخرب البنك.»

وقد مضيت في اللعب، ولججت فيه حتى صاح الضريب بعد ربع ساعة أخرى: «أيها السادة. إن البنك يكف الآن وينقطع.» وصار كل ما كان في «البنك» من أوراق النقد والذهب كوماً أمامي ... رأس مال البيت كله أصبح تحت يدي ينتظر أن أفرغه في جيوبي.

وقال لي الجندي العتيق وأنا أدفع يديّ في كوم الذهب: «ضع المال في منديلك يا سيدي، صُرّه فيه. صره، واجمع أطرافه واعقدها كما كنا نفعل بطعامنا في الجيش الكبير، فإن مكاسبك أثقل من أن يحتملها جيب. هكذا ... تماماً ...

ضع الورقات والذهب جميعاً ... ياله من حظ ... انتظر ... هذا جنيه آخر على الأرض ... والآن يا سيدي نعقد عقدتين متيتين، هكذا، بعد استئذائك، وإذا المال في أمان! تحسس المنديل ... تحسسه أيها السعيد المجدود! ناشف، ومستدير كالقنبلة. أما لو أنهم كانوا يطلقون علينا في أوسترلنز؟ قنابل من هذا القبيل ... ليتهم كانوا يفعلون! والآن ماذا بقي علي أن أفعل أنا المدفعي القديم والجندي الباسل سابقاً؟! أسألك ماذا أصنع؟ ... أتقدم برجائي إلى صديقي الإنجليزي الحميم أن يشرب معي زجاجة من الشمبانيا، لنشرب نخب ربة السعود في قدحين مُزبدتين قبل أن نفرق!!»

فياله من جندي باسل! وما أطيبه وأرق حاشيته من مدفعي قديم! فلتدر الشمبانيا علينا، وليهتف الإنجليزي بالجندي الفرنسي القديم! هورا! هورا! ولنهتف مرةً أخرى بربة السعود! هورا! هورا!

وصاح الجندي: «مرحى! وأحبب بالإنجليزي العطوف الكريم الذي يجري في عروقه الدم الفرنسي المرح! أترع الكأس مرةً أخرى! أوه، إن الزجاجة فارغة! لا بأس! فليحيا النبيذ! أنا الجندي القديم آمر أن تدار علينا زجاجة أخرى ومعها نصف رطل من المسكَّرات!»

فصحت به: «كلا، يا صديقي الباسل! ولا، أيها المدفعي القديم! كانت تلك زجاجتك، والآن هذه زجاجتي! هذه هي! انظر إليها... وتعال نشرب أنخاب الجيش الفرنسي... ونابليون العظيم... وهذا الجمع... والضريب... وزوجته... وبناته، إذا كانت له بنات... والسيدات كافة... وكل امرئ في هذه الدنيا!»

وأحسست، لما فرغت الزجاجاة الثانية، كأني أشرب نارًا سائلة. فالتهب دماغي. ولم يسبق لي في حياتي كلها أن كان للشرب مثل هذا الغول والخمار عندي. فهل هذا الأذى نتيجة لفعل المسكر المنبه في كياني الفائر إلى درجة الحمى؟ أم ترى معدتي على حال من الاضطراب غير معهود؟ أم هذه الشمبانيا قوية الأخذ جدًّا؟

وصحت وبني من النشوة مثل الجنون: «أيها الجندي القديم في الجيش الفرنسي الكبير! إن النار مستعرة في بدني، فكيف حالك أنت! لقد أضرمت في النار، فهل أنت سامع ما أقول يا بطل أوسترلitz؟ فلنشرب زجاجةً ثالثة لنطفئ الحريق ونخمد ألسنة اللهب.»

فهز الجندي القديم رأسه، ودوم حذقيته الجاحظتين، حتى لتوقعت أن أراهما تسقطان من محجريهما، ثم لمس جانب

أنفه المكسور بإصبعه القدر، وقال: «القهوة!» وذهب يعدو إلى غرفة داخلية.

وقد كان لهذه اللفظة المفردة التي نطق بها ذلك الجندي العتيق الشاذ، من الوقع ما يشبه السحر في الحاضرين، فنهضوا جميعاً دفعةً واحدة لينصرفوا، ولعلمهم كانوا يطمعون أن ينالوا شيئاً بفضل ما كسبت، فلما وجدوا صديقي الجديد تأبى له شهامته ومروءة نفسه أن يدعني أسكر حتى لا أعي، ذهب أملهم فيما كانوا يتطلعون إليه من المتعة على حسابي، ومهما تكن البواعث التي حملتهم على الخروج، فإن الواقع أنهم انصرفوا معاً. ولما عاد الجندي وجلس مرةً أخرى إلى المائدة أمامي، كانت الغرفة خالية إلا منا، وكنت بحيث أستطيع أن أرى الضرب فيما يشبه الدهليز، يتناول عشاءه. وصار السكون أعمق وأرهب. وتغيّر الجندي السابق بغته، واتخذ هيئة الجد الصارم، وصار إذا تكلم لا يزين عبارته أو يؤكد بها بالآيمان، أو فرقة الأصابع، أو الصيحات أو غير ذلك.

وقال لي بلهجة من يفضي إليّ بسر: «اسمع يا سيدي العزيز نصيحة جندي قديم. لقد ذهبت إلى ربة الدار (وهي سيدة ظريفة ونابغة في الطبخ) لأقنعها بوجوب العناية بإعداد قهوة قوية جيدة لنا. فعليك أن تشرب هذه القهوة لتذهب عنك

سورةُ الشراب قبل أن تمضي إلى بيتك، لا غنى بك عن ذلك يا صديقي الكريم. فإن عليك أن تحمل كل هذا المال معك إلى بيتك الليلة، ومن واجبك نحو نفسك أن تحتفظ بعقلك. وقد عرف جسامة مكاسبك ناس كثير كانوا هنا الليلة، وهم جديرون بالثقة ولكن الإنسان إنسان، يا سيدي العزيز، فهم لا يخلون من مواطن ضعف، وقد لا يستطيعون أن يقاوموا الفتنة ويصدوا عما يغريهم. فهل أحتاج أن أقول أكثر من ذلك؟ كلا! فإنك تفهم عني وتدرّك ما أعني. والآن هذا ما ينبغي أن تفعل: تبعث في طلب مركبة حينما ترى أن نفسك قد ثابت إليك، وأغلق نوافذها كلها عندما تركب، ومُر السائق أن يجتاز بك إلى بيتك الشوارع الكبيرة المضاعة. افعل هذا تسلم ويسلم لك مالك. افعل ما أشير به، وغداً ستدرّك أنك مدين بالشكر لجندي هرم على ما أخلص لك النصيح فيه.»

وما كاد الجندي السابق ينتهي من خطبته التي ألقاها بصوت شجي، حتى جاءت القهوة، مصبوبة في فنجانين. وناولني صديقي المحتفي بي أحد الفنجانين وهو ينحني لي. وكان ريقني جافاً من الظمأ فشربت القهوة دفعةً واحدة. ولم أكد أرد الفنجان إلى مكانه حتى انتابني دوار شديد، وأحسست أنني ازددت سكرًا، وصارت الغرفة تدور بي بعنف، وصار الجندي فيما يبدو لي يصعد ويهبط أمامي كأنه كبّاس آلة بخارية. وأصمّني صوت يدويّ في مسمعي، واستولى عليّ

الشعور بالحيرة والذهول، والعجز، والغباء، فنهضت عن الكرسي، وأنا أعتمد على المائدة لأحتفظ بتوازني، وتمتعت أني مريض ثاقل. ❦ فلست أدري كيف أذهب إلى بيتي.

فقال الجندي، وكان صوته أيضًا فيما يُحِيل إليّ، يضطرب ويعلو ويهبط كبذنه: «يا صديقي العزيز، إن من الجنون أن تذهب إلى بيتك وأنت على هذا الحال. فستفقد مالك على التحقيق. وقد تسرق وتُقتل أيضًا بسهولة. إني أنا سأنام هنا، فثم هنا أيضًا، فإنهم يجيدون إعداد الأسرة وتسويتها في هذا البيت. خذ سريّرا، وأفسد سورة الخمر بالنوم، ثم عد غداً إلى بيتك، وأنت آمن، ومعك مكاسبك، في وضح النهار.»

ولم يبق في رأسي سوى خاطرين؛ الأول: أن لا أدع الصرة المحشوة بالمال تفلت من يدي. والثاني: أنه يجب أن أرقد حالاً وأنام لأرتاح مما أعانيه، ومن أجل هذا قبلت ما اقترحه الجندي من النوم هنا، وتناولت ذراعته، وحملت الصرة بيدي الأخرى. وتقدّمتنا الضريب فاجتزنا بعض الممرات وصعدنا درجات إلى الغرفة التي سأنام فيها. وهز الجندي يدي مصافحاً بحرارة، واقترح أن نفطر صباح غد معاً، ثم خرج يتبعه الضريب.

فأسرعت إلى حوض الغسيل، وشربت بعض ما في القلة من

الماء، وصببت الباقي في الحوض ووضعت وجهي فيه، ثم قعدت على كرسي وحاولت أن أستعيد وثاقه حالي. فسرعان ما أحسست أنني أفيق وأن قوتي ترجع إلي، وقد كان الانتقال من الجو الفاسد في حجرة القمار إلى الهواء البارد في هذه الغرفة، ومن نور مصاييح الغاز الوهاجة إلى ضوء الشمعة الخافت الهادئ مما قوى الانتعاش الذي أفادنيه الماء البارد، فزال عني الدوار وبدأت أشعر أنني قاربت حالة الأصحاء العقلاء. وكان أول ما جرى ببالي هو الخطر الذي يستهدف له من ينام الليل كله في بيت من بيوت القمار، وكان الذي جرى ببالي بعد ذلك هو الخطر الأكبر الذي يتعرض له من يحاول الخروج من البيت بعد أن يوصد بابه، والذهاب إلى البيت وحده في الليل، مخترقاً شوارع باريس ومعه مبلغ ضخم من المال. ولقد نمت في شر من هذا البيت خلال أسفاري العديدة. ولذلك صح عزمي على أن أسلك الباب وأُضَيِّبُهُ^٦ وأترسه، وفي الصباح أرى ما يجيء به الحظ.

وهكذا اتقيت التطفل علي، ثم نظرت تحت السرير، وفي الصوان^٧ واختبرت مشابك النافذة، ولما اقتنعت بأنني لم أقصر في الحيلة خلعت ثيابي الفوقية، ووضعت الشمعة على الموقد بين رماد الخشب، ورقدت على السرير، ودست صرقي تحت المخدة.

وما لبثت أن تبينت أن النوم لن يؤتيني، وأني لن أستطيع

حتى أن أغمض جفوني، فقد كنت تام التنبه وفيما يقارب الحمى، وكان كل عرق في بدني ينبض، وكل حاسة من حواسي مرهفة، فجعلت أثقلب، وأجرب كل رقدة، وألتمس المواضع الباردة من الفراش، ولكن بلا فائدة، وكنت تارة أريح ذراعي على ظهارة الفراش، وتارة تحتها، وتارة أدفع رجلي وأمدّهما إلى آخر السرير، وطورًا آخر أطويهما إلى قريب من ذقني، ومرة أهز المخدة وأقلبها على الوجه الآخر، وأسويها وأرقد على ظهري، ومرة أثنيتها وأقيمها على حدها وأسندها إلى ظهر السرير وأحاول أن أنام وأنا راقد كقاعد. ولكن هذا كله كان عبثًا فتوجعت وسخطت وأدركت أن أمامي ليلة طويلة سأقضيها مسهّدًا.

وماذا أستطيع أن أصنع؟ لم يكن معي كتاب فأتسلى بالقراءة، وإذا لم أهتم إلى ما أشغل به نفسي وألهي به عقلي فإن من المحقق أن يفضي بي ذلك إلى حال أتوهم فيه كل ضرب من المخاوف والأهوال، وأتصور كل ممكن وكل مستحيل من المخاطر، أي أن أقضي الليلة وأنا أقاسي كل أنواع الفزع العصبي.

واتكأت على مرفقي وأجلت عيني في الغرفة، وكان القمر يريق عليها ضوءه اللين من النافذة، وفي مأمولي أن أجد صورة أو حلية أتأملها. وتذكرت وأنا أدور بعيني من جدار

إلى جدار، ذلك الكتاب الممتع «رحلة في غرفتي» فاعتزمت أن أحذو حذو الأديب الفرنسي، وأن أنشد من التسلية ما يخفف آلام السهاد وسأتمته، وذلك أن أحصي — في رأسي — كل ما أستطيع أن أرى من متاع الغرفة وأثاثها وأن أتبع إلى مصادرها جمهرة الذكريات التي لا يعجز عن إثارتها حتى كرسي أو مائدة أو حوض.

على أن اضطراب أعصابي جعل الإحصاء أسهل عليّ من التفكير، فما لبثت أن يئست من قدرتي على انتهاج الطريق الذي ضرب فيه صاحب «رحلة في غرفتي»، لا، بل من القدرة على أي تفكير، فأدرت عيني في الغرفة، ونظرت إلى قطع الأثاث المختلفة، ولم أزد على ذلك.

وكان هناك، أولاً، السرير الذي أرقد عليه، وله عمد أربعة، وذاك آخر ما كنت أتوقع أن أجد في باريس؛ سرير إنجليزي الطراز ذو أربع قوائم، يحيط به من فوق، سِجف منقوش، وينسدل عليه ستران مقرونان خانقان، تذكرت أني لما دخلت الغرفة رددت كل شق منهما إلى القائمة من غير أن أجعل بالي إلى السرير نفسه. وكان هناك أيضاً حوض من الرخام للغسل، هو الذي صببت فيه الماء بلا تحرز أو أناة، ولا تزال بقية مما أريق على حافته يقطر ببطء على الأرض. وثم أيضاً كرسيان صغيران ألقيت عليهما ما خلعت من ثيابي، وكرسي آخر كبير ذو ذراع، وقد طرحوا عليه جِسا^أ أبيض

إلا أنه قذر، وعلى ظهره بنيتي وربطة رقبتني، وصوّان له أدراج، مقابض بعضها منزوعة، ودواة من الصيني مزخرفة ولكنها مكسورة موضوعة على ظهر الصوان كأنها حلية، ومنضدة للزينة، عليها مرآة صغيرة جدًا، ومدبسة كبيرة جدًا، ثم الشباك وهو أكبر من المؤلف، وكانت هناك أيضًا صورة قائمة قديمة رأيتها على ضوء الشمعة، وهي صورة رجل على رأسه قبعة إسبانية عالية مزدانة بالريش، ووجهه وجه شرير نذل، وعيناه تنظران إلى فوق، ويده على حاجبه كأنه يستشرف، وكان يحدّق فيما فوق، فلعله كان يرمق مشنقة عالية يوشك أن يتدلى منها. ومهما يكن من ذلك، فلا شك أن هيئته كانت هيئة رجل يستحق هذا المصير بلا جدال.

وكأنما أعدتني الصورة فرحت أصعد بصري إلى ما فوق، إلى سقف السرير. ولكن منظره كان كريهاً؛ فحولت عيني إلى الصورة، ورحت أعد الريشات التي تزدان بها القبعة، فإذا هي ثلاث بيضاء، وثلاث خضراء، وتأمّلت قمة القبعة فألفيتها مخروطة الشكل، من الطراز الذي كان يميل إليه ويؤثره «جيدو فوكس»، وتساءلت عما ينظر إليه هذا الرجل المرسوم! لا يمكن أن تكون النجوم همه، فإن شريراً مثله لا يكون فلكياً ولا منجماً، فلا بد أن تكون عينه على المشنقة العالية التي سيرفع إليها ويتدلى منها بعد قليل! فهل يرث الجلاد قبعته العالية المريشة؟ وأحصيت الريش مرةً أخرى فألفيته كما كان؛ ثلاث ريشات بيضاء، وثلاث ريشات خضراء!

وبينما كنت أتشغل بهذا شردت خواطري، وأذكرني ضوء القمر في الغرفة ليلة مقمرة في إنجلترا، بعد رحلة للنزهة في وادٍ ببلاد ويلز. وتمثل لخاطري كل ما شاهدته وأنا عائد مع رفاقي من هذه الرحلة؛ من المناظر الجميلة التي زارها القمر جمالاً، وأكسبها فتنة لا تكون لها بغيره، ومن العجيب أنني كنت نسيت هذه الرحلة ولم أفكر فيها كل هذه السنوات الطويلة، ولو أنني حاولت أن أتذكرها لكان المحقق أن لا أستعيد إلا قليلاً من مشاهدنا. فإلهذه الذاكرة التي لا تزال تعيننا على الاعتقاد بأننا خالدون على الرغم من الفناء المادي! ها أنا ذا في بيت مريب لا عهد لي به، وفي موقف قلق لا يخلو من خطر من شأنه أن ينفي التفكير الهادئ، ومع ذلك أراني أتذكر، عفواً وبلا جهد مني، أماكن وأشخاصاً، وأحاديث ودقائق من كل ضرب، كنت أظنها قد طويت طيًّا ليس له من نشر، وما كان من الممكن أن أتذكر ذلك بإرادتي حتى في أحسن الأحوال. وما الذي أثار هذه الذكرى في لحظة واحدة، وأحدث هذا الأثر العجيب المعقد الخفي السر؟ لا شيء سوى أشعة القمر الداخلة من نافذة غرفتي!

وكنيت لا أزال أفكر في تلك الرحلة، وفي مرحنا ونحن عائدون منها، وفي السيدة الشابة التي تأبى إلا أن تنشد أبياتاً من قصيدة «تشايلد هارولد» — بيرون — لأن القمر كان يضيء الدنيا، وردتني هذه المناظر والملاهي المنسية إليها واستولت علي، وإذا بالخيوط الذي تعلقته به ذكرياتي ينبت

في ثانية واحدة، وإذا بي أرد إلى الحاضر الذي أنا فيه بقوة، وإذا
بي ألقي نفسي — لا أدري لماذا؟ — أنظر بحدة إلى الصورة
المعلقة مرة أخرى!

أنظر باحثاً عن أي شيء.

يا إلهي! لقد شد الرجل المرسوم قبعتَه على حاجبيه! كلا!
بل اختفت القبعة كلها! أين ذهبَت القبعة المخروطية
الشكل؟! وأين الريشات الست؛ الثلاث البيضاء، والأخر
الخضراء؟! لم يبق لها وجود! وما هذا الذي يحجب جبينه
الآن وعينه ويده المرفوعة إلى ما فوق! حاجبيه؟

أفي السرير شيء يتحرك؟

انقلبت على ظهري، وحدقت. أتراني جنت؟ أما أنا
سكران؟ أم هو حلم؟ أم عاودني الدوار؟ أم سقف السرير
يهبط ببطء، ولكن باطراد، وفي سكون؟ يهبط كله شيئاً
فشيئاً، بطوله وعرضه، ويدنو مني قليلاً قليلاً وأنا راقد
تحتَه؟

وأحسست كأنما جمد الدم في عروقي، وابترد جسمي وسرى
مثل الشلل في بدني، وأنا أقلب خدي على الوسادة، أنظر

إلى الرجل المرسوم في الصورة وأرى هل يهبط سقف السرير
حقاً أو هو ثابت لا يتحرك؟

وكانت نظرة واحدة إلى الصورة حسبي، فقد كان السجف
المنقوش المحيط بجوانب السرير من سقفه محاذياً لخصر
الرجل! وظللت أنظر وقد احتبست أنفاسي، ورأيت
الصورة المرسومة تختفي، والإطار من تحتها يغيب، والسقف
يهبط ببطء، وفي اطراد، وبلا صوت!

وأنا لا جبان، ولا ضعيف القلب. وقد تعرضت للمخاطر
والمهالك أكثر من مرة في حياتي، ولم أفقد عقلي لحظة
واحدة، ولكني لما أيقنت أن سقف السرير يتحرك وأنه
يهبط عليّ، نظرت إليه وأنا أرعد، وقد فاجأني الروع فلا
حيلة لي تحت هذه الأداة القاتلة الشنيعة التي تقرب مني
لتخنقني وأنا أرقد.

خذلني الرشد، وخانني اللسان، وتعلقت أنفاسي وأنا أنظر،
وكانت الشمعة قد نفذت فانطفأت، ولكن القمر كان يضيء
الغرفة. وكان السقف يهبط بلا توقف، ولا صوت، وأنا من
الفرع كأنها شددت إلى المرتبة، وبلغ من دنو السقف مني أن
شممت رائحة التراب الذي في السجف المحيط به.

وفي هذه اللحظة الأخيرة تنبهت غريزة المحافظة على الذات، وأنقذتني من الدهول الذي استولى عليّ فتحرّكت، ولما أكد، فما كان هناك من المسافة بين المرتبة والسقف أكثر مما يسمح بالانقلاب على جنبي والتدحرج عن السرير. وبينما كنت أهوي إلى الأرض بلا ضجة أو ضوضاء لمست بكتفي سحفاً هذا السقف القاتل.

ولم أنتظر حتى تنتظم أنفاسي، ويثوب إليّ جسمي، ولم أعن بأن أمسح العرق البارد الذي تصبب من وجهي، بل أسرعت فنهضت على ركبتني لأرى سحفاً السرير من سطحه. وأعترف أنني سُحرت فسُمرت في مكاني، فلو أنني سمعت حينئذ وقع أقدام خلفي لما استطعت أن أدور أو أتلفت، ولو أن وسيلة للنجاة أتحت لي بمعجزة لما وسعني أن أتحرك لأنتفع بها، فقد صار كل ما فيّ من قوة وحياة مركزاً في عينيّ.

ظل السقف كله يهبط، ومعه السحفاً الذي يدور به، حتى لم يبق بينه وبين المرتبة ما يكفي لدس إصبع، فمددت يدي وتحسست جوانب السقف، فإذا الذي كنت أحسبه، وأنا راقداً، سحفاً عادياً لسرير ذي قوائم أربعة، مرتبة سميكة عريضة يحجبها السحفاً ويسترها من تحتها الكلة، فصعدت طرفي فأبصرت القوائم الأربعة عارية. وفي وسط السقف الهابط يزال ٩ عظيم خارج من سحفاً الغرفة، وهو ولا شك

الذي نزل بالسرير، على نحو ما تفعل المكابس. وكانت هذه الأدوات الضاغطة الرهيبة تتحرك من غير أن تحدث أخفت صوت. فما سمعت شيئاً وأنا راقد، ولا كان هناك أدنى جرس من الغرفة التي فوقني. وفي هذا السكوت المروع، وفي القرن التاسع عشر، وفي عاصمة فرنسا المتحضرة، رأيت أداة للقتل خنقاً، مثلها لعله كان موجوداً في أحلك أيام محكمة التفتيش، أو في الفنادق النائية المنقطعة في جبال الهارتز أو في محاكم وستفاليا السرية. وكنت، وأنا أتأملها، لا أزال عاجزاً عن الحركة، ولا أكاد أستطيع أن أتنفس، ولكنني استعدت قدرتي على التفكير فتجسدت لي المؤامرة التي دبرت لهلاكها في أفظع صورها.

لقد كانت القهوة التي قدمت لي، فيها مخدر، ولكنه كان أقوى مما يجب فأنجاني من الموت اختناقاً أني تناولت فوق الكفاية من المخدر، ولشد ما كنت أتبرم وأسخط على الأرق الذي أنقذني! ولشد ما وثقت بالوغدين اللذين قاداني إلى هذه الحجرة، وقد اعتزما أن يقضيا على حياتي ليظفرا بمكاسبي! وما أكثر الذين ربحوا مثلي، وناموا مطمئنين، كما كنت أحب أن أنام، على هذا السرير ثم لم يرههم، ولا سمع بهم أحد بعد ذلك! وسرت في بدني الرعدة وأنا أتصور هذا المصير الذي كنت صائراً إليه.

وتعطل كل تفكير، مرة أخرى، حينما رأيت أداة الهلاك

تتحرك مرة أخرى فبعد أن لبثت جاثمة على المرتبة حوالي عشر دقائق — على قدر ما استطعت التخمين — بدأت ترتفع، ولا شك أن الأوغاد الذين كانوا يحركونها من فوق اعتقدوا أنهم بلغوا غايتهم وحققوا مأربهم. وكما كانت تهبط في بطاء وسكون كذلك أخذت تصعد إلى مكانها الأول، فلما بلغت أطراف القوائم الأربع للسريـر كانت قد بلغت السقف أيضًا، واختفى الثقب والبزال جميعًا، وعاد السريـر — كما كان يبدو للعين — سريـرًا عاديًا، وسقفه السقف المألوف الذي لا يبعث على أي استرابة.

ووسعني الآن — لأول مرة — أن أتحرّك، وأن أنهض عن ركبتي وأرتدي ثيابي وأفكر في النجاة والتماس الطريق إليها. وكنت أدرك أن علي أن أتقي أن أحدث صوتًا يدل على أن الذين حاولوا خنقي أخفقوا، وإلا قتلوني على التحقيق. فهل تراني أحدثت صوتًا؟ أرهفت أذني، وجعلت عيني على الباب لأتبين... كلا. لم أسمع وقع قدم في الدهليز، ولا صوتًا، لا خفيضًا ولا عاليًا من الغرفة التي فوقني. وكان السكون تامًا في كل مكان، وكنت قد حرصت قبل الرقاد على السريـر، على إبعاد الباب وتضييـه، ولم يكفني ذلك فوضعت خلفه صندوقًا قديمًا من الخشب وجدته تحت السريـر، فاتخذت منه مترسًا. وكان من المستحيل نقل هذا الصندوق الآن من موضعه وراء الباب بلا ضجة (وقد اقشعر بدني وأنا أفكر فيما عسى أن يكون مخبأ فيه!) كذلك كان من الجنون أن

أفكر في الخروج من البيت من بابه الموصد. فلم يبق لي إلا النافذة، فمشيت إليها على أطراف أصابعي.

وكانت غرفتي في الطابق الأول فوق كُتَّة، وهي تطل على الشارع الخلفي الذي خططته في رسمك، فرفعت يدي لأفتح النافذة وأنا أعلم أن سبيل النجاة رهْنُ بهذا؛ فإن بيتاً كهذا يقتل فيه الناس لا بد أن يكون عليه حُرَّاس لا ينامون، وإني لجدير بأن أقضي نحبي على نحوٍ ما، إذا أُطِّ الشباك أو صَوَّت نجرانه. ١٠ وقد قضيت خمس دقائق — في حساب الزمن — وخمس ساعات فيما كنت أحس، في فتح هذا الشباك، ووفقني الله إلى فتحه في سكون، كما كان يمكن أن يفعل أمهر اللصوص وأحدقهم، ثم أشرفت على الشارع وأدرت عيني فيه، فوجدت أن إلقاء نفسي من النافذة، يكون فيه هلاكي المحقق، فأجلت طرقي في جوانب البيت، فرأيت على الجانب الأيسر منه أنبوبة الماء الغليظة التي رسمتها، وكانت قريبة من الشباك، وما كدت أراها حتى أيقنت من النجاة، فخلصت أنفاسي لأول مرة مذ رأيت سقف السرير يهبط علي!

وقد يرى بعض الناس أن وسيلة النجاة التي اهتمت إليها خطيرة، ولكن انزلاقي على الأنبوبة إلى الطريق، لم يتمثل لي فيه أي خطر، فقد استطعت بالمواظبة على الرياضة البدنية أن أحتفظ بقدرتي على التسلق وبراعتي فيه، وكنت واثقاً

أن رأسي ويديَّ ورجليَّ لن تخونني. لهذا لم أتردد في الإقدام، فركبت حافة النافذة، ولكنني تذكرت صرة المكاسب المدسوسة تحت الوسادة، وكان في وسعي أن أدعها، ولكنني آليت ألا أترك لأشجار هذا البيت ما كانوا يمتنون النفس باستلابه، ولهذا عدت إلى السرير، وربطت الصرة الثقيلة برباط رقبتني، وألقيتها على ظهري.

وخيل إليَّ، بعد أن فرغت من ذلك، أني سمعت حسيس أنفاس وراء الباب، فسرت رعدة الفزع في بدني مرةً أخرى، وأنا أنصت وأستمع. كلا! لا ركز، ولا شيء غير السكون في الدهليز، وإنما كان ما سمعته هسيس الهواء الداخل في الغرفة، ولم أضع وقتًا، فوثبت إلى حافة النافذة، ومن ثم تعلقت بأنبوبة الماء بيديَّ وركبتيَّ.

وانحدرت إلى الشارع بسهولة وبغير ضجة، كما كنت أتوقع، وذهبت أعدو بأقصى ما يسعني من السرعة إلى مركز الشرطة، وكنت أعرف أنه في جوار هذا الحي. وكان هناك ضابط وبعض الجنود يحكمون تدبير خطة، على ما أعتقد، للاهتمام إلى من ارتكب جريمة خفية كانت باريس كلها تلغظ بها يومئذ، فلما شرعت أقص قصتي، بسرعة، وبلغة فرنسية محطمة، كان من الجلي أن الضابط يحسبني إنجليزيًا مخمورًا سطا على بعضهم وسرقه، ولكن سرعان ما غير

رأيه بعد أن مضيت في قصتي، وقبل أن أتمها كان قد دس ما أمامه من الأوراق في درج، ولبس قبعته، وأعارني قبعة (فقد كنت عاري الرأس) وأمر صفا من العسكر أن يستعدوا، وطلب من الصناع أن يهيئوا كل ضروب الآلات اللازمة لفتح الأبواب عنوة ورفع بلاط الأرض، وتناول ذراعي كأني صديق حميم، وخرج بي. وأجازف فأقول إن الضابط، لما كان طفلاً صغيراً، وحمله أهله أول مرة إلى الملعب لم يكن فرحه بذلك كفرحه الآن بما يتوقع أن يجد في البيت الذي هربت منه.

واجتزنا الشوارع والضابط يستجوبني ويهتني في وقت معاً ونحن سائران على رأس القوة التي صحبتنا، ولما بلغنا البيت وضع الحراس أمامه وخلفه ثم أهوى على الباب يدقه ويقرعه فظهر نور في نافذة، فأمرني أن أتوارى وراء الشرطة، وتلت ذلك قرعات أخرى أشد وأقوى، وصيحة «افتحوا باسم القانون.» فانفتحت المزاليج والمغاليق أمام هذه الصيحة المرعبة، وما كاد المصراع يتحرك حتى كان الضابط في الدهليز يواجه خادماً ممتقع اللون في نصف ثيابه فدار بينهما هذا الحوار الوجيه:

— «نريد أن نرى الإنجليزي النائم في هذا البيت.»

— «قد خرج منذ ساعات.»

— «لم يفعل شيئاً من ذلك، انصرف صاحبه وبقي هو.
فاذهب بنا إلى غرفته.»

— «إني أقسم لك يا سيدي الضابط أنه ليس هنا ... إنه ...»

— «إني أقسم لك يا سيدي الخادم إنه هنا. نام هنا ثم لم يجد
سريركم مريحاً فجاء إلينا يشكو — هذا هو بين رجالي،
وهذا أنا جئت لأبحث عن هناة أو اثنتين في سريركم! يا
رينودان (أحد أعوانه) شد وثاق هذا الرجل واربط يديه
وراء ظهره. والآن فلنصعد.»

وقبضوا على كل رجل وكل امرأة في البيت، وفي طليعتهم
ذلك «الجندي القديم» وأريتهم السرير الذي رقدت عليه
ثم صعدنا إلى الغرفة التي فوقه. فلم نر أي شيء فيها يمكن
أن يستغرب أو يلفت النظر، فأجال الضابط عينه فيها وأمر
الحاضرين أن يلزموا الصمت وضرب الأرض برجله مرتين
ودعا بشمعة.

وفحص الموضع الذي ضرب به برجله، وأمر بأن ينزع البلاط،
فكان ما أراد في أوجز وقت، وجيء بالأنوار الكافية فرأينا

فجوة عميقة مدعمة بالخشب بين أرض الغرفة وسقف الغرفة التي تحتها، وفي هذه الفجوة صندوق قائم من الحديد عليه شحم كثير وفي جوفه البزال المتصل بسقف السرير، ووجدنا عدا ذلك ضرóbاً أخرى من البزال حديثة التزييت، وروافع مكسوة بالمخمل، وكل ما تركب منه آلة ضاغطة ثقيلة، وهي جميعاً مصنوعة بحيث يسهل وصلها بما أُعد في الغرفة التحتية، وبحيث تفك وتوضع في أضيق مكان. وبعد قليل من العناية استطاع الضابط أن يركب هذه الآلة، ثم ترك رجاله ليديروها وانحدر هو إلى الغرفة التي فيها السرير، وأنزل السقف الخانق ولكن نزوله أحدث صوتاً لم أسمعُه وأنا راقد، وقد ذكرت هذا للضابط فكان جوابه العظيم الدلالة: «إن رجالي يستعملون هذه الآلة للمرة الأولى، أما الذين ربحوا ما لهم فإن خبرتهم أطول ومرانتهم أوفى.»

وغادرنا البيت في حراسة اثنين من رجال الشرطة فقد نقل كل من كان فيه إلى السجن. وبعد أن دون الضابط أقوالى في مكتبه ذهب معى إلى فندقى ليرى جواز سفرى. وقد سألته وأنا أقدمه له: «أنظن أن أحداً خنق حقيقة على هذا السرير كما حاولوا أن يخنقونى؟»

فقال: «لقد رأيت عشرات من جثث العرقى فى معرض

المجهولين، وقد وجدت معهم إقرارات بأنهم انتحروا في نهر السين لأنهم خسروا مالهم على مائدة القمار. ومن أدراني أنهم لم يدخلوا البيت الذي دخلته؟ وربحوا كما ربحت؟ وناموا حيث رقدت؟ واختنقوا فيه؟ ثم ألقوا بهم في النهر وفي ثيابهم إقرار كتبه القتلة؟ إنه ما من أحد يستطيع أن يقول كم لقوا الحنف الذي نجوت أنت منه.

وقد كتم أهل هذا البيت سر آلتهم عنا نحن الشرطة، وتكفل الموتى بكتمان باقي السر. والآن عم مساءً، أو على الأصح عم صباحاً يا سيد فولكنر. وأرجو أن تعود في الساعة التاسعة، وإلى الملتقى!»

ولم يبق من قصتي إلا قليل، سئلت مرة وأخرى، وفتش كل مكان في البيت، واستُجِوبَ المقبوض عليهم، كل واحد منهم بمفرده، واعترف اثنان منهم. وتبينت أنا أن «الجندي القديم» هو صاحب بيت القمار، وأظهر التحقيق أنه طرد من الجيش من سنين لسوء سيرته، وأنه اقترف كل ضروب الآثام بعد ذلك، وأن عنده مسروقات شتى عرفها أصحابها، وأنه هو والضريب وشريك آخر والمرأة التي وضعت لي المخدر في القهوة، يعرفون جميعاً سر السرير، وكان هناك شك في أن غيرهم ممن يعملون في هذا البيت يعرفون شيئاً عن الأداة الخائفة المركبة فيه، فانتفعوا بهذا الشك، وعدهم

القضاء لصوصًا ومتشردين. أما الجندي القديم وشريكاه فحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة، وأما المرأة فكان نصيبها السجن سنواتٍ نسيت عددها. وعُد الذين يختلفون إلى هذا البيت بانتظام «مشتبهًا فيهم» ووضعوا تحت المراقبة ولبثت أسبوعًا كاملاً (ما كان أطولَه!) وأنا أبرز رجل في المجتمع الباريسي. واتخذ ثلاثة من مشاهير الروائيين، حادثتي موضوعًا لقصصهم المسرحية، ولكنها لم تر الضوء ولم تمثل منها واحدة لأن الرقابة منعت أن تظهر على المسرح صورة صادقة لهذا السرير.

على أن الحادثة أثمرت خيرًا لا شك أن أية «رقابة» لا يسعها إلا أن تحمده. ذلك أنها شفتني وزهدتني في لعبة «الأحمر والأسود» وبغضت إليّ التسلي بها، وسيظل منظر الغطاء الأخضر، وعليه أوراق اللعب، وأكوام الفلوس، مقرونا عندي بمنظر سقف سرير يهبط عليّ ليخنقني في ظلام الليل وسكونه.

هوامش

(١) المفروض أن صاحب الحادثة يقص القصة على المصور الذي يرسمه.

(٢) الضريب هو: الموكل بالقдах في الميسر (موظف نادي القمار)، وقد رأيت أن أترجم بها كلمة reipuoC.

(٣) جيش نابليون.

(٤) موقعة انتصر فيها نابليون في ألمانيا.

(٥) الثاقل: الذي أثقله المرض.

(٦) السك والتضبيب، لفظان صحيحان ومعناهما معروف (إغلاق الباب بشدة)، والمترس ما يوضع خلف الباب.

(٧) ما تصان فيه الثياب.

(٨) الحبس: مفرش السرير.

(٩) البزال: البريمة.

(١٠) النجران: ما يدور عليه الباب أو الشباك، والأطيط صوت الخشب أو الجلد وما أشبههما.

وليم هيل هوايت (مارك روزرفورد)

نفس مرضية

منذ أربعين سنة خلت كنت «كاتبًا» في ديوان للحكومة في «هوايتهول» وكنت قد قضيت في عملي هذا ثلاث سنوات. وكان أبي على شيء من الخفض في العيش وله ألف وخمس مائة فدان، ولما لم يكن له من الولد سوى بنت و غلام فقد وسعه أن يدخلني في مدرسة «هارو» التي تعلم هوفيهها، وقد انتقلت من «هارو» إلى «كمبردج» وأديت الامتحان الخاص بالخدمة المدنية بنجاح، وما لبثت أن خطبت «مرغريت راشورث» بنت راعي الكنيسة ببلدة «همسورث» على مسافة خمسة أميال من بلدتنا، وفي سنة ١٨٧٠ بنيت بها. وكان أبي يوسع عليّ بائة جنيه في العام غير ما أتقاضاه من عملي، وكان لمرغريت خمسون جنيهًا في العام، فاتخذنا لنا بيتًا في «بلاك هيث».

ولم تكن مرغريت ذات ولوع بالقراءة، وإن كانت تجيد تحصيل ما تقرأ وقد حدثت نفسي أنها ستفتح، أعني أن تُشغف بالأدب وتُغرى بالاطلاع عليه ولكنها لم تفعل ولم يصدق ظني، ولعله كان لا يسعها إلا أن تنمو وتنضج وفق طبيعتها، وعسى أن يكون الله قد شاء — وإن كانت هي لا تدري — أن تبقى طبيعتها الخاصة غير مشوبة أو متأثرة بطبيعة أخرى. أما أنا فكنت على نقيضها ولم تكن لي حياة إلا في الكتب، وكنت أيام كمبرج قد دخلت في الأدب دخولاً ثابتاً فأصبحت أمقت اللهو ولا أطيق الفراغ. وكان حبي للكتب هو الذي يرجع إليه بعض ما في من عيوب، ومن بينها فقدان الشعور بالتناسب، والإدراك الصحيح للقيَم الحقيقية للأشياء. فقصيدة قصيرة من ثلاثة مقاطع أو أربعة، أو بضعة أبيات من قصة «اغتناب خصلة الشعر» ترجح عندي بأخبار الحوادث الجسام، بل كان خيراً عندي، وأولى بي في رأيي، أن أعرف كيف كان شكسبير يربط حذاءه من الإمام بأحكام قانون ثوري كقانون الإصلاح. وكان الحديث لا يطيب لي إلا إذا دار على ما أقرأ، ولا شك أن كثيرين كانوا يعدونني مغروراً مفتوناً متحذلقاً، وأعترف أن مخالطتي كانت لا رضية ولا مطلوبة، وكان الهزالون والفارغو القلوب والرءوس يضحكون مني ويتهمون عليّ، لأن الرجل الجاد مثلي يكون لأمثالهم عرضة استهزاء من العسير عليهم أن يصدوا أنفسهم عن ركوبه بالعبث والمجانة.

على أن هذه الطبيعة الخاصة لم تتكشف إلا بعد الخطبة بقليل. وقد كنت يومئذ أطمع في السعادة مع مرغريت، وأحلم بأن أقضي الأمساء الطويلة ونحن معاً ندرس شيللي (الشاعر) ونبحث سياق قصته «ثورة الإسلام» وهي مسألة كانت لا تزال مستعصية الحل عليّ. وكنت عضواً في ناد يسمى، لغير داع خاص، «نادي السبت» وقوامه اثنا عشر رجلاً من أتراي وأشباهي في النزعة يجتمعون في اليومين الثاني والخامس عشر من كل شهر للاستفادة وتفتيش الكلام والنظر في المعارف. وما من ريب في أن كثيرين يستغربون ذلك، ولكنه لا يبدو لي غريباً، حتى الآن أن يجلس اثنا عشر من أبناء هذا العالم المبتذل، إلى مائدة وأن يحاولوا، بغير معونة من شراب أو طباق أو قهوة، أن يجيّلوا النظر ويتبادلوا الرأي في موضوعات يعدها الأكثرون ثقيلة منفرة. وقد عدت مرة إلى البيت ورأسي مكتظ بأسلوب الشاعر ملتون في النظم، فشرعت أصب على رأس مرغريت ما دار في اجتماعنا، وأفضي إليها بآرائي وملاحظات على الخصوص، ولكن لما كانت لم تقرأ قط قصيدة «الفردوس المفقود» ولا تعرف شيئاً عن البحر المرسل، فقد أقصرت، وشعرت بخيبة الأمل. وأسفت هي أيضاً، وانقضى المساء، كما تنقضي الأمساء في أخريات سبتمبر/ أيلول الذي قل أن توقد فيه النار، ومع ذلك يجيء فيه المطر البارد مع الظلام المتكاثف. وكانت عادتنا إذا وقع الثاني أو الخامس عشر من الشهر، في يوم سبت، أن نجتمع في الساعة الرابعة، فاتفق مرة أن حاولنا أن نتبين

حقيقة ما حدث للزورق المسحور في قصيدة «الاستور» فإن الماء المائج يرتفع «درجة فوق درجة» والزورق يستولي عليه الموج المتسامي. فحيرني ذلك واشتقت إلى الفهم، وعدت إلى البيت فلم أستطع أن أصد نفسي عن عرض المعضلة التي تحيرني، على مرغريت، فقرأت لها من قصيدة «الاستور» كل ما له علاقة بحركة الزورق، وأفضت في الشرح والبيان وكنت أراها تجشم نفسها أن تتبعني وأن تستوضح مجرى الماء ولكنها لم توفق، وأغضبني ما تقوله مما لا دخل له في الأمر، وسألتني من عسى أن يكون هذا المطوّف، وما الغرض من رحلته؟ فلم أطق صبراً وقلت لها وأنا معتمد بمرفقيّ على المائدة، ورأسي بين كفي من الغم: «لشد ما أتمنى يا مرغريت أن أجد عندك أكثر من هذا العطف قليلاً! وما أخلقني بالسعادة لو أنه كان يعينك ما يعينني!» فلم تقل شيئاً، وتركتها وخرجت ولكنني، وأنا خارج، خيل إليّ، أن الدمع متحير في عيناها، ففزعت! فقد كنت أحبها حباً جمّاً، وحدثت نفسي أن هذا لعله بداية الفتور في حبي لها. فماذا ينبغي أن أصنع؟ وكيف أكون إذا حلت بيننا الجفوة، ووقعت النبوة؟ وشعرت بالفزع القريب من الجنون الذي يشعر به الناس حين تزلزل الأرض وترتج تحت أقدامهم.

وفي تلك الليلة تعشى معنا صديق قديم من أيام الدرس، وكنت لم أره منذ ستين. واسمه روبرت باركلي. وكان أبوه قسيساً درس اللاهوت في مدرسة سيميون، فهو لهذا

من الإنجيليين، وكذلك كان ابنه روبرت الذي تعلم في كمبردج، ولكنه تغير لما بلغ الخامسة والعشرين، كأنما أفاق من سبات، وشرع يتساءل، وكانت النتيجة أن العقيدة التي رُبِّي عليها بدت له كأنها غير ذات أساس، وكأنما هي معلقة في الفضاء. وظل هكذا حتى أصبح لا يستطيع أن يقول شيئاً غير «لا أدري». غير أنه كان من المستحيل أن يطمئن إلى هذا ويرضى به، فقد كان ممن تغريهم فطرتهم بالنزوع إلى التقرير والحسم، فما لبث أن تحول إلى العقيدة الكاثوليكية وحل بهذه الطريقة، على نحو يرضيه، المعضل الناشئ عن إيجاد سند للسلطان البابوي، يرجع إلى المركز الذي أعياه أن يجده في المذهب السيموني. وقد اقتنع بأن يقف حيث وقف نيومان: «إنه لا حيلة في ذلك، فإما أن نرفض الإيمان بالكنيسة باعتبارها إلهية وإما أن نقر لها ونعترف بها في النظام الذي يرأسه البابا. وعلينا أن نتقبل الأشياء كما هي كائنة. فإنك إن تؤمن بالكنيسة تؤمن بالبابا.»

وكان باركلي كثيرًا ما يزورنا في بيت أبي قبل هذا التحول، فأحب فيرونيكا — أخت مرغريت — وكانت في ضيافة أمي. وبادلتة فيرونيكا حبًا بحب، فخطبها، وإذا به بعد ذلك تستولي عليه الرغبة، شيئًا فشيئًا، أن يكون قسيسًا، ويعمق في نفسه الإيقان، بأن من واجبه أن يفعل ذلك، وكانت فيرونيكا قد صارت كاثوليكية أيضًا، وساعفتها قوة النفس فكانت تحضه على أن يلبي ما كان كلاهما يعتقد أنه

نداء إلهي. وليس في وسع إنسان أن يحيط بما قاساه واحتمله هذان، الله وحده هو العليم بهما. وكنت أنا ألمح، بين آونة وأخرى، آيات المجاهدة النفسية، والصراع الذي يدفع الدم في مسام الجلد.

ولم تكن الصعوبة في عمل ما كانا يعتقدان أنه الصواب، بل في الاهتمام إلى الصواب ما هو؟ فقد كان يبدو لهما أحياناً أن ما يدعوهما إلى الحب، جلي الصوت لا خفوت به ولا غموض فيه، ولا تردد، وقد كان كلاهما حاراً، مشبوب العاطفة، قوي الخيال. فهل من الممكن أن يتصور الإنسان أن هذا الهاتف القوي ليس من الله؟ أما ما يهيب بروبرت أن يكون قسيّاً فلم يكن له مثل هذا الجلاء وذلك الوضوح، غير أن كلا من روبرت وفرونیکا كان أذكى وأعلم من أن يغيب عنه أن الوضوح ليس شرطاً في التوجيه، وأن الطريق القويم قد توحى به همسة خافتة ولكن لها مثل قوة النفخ في النفير، فينهج المرء النهج ولو إلى البوار والتلف. على أنني لا أدري ماذا جعل الفراق بين فيرونیکا وروبرت أشق وأقسى، وقد يكون في هذه السطور التي أنقلها من رسائل روبرت إليّ، بعض البيان قال:

إن في هذه المأساة ما لا قبل لي بالعبرة عنه، فإنه الكشف التام عن كل ما تنطوي عليه كلمة «أبداً» والتجسيد الدقيق لحقيقة معناها.

وهل يستطيع الإنسان أن يعبر بالألفاظ عن منديل أبيض يخفق من نافذة قطار، أو عن رصيف خال كانت تقف عليه قبل عشر دقائق امرأة معينة لا تزال صورتها ماثلة وإن غاب عن العين شخصها؟ إن في هذا شيئاً غير الأسى بمجردده، عسى أن يكون تفتح الهاوية الرهيبة الكائنة تحت حياة الإنسان. وقد كانت إحدى نتائج هذه المحنة الإخلاص الصافي من كل شائبة، فقد هذبته الامتحان، وصفت نأراً التجربة معدنه من الأخلاط، وصارت ألفاظه تقوم مقام الحقائق وتغني غناءها، ولعل إخلاصه هذا هو الذي أكسبه ذلك السلطان على نفسي، وقد عجز عن حملي على اعتناق المذهب الكاثوليكي، ولكن الفضل في ذلك يرجع إلى مرغريت التي ردتني عن متابعتها، فقد كانت هي الوحيدة التي تستطيع أن تمكنني من المقاومة.

وقد أعجب روبرت بما حدثته به مرغريت — على العشاء — من أسلوبها في معونة جيرانها الفقراء، فما كانت تعطيهم مالاً، أو ثياباً، أو طعاماً، أو تكتفي بالزيارة، وإنما كانت تدخل بيوتهم، وتعمل فيها، فتطبخ لهذه، وتغسل ثياب تلك، أو تنظف الغرف، أو تمسح البلاط. ولم تكن هذه معونة حقيقية فحسب، وإنما كانت كذلك فرصة تغتنمها مرغريت لتعليم هؤلاء النسوة كيف ينبغي أن يعملن عملهن ويؤدين واجباتهن، وقالت مرغريت وهي تصف مساعيها تلك: «وقد يتاح لي من حين إلى حين أن ألحن بكلمة تنفعهن،

فإني واثقة أن الكلمة تلقى عرضاً، أفعل في نفوس هؤلاء النسوة وأجدى عليهن. ومن العيب أن تتحدث إليهن في مسائل نظرية أو عامة، أو أن تعظهن وتفيض في الكلام على الخطيئة وفضاعتها. ولكن إذا كان جار إحداهن قد ضرب امرأته، أو كان يشرب ولا يعطيها شيئاً مما يكسب فإن في وسعك أن تقول في سوء سيرته ما يعن لك، وأن ترجو أن يكون لكلامك وقعه. أما الدين كما نفهمه حين نركع ونصلي، فذلك ما لا سبيل إلى تعليمهن إياه. وإنه ليتطلب موهبة سماوية كالتي لا بد منها للشاعر العظيم، ألا وإن ردّ اليد عن النشل والسرقة لعسير...

ونضت مرغريت إلى فراشها؛ فقد كانت بطفلتنا، التي بلغت من العمر ستة شهور، حاجة إلى عنايتها. وبقينا نحن صامتين بضع دقائق، ثم قال روبرت فجأة وبلا تمهيد: «مرغريت آية ... عبقرية ... ولقد شرفتك بزواجها فكانت بركة عليك، وليقل الأغبياء ما شاءوا، فإن الابتكار والعبقرية في الزوجة من أكبر الأنعم وأعظم البركات. ولكن هناك مع ذلك ما هو أكبر وأعظم.» وكان صوته يرتجف ويضطرب وهو يقول ذلك.

عبقرية! ابتكار! هذا ما لم يخطر لي من قبل. وتذكرت الزورق في قصيدة «الاستور» ولكن سلطان روبرت كان أقوى من الذكرى، وكان له من الصولة والسطوة ما يكفي

لا لتغيير رأي ما، فقط، بل لتغيير وجوه الأمور تغييرًا تامًا شاملًا. كما أدرك Saul في مثل لمح البصر، وبلا جدال، أنه كان مخطئًا. وهكذا كشف لي روبرت عن حقيقة مرغريت التي كانت محجوبة عني، وكان هذا منه أشبه بالمعجزة، إذا اعتبرنا الأداة والوسيلة وقسناهما إلى النتيجة والأثر.

ودخلت غرفتها؛ فتحت الباب برفق فرأيتها نائمة وإلى جانبها الطفلة، ولكن مصباح الليل كان مضاءً، فخلعت نعلي عند الباب وتسلفت على أطراف أصابعي إلى المنضدة الصغيرة الموضوعة إلى جانب السرير، فإذا عليها نسخة من ديوان شيللي وأرنتني علامة فيه أنها كانت تدرس الأبيات التي قرأتها لها عن الزورق، فعدت إلى غرفتي، ولكنني لم أنم. وفي بكرة الصبح ذهبت إلى غرفتها، فتبينت أنها استيقظت في الليل، فقد أرنتني العلامة أنها قلبت صفحة. ولكن عينيها كانتا مغمضتين، وكان ذراعها على الغطاء. فركعت وتناولت راحتها الجميلة الصغيرة ولثمتها لثمة خفيفة. فتنهت، واعتدلت وحتت عليّ، وأحسست شفيتها على رأسي، وتهدل شعرها الوحف فكساني. وقد ماتت منذ عشر سنين، ولكن المحيا الذي يطالعني ويتراءى لي دائمًا، سعيد، والحمد لله.

ريتشارد جارنت أناندا: صاحب المعجزات

لما أرسل بوذا رسله ليدعوا إلى دينه وينشروه في الهند، لم يفتنه أن يزودهم بالوصايا لهدايتهم، وناشدهم أن يتوخوا الوداعة والتواضع والرحمة والقصد، وأن يخلصوا في بث دعوته، وأمرهم أن لا يأتوا — في حال من الأحوال — بمعجزة.

ويروون أن رسله كانوا يعانون عناءً شديداً، ويكابدون مصاعب جمة في العمل بأوامره، وأنهم كانوا أحياناً يخفقون، إلا النهي عن المعجزات، فما خالفوا ذلك قط ولا مرة واحدة، ما خلا أناندا التقي الورع الذي نورد فيما يلي سيرته في العام الأول من رسالته.

ذهب أناندا إلى «مجادا» وشرع يفقه الأهالي في دين بوذا، ولما كان المذهب مقبولاً، وكان هو رطب اللسان، مقنع البيان، فقد أقبل عليه الناس يصغون طائعين، وانصرفوا شيئاً فشيئاً عن البراهمة الذين كانوا يوقروهم من قبل ويعدونهم هداة مرشدين.

«ألا بارك الله في رسول ينشر الحق بقوة الإقناع والقُدوة الحسنة والبيان المشرق لا بالخطأ والدجل والشعوذة كما يفعل أولئك البراهمة التعساء!»

ولم يكد يدور في شذقه هذا الزهو حتى تضاعف جبل فضائله، وهجرته الفصاحة والبراعة والفضيلة، فلما خطب الجمهور مرة أخرى بعد ذلك سخرُوا منه واستهزءوا به ثم رشقوه بالحجارة.

ولما صار الأمر إلى هذا الحال رفع أناندا عينيه فأبصر عددًا من البراهمة، من طبقة دنيا، حافين بغيلام مصروع على الأرض، وكانوا يحاولون عبثاً أن يردوا إليه نفسه بالرقى والعزائم وما إلى ذلك من وسائل الشفاء المقررة، ثم قال أحكمهم: «فلنترك بدن هذا المريض مَسْكناً غير حميد للشيطان، فلعله حينئذ يزهد فيه ويهجره.»

وعلى أثر ذلك شرعوا يكوون الغلام بالحديد المحمي،
وينفخون الدخان في منخرية، ويفعلون ما وسعهم غير ذلك
لإزعاج الشيطان المتطفل. فكان أول ما خطر لأناندا «أن
الغلام مصاب بنوبة صرع.» وكان الخاطر الثاني «أن إنقاذه
من معذبيه عمل طيب.» والخطر الثالث «إذا أحسنت
التدبير فقد يخرجني هذا من المأزق الذي أنا به، ويعلوه
اسم بوذا المقدس.»

ولأن للإغراء، فتقدّم وطرد البراهمة بصوت الأمر المسيطر،
ورفع وجهه إلى السماء وتلا أسماء الشياطين السبعة. ولما لم
يُحدث هذا أثراً تلا أسماء سبعة آخرين، ثم غيرها وغيرها.
واتفق أن زالت النوبة من تلقاء نفسها، وانقطع اضطراب
الغلام وتلوّيه، وفتح عينيه، فردّه أناندا إلى أهله. ولكن
الناس صاحوا بأعلى صوت: «معجزة! معجزة!» فلما عاد
أناندا يعظّم أصغوا له، واعتنق كثيرون منهم مذهب بوذا.
فسر أناندا سروراً عظيماً، وأثنى على نفسه لما كان من براعته
وحضور ذهنه، وقال: «لا شك أن الغاية تبرر الوسيلة.»

وما كاد ينطق بهذا الكفر حتى تضاءل جبل فضائله ومزاياه،
وصار في القدر قرية من قرى النمل، وفقد قيمته ووزنه في
عيون القديسين، ما عدا بوذا الرحيم الواسع المغفرة.

وذاع حديث المعجزة في طول البلاد وعرضها، حتى بلغ
مسمع الملك، فدعاه وسأله هل أخرج الشيطان وطرده
حقاً؟

قال: «بلى.»

قال الملك: «هذا يسرني، فلإني أريد منك أن تشفي ابني،
فقد غشيه سبات لا يفيق منه منذ تسعة وعشرين يوماً.»

فقال أناندا بلهجةٍ وديعة: «وا أسفاه يا مولاي! إن الفضائل
التي لا تكاد تكفي لشفاء منبوذ تعس، كيف تجدي في إبراء
ابن ملك هو فيل بين أفيال الصيد؟»

فسأله الملك: «وبماذا تكتسب هذه الفضائل؟»

قال أناندا: «بالتكفير عن الذنوب، ورياضة النفس على
النسك، وبفضل هذا يستطيع الناسك المتبتّل أن يُركد
الرياح، ويُرقد الموج، ويجادل ويقنع النمر، ويحمل القمر
في كفه، ويفعل غير ذلك كل ما يُطمع فيه من ساحر
متجول.»

فقال الملك: «أما والأمر كما تقول، فإن من الواضح أن

عجزك عن شفاء ابني سببه نقص الفضل، والنقص في الفضل سببه نقص في التكفير، لهذا سأكل أمرك إلى براهمتي ليساعدوك على سد هذا النقص.»

وعبثًا حاول أناندا أن يبين له أن التكفير الذي يعنيه عقلي وروحي ليس إلا. وقد سُرّ البراهمة أن يقع بين مبالغهم ملحد في رأيهم، فانقضوا عليه وحملوه إلى معبد، وهناك نزعوا عنه ثيابه فأذهلهم أن لا يروا على بدنه أثرًا لجرح من ضرب أو كيٍّ. فصرخوا: «يا للفظاعة! هذا رجل يطمع أن يدخل ملكوت السماء بجلد سليم!» وأرادوا أن يصلحوا هذا الخطأ، فبطحوه^١ وأهواوا عليه بالسوط يجلدونه حتى عقّوا على سلامة جلده البغيضة. ثم انصرفوا عنه على وعد بأن يرجعوا إليه في اليوم التالي ليعيدوا الكرة، وأكدوا له ساخرين أن فضله بعد ذلك لن يكون دون فضل القديس «باجيراتا» أو حتى فيسوامترا نفسه.

وبقي أناندا، حيًّا كमित، على أرض المعبد، وإذا بالهيكل يضيئه شبح باهر اللألاء يقول: «والآن أيها المرتد، هل اقتنعت بحماقتك؟»

فلم يسغ أناندا اتهامه في دينه بالفتون، ولا الطعن في عقله وحكمته، ولكنه مع ذلك تطامن فقال: «معاذ الله أن أندم أو أترم بما يصيبني في سبيل ديني وأداء رسالة مولاي.»

– «أتحب أن تبرأ أولاً، ثم تكون أداة لتحويل أهل «مجادا» جميعاً عن دينهم؟»

فسأله أناندا: «وكيف يستطيع ذلك؟»

قال الروح: «باللجاجة في طريق الغش والعصيان.»

فانتفض أناندا وارتاع، ولكنه حرص على الصمت انتظاراً للإيضاح.

ومضى الروح في كلامه فقال: «اعلم أن ابن الملك سيفيق من سباته في نهاية اليوم الثلاثين، أي ظهر الغد، فليس عليك إلا أن تمضي في الوقت المناسب، إلى السرير الذي يرقد عليه، فتضع يدك على قلبه وتأمره أن ينهض. وسيُعزى شفاؤه إلى قواك السحرية، وسيفضي ذلك إلى تقرير دين بوذا. ولا بد قبل ذلك أن أداوي ظهرك، وما أسهل هذا عليّ، وكل ما أدعوك إليه هو أن لا تنسى أنك في هذا تخالف أوامر مولاك وأنت مدرك لذلك، ومن الواجب أن تعلم أيضاً أن إنقاذك من المآزق الذي أنت فيه الآن سيوقعك في مآزق أخرى أدهى وأمر.»

فحدث أناندا نفسه أن روحاً شفافاً ليس له بدن يحلّ فيه لا

يستطيع أن يقدر ما يحسه رسول مجلود، وقال للروح: «داوني إذا استطعت، واحتفظ بتحذيرك إلى وقت يكون أنسب من هذا.»

قال الروح: «فليكن ما تريد.» ومد راحته فأمرّها على جسم أناندا، فاكتمسى ظهره جلدًا جديدًا، وزال عنه الوجع. واختفى الروح وهو يقول: «إذا احتجت إليّ فليس عليك إلا أن تعزم عليّ بهذه العزيمة «جنو إمداب إنام موا^٢» فأظهر لك.»

ومن السهل أن يتصور المرء غضب البراهمة ودهشتهم حين عادوا ومعهم الشياطين والدّرات الجديدة فألفوا فريستهم سليماً معافى في بدنه، ولعلمهم كانوا خلقاء أن يعتاضوا من الشياطين حبلاً للشنق لولا أنه كان معهم حاجب من حجاب الملك، فبوا أناندا كنفه، وحمله معه إلى القصر فمضوا به من توتهم إلى مخدع الأمير الصغير حيث كان هناك حشد كبير من الناس، ولما كان وقت الظهر لم يجيئ، فقد أخذ أناندا يزجي الوقت الباقي بالتحدث إليهم عن استحالة المعجزات إلا معجزة يأتي بها أتباع بوذا، ثم نزل عن منبره، وفي اللحظة التي توسطت فيها الشمس كبداً السماء وبلغت سمتها، أراح يده على قلب الأمير فانتبه من فوره، وأجرى لسانه ببقية كلام عن لعبة النرد، كان يقوله فقطعه عليه ما انتابه من السبات.

فضج الحضور، واستخف الفرح حاشية الملك، ووجم البراهمة وامتعت وجوههم. حتى الملك بدا عليه التأثير والافتناع، وطلب من أناندا أن يزيده تعريفاً بالبودية، فأجابه أناندا إلى ما طلب، ولكن الأربع والعشرين ساعة الأخيرة كانت قد علمته الحكمة وحسن النظر في عواقب الأمور، فلم ير أن يقول شيئاً عن القواعد الأصلية والأركان الرئيسية للبودية، ولا أن يشير إلى حقارة الحياة والحاجة إلى الخلاص بالتضحية، والسبيل إلى السعادة، وتحريم إراقة الدم. واكتفى بأن يقول إن كهنة بوذا مقضي عليهم بالفقر الأبدي، وأنه بمقتضى الشريعة الجديدة تؤول كل الأملاك الكنائسية إلى أولى الأمر المدنيين.

فصاح الملك: «أما وحق البقرة المقدسة، إن هذا لدين!»

وما كاد الملك ينطق بذلك حتى أعلن رجال الحاشية اعتناقهم لدين بوذا. وتبعتهم الجماهير واقتدت بهم، وألغيت معابد البراهمة وحُرمت ما كانت توهب، وارْتُكِب في يوم واحد باسم الدين الجديد الصافي من الأكدار أكثر مما ارتكِب في ظل القديم الفاسد في مائة عام.

وسر أناندا إحساسه بأن في وسعه أن يعفو عن أعدائه، وارتفع قدره في عينيه تبعاً لذلك، وتمت سعادته بأن صُم

إلى القصر ووُكلت إليه تربية الأمير ابن الملك فتولى تعليمه شريعة بوذا على وجه مرضي. وكان هذا أمراً شاقاً لأنه كان يتقاضاه صرف الأمير عن ملهاته المحبوبة وهي تعذيب الزواحف الصغيرة.

وبعد فترة وجيزة دعي مرة أخرى إلى حضرة الملك فألقى عنده اثنين من أفضع الأشرار أحدهما يحمل فأساً عظيمة وفي يد الآخر كلبتان.^٣

وقال الملك: «هذا رئيس الجلادين، وهذا رئيس المعذبين.»

فأعرب أناندا عن اغتباطه بمعرفة هذين الرجلين الكبيرين المقام.

ومضى الملك في كلامه فقال: «يجب أن تعلم أيها التقي الورع أن الحاجة قد نشأت مرة أخرى إلى رياضة النفس على الجلد وإنكار الذات من جانبك، فقد غزا العدو بلادي وألحق الهزيمة بجنودي، وكنت خليقاً أن يروعنني ذلك ويهولني لولا التعزي بالدين، ولكن اعتبادي إنما هو عليك يا أبي في الروح، ومن المحتم أن نكتسب أعظم مقدار من الفضل في أوجز زمن وأقصر مدة، ولم أستطع أن أستعين على هذه الغاية بالبراهمة أصدقائك القدماء فإنهم الآن، كما تعلم،

مغضوب عليهم. ولكنني دعوت هذين الخيرين الموثوق بهما. على أنهما قد اختلفا، فأما رئيس المعذبين فإنه رجل ليّن رقيق القلب رحيم، ولهذا يرى أنه يكفي في البداية أن نتخذ أخف التدابير كأن نعلقك من رجلك، وندي رأسك في دخان حطب موقد، ونملأ منخريك بالفلفل الأحمر، أما رئيس الجلادين فإنه على ما يظهر ينظر إلى الأمر نظرة فنية، ويرى أن الأولى أن نلجأ دفعة واحدة إلى الصلب أو الخازوق. ويسرني أن أعرف رأيك في الموضوع.»

فأعرب أنا ندا — على قدر ما سمح له الرعب بذلك — عن استنكاره الشديد لكلتا الوسيلتين.

فقال الملك بلهجة المذعن لما لا حيلة له فيه: «حسن. إذا كنا لا نستطيع أن نتفق على إحدى الوسيلتين فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نجرهما جميعا. وسنجتمع إذن لهذا الغرض صباح غد في الساعة الثانية. والآن، اذهب بسلام.»

فذهب أنا ندا، ولكن ليس بسلام، وكان الرعب خليقاً أن يذهب بلبه لولا أنه تذكر ما وعده به منقذه. فلما بلغ مكاناً يأمن فيه العيون نطق بالعزيمة السحرية. وما كاد يفعل حتى ظهر له، لا الروح، بل رجل من أهل النسك والتقشف رأسه معفر بالتراب والرماد وجسمه مدهون بروت البقر.

وقال الفقير: «إن الأمر لا يحتمل التلكؤ، فاتبعني والبس مراقع الفقير.»

فشارت نفس أناندا على هذا، فقد تلقى عن بوذا الحكيم الوديع الاحتقار الذي يستحقه هذا التقشف الفظيع الذي يحيل المرء إلى ما يشبه الجيفة المرمّة. على أن الضرورة لم تدع له حيلة يحتالها، فتبع الفقير إلى مقبرة اختارها الفقير مسكنًا له. وهناك أخذ الفقير ينعي نعومة شعر أناندا وقصر أظافره، ثم دهنه على مثاله، وطلاه بالطين والكلس حتى صار الرسول الوديع لأرق دين، أشبه بنمر من نمور البنغال. ثم زين له جیده بعقد من جماجم الأطفال ووضع في إحدى يديه جمجمة شيرير، وفي الأخرى عظمة فخذ عرّاف، ومضى به بعد الغروب إلى المقبرة المجاورة حيث أجلسه على رماد جثة محروقة حديثة وأمره أن يقرع الجمجمة بالعظمة كما يفعل الطّبال، وأن يردد التعازيم التي بدأ يطلق الصوت صارخًا بها وهو متجه إلى الغرب. ويظهر أن هذه الرقى والتعازيم كانت فعّالة فقد ثار إعصار شنيع ونزل المطر كالسيل وأثخنت البروق الخاطفة بقلب السحب، وخرجت الذئاب والضباع من أوجرتها تعوي وترغو، وانشقت الأرض عن عفاريث ومردة تمد أذرعتها المعروقة إلى أناندا وتحاول أن تجرّه فأطار لبّه الفزعُ وراح يقلد صاحبه ويدق، ويضرب، ويصيح، حتى كاد يُشفي على التلف، وإذا بالرياح العاصفة تركد، والأشباح تختفي، بقدرة قادر، وتحل محلها

صيححات فرح، ودقات طبول ودفوف، وأصوات معازف،
تنبئ بحادث سار في المدينة.

وقال الفقير: «مات الملك العدو، وتفرق جيشه، وسيعزى
هذا إلى تعازيمك وهم الآن قادمون في طلبك. فوداعاً حتى
تفتقر إلى معونتي مرة أخرى.»

واختفى الفقير، ودنا الموكب، وأصبح دبّ الأقدام مسموعاً،
ثم ظهرت المشاعل الخافتة النور في الفجر المطلول، وترجل
الملك عن فيله وألقى وجهه على الأرض بين يدي أناندا
وقال: «أيها الرجل الفذ، لماذا لم تقل إنك فقير؟ لن يساورني
الخوف بعد اليوم من أعدائي ما دمت مقيماً بهذه المقبرة!»

وطردوا جماعة من أبناء آوى من قبر مهجور أفردوه لأناندا
ليسكنه. ولم يسمح الملك بأدنى تغيير في هيئته ولباسه،
وحرص على أن يخلو الطعام الذي يقدم له من كل ما
عسى أن يفقده القداسة التي بلغ مظهرها غاية ما يطمع
فيه الطامع في أقصر وقت، فتلبد شعره واختلط به الوحل،
وطالت أظافره، وإذا بزائر جديد من لدن الملك ينبئه أن
الراجا أصيب فجأة بمرض خطير خفي، وأن الملك على
يقين من أن أناندا سيخف إلى نجدته بالرقى والعزائم.

فتناول أناندا، عظمة الساقة والجمجمة، وهو كاره لذلك، وراح يقرع هذه بتلك، ويتتظر ما سيكون، ولكن العزيمة فقدت مزيتها على ما يظهر فما أخذت عينه سوى وطواط؛ فبدأ أناندا يحدث نفسه بأن الأحجى به أن يكف، وإذا برجل مديد القامة له سمت ووقار، وعليه ثياب سود، وفي يده صولجان، يبدو له ويقف إلى جانبه كأنها خرج من جوف الأرض.

وقال الرجل الغريب: «إن الرجل مهياً.»

فسأله أناندا: «أي رجل؟»

قال: «الذي سيُلقي بك فيه.»

قال أناندا: «أنا يُلقى بي في رجل؟ ولماذا؟»

قال الغريب: «لأن تعزيباتك عجزت عن إفادة جلالته. ولما كانت جدواها في مرة سابقة لا تسمح بأن يظن أحد بها العقم، فقد انتهت به الأمر إلى الاعتقاد بأن تأثيرها السيئ هو الذي ضاعف الألم الذي يعانيه. وقد عززت له رأيه ذهاباً مني إلى أنه من مصلحة العلم أن يحل غضب الملك بمشعوذ دجال مثلك لا بطبيب عالم حاذق مثلي. ومن أجل

ذلك أمر جلالته بأن توقد النار تحت الرجل الأكبر طول الليل، على أن يلقي بك في مائه عن الصباح ما لم تفده عزائمك قبل ذلك.»

فصاح أناندا: «يا إلهي! أين المفر؟»

فقال الطبيب: «إنه لا مهرب لك من هذه المقبرة ... فإن عليها نطاقاً من حرس الملك.»

فسأله أناندا: «إذن كيف السبيل إلى النجاة؟»

فقال الطبيب: «في هذه الزجاجة؛ إن فيها سمّاً زعافاً. فاطلب أن تشخص أمام الملك، وقل إنك تلقيت دواءً شافياً من أرواح خيرة، فيتجرعه ويموت ويجزيك خلفه خير جزاء.»

فصاح أناندا، وقد استشاط غضباً، ورمى الزجاجة: «اذهب عني أيها الشيطان الموسوس! إني أتحداك وأعوذ مرة أخرى بمنقذي ... جنو إمداب إنام موا.»

ولكن العزيمة لم تحدث أثراً، ولم يبد لعينيه مخلوق أو شبح سوى الطبيب الذي كان ينظر إليه نظرة الأسف والمرثية، وهو يضم طيلسانه، ويختفي في الظلام الشامل.

وبقي أناندا وحده يجادل نفسه، وقد هم مرات لا عداد لها أن ينادي الطبيب ويتوسل إليه أن يجيئه بزجاجة سم كالتي رماها، ولكنه كان كلما همّ بذلك شعر بشيء يصعد إلى حلقه ويجبس صوته، حتى أضناه الاضطراب، وأعياه فنام ورأى هذا الحلم.

رأى، فيما يرى النائم، أنه واقف عند مدخل «بتالا»؛ الشاسع المظلم، وكان هذا المكان الموحش يبدو كأنما فيه احتفال شيطاني، فقد كانت هناك جموع من الشياطين على كل صورة، ومن كل حجم، تتدافع في المدخل لتتنظر إلى ما خُيل إليه أنه زينة تقام، وكانت مئات من العفاريت والأمساخ تنظم المصابيح الملونة عقودًا وأكاليل، وهي تقفز، وتُصَوّضي، وتلجلج، وتقهقه، وتتدلّى من أذنانها وتتطوح في الهواء، كالقردة، وكان العمل يديره من تحت هؤلاء، شياطين كبار عليهم سمت ولهم أبهة، وفي أيديهم صولجانات تدل على منازلهم ومراتبهم يشع من أطرافها هبّ أصفر كانوا يلسعون به أذنان العفاريت إذا رأوا أن النظام يوجب ذلك. فلم يستطع أناندا أن يكبح نفسه عن السؤال عن الداعي إلى هذه الاستعدادات للاحتفال.

فقال الشيطان الذي تلقى سؤاله: «هذا احتفال بتكريم أناندا الورع، أحد رسل الرب بوذا ونحن ننتظر حضوره بيننا بلهفة وارتياح.»

وبعد جهد شديد استطاع أناندا المرتاع أن يجمع قواه الخائرة، ويسأل لماذا يجب أن يتخذ الرسول المذكور — يعني نفسه — مقامه في مناطق الجحيم؟

فقال الشيطان المسئول بإيجاز: «من أجل السم.»

فهمّ أناندا أن يطلب منه الإيضاح، ولكنه شُغل بجadal عنيف بين اثنين من الشياطين المشرفة على العمل.

وكان أحدهما يقول: «كاموراجا، بالطبع.»

فيقول الثاني: «بل دامبورانانا ولا شك.»

فالتفت أناندا إلى الشيطان الذي كان يكلمه وقال: «هل تسمح لي أن أستفسر عن كاموراجا ودامبورانانا، ما هما؟»

فقال الشيطان: «هما جحيمان، ففي كاموراجا يغمس النازل في القار المذاب ويطعم الرصاص المصهور، وأما في دامبورانانا، فهو يغمس في الرصاص المصهور ويطعم ذوب القار، وزميلاي هذان اللذان تسمعهما يتحاوران، يتجادلان في أي الجحيمين أولى بخطايا ضيفنا أناندا.»

وقبل أن يتدبر أنا ندا هذا النبأ انحدر عفريت شاب من فوق، براءة وخفة، وتقدم من الشياطين اللذين يتجادلان وانحنى لهما وقال: «أيها الشيطانان الجليلان، هل تسمحان لعفريت ضئيل الشأن أن يقول إن كل تكريم مهما عظم، دون ما يجب لضيفنا أنا ندا إذ كان هو الوحيد الذي يحتمل أن نحظى بعشرته من بين رسل بوذا أجمعين؟ لهذا أجتري على القول بأنه لا جحيم كامورا جا تصلح مقاماً له، ولا جحيم دامبورانا تليق به، بل يجب أن تُجمع محاسن كل جحيم من الأربع والأربعين ألفاً والمائتي ألف، وأن تُحشد جميعاً في جحيم واحدة جديدة تقام لاستقباله خاصة.»

فتعجبت الشياطين الكبار لذكاء العفريت الصغير وقالوا: «أما إنك لعفريت صغير ممتاز حقاً؟» ثم انصرفوا ليعدوا الجحيم الجديدة ويجهزوها بما يليق بمقام الضيف الكريم.

واستيقظ أنا ندا وهو يرعد من الفزع ويصيح: «لماذا كنت رسولاً؟ إيه يا بوذا! ما أوعر طريق الهدى والقداسة! وما أسهل أن يعثر المرء ويضل وإن حسنت نيته! وما أسخف الزهو وأحق صاحبه!»

فناداه صوت عذب رقيق: «أو أدركت هذا يا بني؟»

فأدار وجهه فألقى أمامه بوذا في هالة من النور اللين،
وخُيل إليه أن سحابة تقشعت عن عينه، فأدرك أن مولاه
هو الروح، والفقير، والطبيب جميعاً، وأنه كان يتراءى له في
هذه الصور المختلفة.

فقال وهو شديد الاضطراب: «أيها المعلم المقدس، إلى أين
أذهب؟ إن خطاياي تنهاني عن الدنو منك.»

فقال بوذا: «إن خطاياك ليست هي التي تصدك عن الاقتراب
مني يا بني، بل ما ورطك فيه العصيان والشعوذة، وقد
ظهرتُ لك لأذكرك بأن رسلي يجتمعون اليوم على جبل
فنديا ليؤدوا الحساب عن رسالتهم، وأنا أسألك هل أؤدي
عنك الحساب أو تؤديه أنت بنفسك؟»

فقال أناندا: «بل أؤديه أنا بنفسي، ومن العدل والحق أن
أحتمل ذلة الاعتراف بحماقتي وطيشتي.»

فقال بوذا: «أحسن يا بني، ولهذا أسمح لك أن تنضوي
عنك مراقع الفقير، وأن تظهر في الاجتماع في الطيلسان الأصفر
الذي هو رداء الرسل. بل إنني لأتجاوز عن بعض قواعدي،
لأجلك، وفي سبيلك، وآتي بمعجزة غير هينة فأنقلك الآن إلى
قمة الجبل حيث بدأ الرسل يفدون. ذلك أنك، بغير ذلك،

تعرض لبوار محقق وهلاك مؤكد فيمزقك الجمهور المقرب
الذي شرع يقتلع ديانتني بإيعاز الملك الجديد تلميذك المرجو
الغد. فقد مات الملك الهرم، سمه البراهمة!»

فبكى أناندا، بأربع، وجعل يقول وهو ينتحب: «مولاي!
مولاي! وهل ضاع كل شيء؟ بخطئي، وهاقتي؟»

فقال بوذا: «إن ما بينى على الغش والدجل لا بقاء له ولا
ثبات، وهذا هو الحق، ولا تحزن، فستدعو إلى ديني، وتوفق،
في بلاد أخرى. إن الحساب الذي ستؤديه عن رسالتك
حسابٌ سوء، ولكنك تستطيع أن تقول، وأنت صادق، إنك
أطعت أمري مبني لا معنى، فما يسع أحداً أن يزعم أنك
أتيت بأية معجزة.»

هوامش

(١) بطحه ألقاه على وجهه.

(٢) عزيمة البوذيين، وهي هنا مقلوبة.

(٣) ما يأخذ به الحداد الحديد المحمي.

(٤) مجمع الشياطين.

فرنسيس برت هارت في نطاق من الجمد

لما خرج المستر جون أوكهيرست — المقامر — إلى السكة الرئيسية في «بوكرفلات» صباح اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٨٥٠ أحس أن جو اليوم غير جو الليلة البارحة، فقد كان هناك اثنان أو ثلاثة يتحادثون، ورءوسهم متدانية، فلما اقترب منهم أمسكوا عن الكلام وتغامزوا وتبادلوا نظرات لا تخلو من دلالة. وكان في الجو هجعة كهجعة «السبت» وهي في حلة لم تألف فتور السبت، لا تكون إلا نذيرًا.

ولم يبد على محياه الوسيم الساكن قلق من جرّاء هذه النذر.

أما أنه كان يدرك البواعث على هذا التغيير، فشيء آخر. وقال يناجي نفسه: «أحسبهم يطلبون واحداً. وعسى أن أكون أنا المطلوب.» وردّ إلى جيبه المنديل الذي كان ينفذ به التراب عن حذائيه النظيفين، وأعفى نفسه من عناء التخمين.

والواقع أن حلة «بوكر فلات» كانت «تطلب واحداً» فقد مُنيت أخيراً بخسارة عدة آلاف من الريالات، وحصانين عتيدين، ورجل من أبرز رجالها، فغضبت لهذا، وانتابتها نوبة فضيلة، وثارت نفوسها ثورة جامحة جائحة كالأعمال التي استفزتها وأخرجتها عن طورها. واعتزمت لجنة سرية أن تطهر الحلة من الطّغام والردّال وغير الصالحين. وقد طهرتها على وجه حاسم من رجلين كانا حينئذ معلقين من جُمرة في بطن الوادي، ومن آخرين لا ترضى سجاياهم، بالنفي. ويؤسفني أن أقول إن بين هؤلاء المنفيين نساءً. على أن واجب الإنصاف لهذا الجنس يقتضي أن نذكر أن هؤلاء كن محترفات لما أثار السخط عليهن، وأن حلة «بوكر فلات» ما اجترأت على القعود مقعد الحكم إلا على هؤلاء.

وقد أصاب المستر أوكهيرست في اعتقاده أنه داخل في هذه الزمرة. وقد ذهب بعض أعضاء اللجنة إلى وجوب شنقه ليعتبر بمصيره غيره، وليستردوا ما غنمه من الماهم في القمار.

وقال جيم ويلو في الاحتجاج لذلك: «إنه ليس من العدل أن نسمح لهذا الشاب الذي جاء من «رورن كامب» — فهو غريب — أن يحمل مالنا ويمضي به.» ولكن الشعور بالعدل في نفوس الذين كتب لهم حسن الحظ أن يربحوا من المستر أوكهيرست تغلب على هذا الهوى والجنف.

وتلقى المستر أوكهيرست الحكم عليه بمثل سكية الفيلسوف، وخاصة لأنه كان يدرك ما يخالج قضاته من التردد. وقد علمه القمار أن يتقبل ما تجيء به المقادير. ولم تكن حياته إلا لعبة مجهولة العواقب، وما كان يخفى عليه مقدار حظ الموكل بالتوزيع.

ورافقت المنفيين سرية من المسلحين إلى ما وراء حدود الحلة، وكان هناك غير المستر أوكهيرست — الذي كان مشهورًا بأنه مجازف رابط الجأش، والذي أريد إرهابه بهذا الحرس المسلح — امرأة في مقتبل العمر يطلقون عليها اسم «الدوقة» وأخرى تعرف باسم «الأم شبتون» ثم «العم بيلي» وهو سكير مدمن متهم باللصوصية. ولم يثر مرور الركب أية ملاحظة من النظارة، ولا نطق الحرس بكلمة، إلا بعد أن بلغوا بطن الوادي الذي لا تتجاوزه حدود الحلة، فقد تكلم الرئيس بإيجاز وأنذرهم الموت إذا عادوا.

وما كاد الحرس يغيب عن النظر حتى انطلق ما كان محبوباً من المشاعر فذرفت الدوقة بضغ عبرات، وأجرت الأم شبتون لسانها ببضع شتمات، وأطلق العم بيللي سيلاً من اللعنات. أما أوكهيرست الفيلسوف فقد لزم الصمت، وكان يصغي وهو وادع ساكن إلى ما تعرب عنه الأم شبتون من الرغبة في جزّ بعض الرقاب، وإلى ما أبدأت فيه الدوقة وأعادت، من أنها ستموت في بعض الطريق لا محالة، وإلى اللعنات الحرار التي كانت تخرج من فم العم بيللي وهو راكب وكأنها تُطرد من جوفه طرداً، وقد آثر أوكهيرست المساناة على عادة أمثاله، فأصر على أن يترك جواده للدوقة ويركب هو بغلها البليد، على أن هذه المجاملة لم تجعل الجماعة أشد تعاطفاً وأوثق مودة، فعدلت الدوقة قبعتهما المريشة القذرة بدلال فاتر، ورمت الأم شبتون الجواد بالنظر الشذر، وصب العم بيللي على الجماعة كلها لعنة شاملة.

وكان الطريق إلى «ساندي بار» — وهي حلة لم تمتد إليها عوامل الصلاح من بوكرفلات، فثم أمل في أن يأوي إليها المهاجرون — على جبال وعرة منقاداة في الأرض، والمسافة إليها سفر يوم لا هوادة فيه، وما لبث القوم أن جاوزوا الوادي الرطب المعتدل الجو إلى الجبال الجافة الباردة المنعشة الهواء، وكان طريقهم في الجبل ضيقاً كالأنبوب، ووعراً صعب المرتقى. ولما انتصف النهار تدرجت الدوقة عن سرجهما إلى الأرض وأعلنت أنها لن تتقل من مكانها، فألقى الجماعة عصا التسيار.

وكان المكان الذي وقفوا فيه موحشًا إلا أنه رائع، فقد كان عبارة عن مدرج من الشجر تحيط به من جهات ثلاث صخور وعرة من الصوان العاري، وينحدر في رفق ولين إلى ذروة نجوة مشرفة على الوادي، وكان هذا بلا شك أصلح مكان للإقامة لو كان ذلك من سداد الرأي. غير أن المستر أوكهيرست كان يعلم أنهم ما قطعوا نصف المسافة إلى «ساندي بار» وأنه ليس معهم من المئونة والعدة ما يسمح بالتلكؤ، وقد نبه رفقاءه إلى هذا بإيجاز وبين لهم خطل الكف عن مواصلة «اللعب» قبل الفراغ منه ولكنه كان معهم خمر، وقد نابت الخمر عندهم في ذلك الموقف مناب الطعام والوقود والراحة والعقل وبعد النظر. ولم يمض غير قليل حتى كان الشراب قد فعل فعله على الرغم من اعتراض أوكهيرست وتحذيره. وانتقل العم بيلي بسرعة من حالة الشراسة إلى حالة الخمود. وأخذ الشراب في الدوقة فأصابها منه فتار، وعلا شخير الأم شبتون. وبقي المستر أوكهيرست وحده معتدل القامة يتكئ على صخرة ويلحظهم بعينه في سكون.

وكان المستر أوكهيرست لا يشرب، لأن الشراب يفسد حرفة تتطلب الاتزان وضبط النفس وحضور الذهن، وكان على قوله لا تسمح له الحال بالمخاطرة بالشراب. وبينما كان ينظر إلى هؤلاء الرقود من رفقائه المنفيين ثقلت على نفسه، لأول مرة، وطأة الشعور بالوحدة والوحشة الناجمتين

من حرفة المنبوذين، ومن عادات حياته، وأساليب عيشه، ونقائصه. فجعل يتلهّى بنفض التراب عن ثيابه السود، وغسل يديه ووجهه، وغير ذلك مما اقتضته خصائص طباعه وشدة حرصه على النظافة وحسن السمات، فنسي شُكَّه لحظة. ولم يخطر له أن يهجر رفاقه الضعاف الجديرين بالمرثية أو يخذلهم في محتهم، إلا أنه لم يسعه إلا أن يشعر بالحاجة إلى القمار الذي يثير نفسه وبيعها والذي كان — ويا للغرابة — يفضي به إلى السكينة واعتدال المزاج اللذين اشتهر بهما. ومد بصره إلى الصخور التي تذهب في الهواء ألف قدم فوق أشجار الصنوبر المحيطة بالمكان، وصعد طرفه إلى السماء المكفّهرة المنذرة الرُكام، ثم صوبه إلى الوادي الذي تتكاثف فيه الظلال، وإذا به يسمع اسمه بغتة.

ونظر فإذا فارس يرتقي في الطريق ببطء، فعرف وجهه الصابح الصريح «توم سيمون» الذي يسمونه «الغريز» في «ساندي بار» وكان قد لقيه قبل بضعة شهور وقامره فقمرة، وسلب من هذا الفتى الغريز كل ما يملك — حوالي أربعين ريالاً — وبعد أن نهضا عن المائدة مضى به المستر أوكهيرست إلى ما وراء الباب وقال له: «توم، إنك فتى طيب، ولكنك لا تحسن القمار، ولا أمل لك في حذقه، فلا تحاول ذلك مرة أخرى.» ورد إليه ما ناله، ودفعه فأخرجه من الغرفة، فصار توم سيمون لهذا عبداً مخلصاً له مدى الحياة.

وكان في الحماسة والطلاقة الصبانية التي يحیی بها المستر أوكهيرست ما یثی بذکر هذا الجمیل، وقال إنه أراد أن یذهب إلى «بوكر فلات» التماسا للشراء فسأله أوكهيرست: «وحدك؟» فقال الفتی: «لا. لا أعد وحدي. الواقع (وضحك) أني فررت مع «بیني وودز». ألا تعرفها يا مستر أوكهيرست؟ تلك التي كانت تقوم بالخدمة على المائدة في «تبرنس هوس». وقد ظللنا خطیبین زمنا طویلا، ولكن أباهما جاك وودز اعترض ففررنا، وكانت وجهتنا بوكر فلات لتزوج. وهما نحن أولاء قد صرنا هنا! وإنا لمتعبون، وإنه لمن الحظ أن قد وجدنا هذا المكان وهذه الرفقة!»

أفضی «الغریر» بهذا كله بسرعة، ثم برزت «بیني» — وهي فتاة وسیمة بدینة في الخامسة عشر من عمرها — من وراء الشجرة حيث كان وجهها لا یرى أحد اضطراره من الخجل، ودنت بجوادها فحاذت حبیبها.

وكان المستر أوكهيرست قلما یعنی نفسه بالعواطف الإنسانية، أو بما یلیق وما لا یلیق، وما یجب، وما لا یجب، ولكن إحساسا غامضا شاع في نفسه بأن الموقف خال مما یسمى حسن الحظ، على أنه كان له من حضور الذهن وسرعة الخاطر ما یكفی لإلهامه أن یرفس العم بیلي الذي كان یهم بكلام، وكان في العم بیلي بقیة من الإدراك تجعله

يفطن إلى ما وراء هذه الرفسة من القوة التي لا تحتمل العبث ولا تصبر عليه. ثم حاول المستر أوكهيرست، عبثاً، أن يثني توم سيمون عما عزم عليه. ثم أنبأه أنه لا مئونة هناك ولا مأوى ولا وسيلة لمأوى. ولكن الغرير، لسوء الحظ، قابل هذا بأن أكد للقوم أن معه بغلاً مثقلاً بالزاد، وبأن أشار إلى كوخ من الخشب قريب من الطريق. وقال الغرير، وهو يومئ إلى الدوقة: «يُبنى تستطيع أن تكون مع السيدة (المسز) أوكهيرست. أما أنا فأستطيع أن أدبر أمري.»

ولولا ضغطة زاجرة من قدم المستر أوكهيرست لانفجر العم بيللي ضاحكاً مجلجلاً. وعلى أنه، على الرغم من هذا الانتهاز، لم يستطع أن يكبح الضحك، فاضطر أن ينهض ويمضي إلى مجرى الوادي حتى يستعيد ضبط أعصابه. وهناك أفضى ببواعث الضحك إلى أشجار الصنوبر وهو يقرع ساقه بكفيه وينحني بوجهه المغضن، ولا ينسى بذاءاته المألوفة. ولما عاد إلى القوم ألفاهم جلوساً حول نار، فقد صار البرد قارساً، وغلظ السحاب وتراكب. وكان الحديث على ما يبدو له ودياً، وكانت بيني تتحدث على طريقتها الصبانية الفطرية إلى الدوقة التي كانت تصغي بعناية واهتمام لم تظهر مثلها في أيام كثيرة. وكان الغرير يتحدث على هذا النحو أيضاً إلى المستر أوكهيرست والأم شبتون، فيُحدث في نفسها مثل ذلك الأثر، حتى لقد ثابت إلى الأم شبتون نفسها فتطلّق وجهها. وقال العم بيللي، عن احتقار كامن، وهو

يتأمل الجمع والنار المشبوبة والدواب المشكولة: «أترى هذه نزهة؟» ثم كأنها طافت برأسه المضطرب المخمور فكرة مغرية بالضحك فقد قرع ساقه بكفه ودس قبضته في فمه.

وارتمت الظلال شيئاً فشيئاً على الجبل، فهب النسيم بأشجار الصنوبر فحرك رءوسها وناح بين أغصانها. وأفرد الكوخ للسيدات بعد أن رمّوه وغطوه بأغصان الصنوبر، وافترق الحبيبان — الغرير وصاحبته — فتبادلا قبلة لا تكلف فيها — قبلة صريحة مخلصة من الممكن أن يُسمع صوتها فوق حفيف الشجر المترنّح ... قبلة أذهلت بما كشفت عنه من غرارة النفس وطهارة القلب، الدوقة الخوّارة، والألم شبتون اللثيمة، فدارتا ودخلتا الكوخ بلا كلام. وألقي الخطب في النار، وورقد الرجال أمام الباب، وما لبثوا أن ناموا.

وكان المستر أوكهيرست خفيف النوم، فقبل أن ينبلج الصبح استيقظ مقروراً، وبجسمه خدر، وحرك النار المشفية على الخمود، فحملت الريح القوية إلى وجهه ما امتص الدم منه؛ الثلج!

فوثب إلى قدميه وفي عزمه أن يوقظ النائمين، فما بقي وقت يُضاع. والتفت إلى حيث كان العم ييلي مستلقياً فلم يجده، فاختلف الشك في صدره، وجرى لسانه بلعنة، وذهب يعدو

إلى حيث كانت الدواب مربوطة فلم يجدوها! وكان الثلج المتساقط يطمس الآثار بسرعة.

ورجع المستر أوكهيرست، بعد هذا الاضطراب الوقتي، وهو ساكن كعادته. ولم يوقظ النائمين. وكان الغريرينام نومًا هادئًا وعلى محياه ابتسامة، وكانت بيني العذراء راقدة إلى جانب صاحبتيها الطامحتي الطرف، وكأن عليها من الأملاك حفظةً أمناء. وسحب المستر أوكهيرست غطاءه على كتفيه وراح ينتظر انبثاق الفجر، فطلع ومعه رَهَج من الثلج تَسْفِرُه الريح، فيزوغ البصر. وتغير ما كان بادياً من وجه الأرض كأنما مرت عليه عصا ساحر، فنظر إلى الوادي ولخص الحاضر والمستقبل في أربع كلمات «في نطاق من الجَمَد.»

ودلَّ الفحص الدقيق للزاد الموجود — وكان لحسن الحظ موضوعاً في الكوخ، فنجاً من العم بيللي — على أنه مع الحرص والحكمة يكفي عشرة أيام. وقال المستر أوكهيرست للغرير: «هذا إذا كنت ترضى أن تضيفنا وتطعمنا، أما إذا آبيت — وخير لك أن تأبى — فإن في وسعك أن تنتظر حتى يعود العم بيللي بالمثونة.» فقد عجز المستر أوكهيرست لسبب خفي أن يفضح العم بيللي ويظهر نذالته، ولهذا زعم أن العم بيللي خرج فنفر الدواب عفواً، وحذر الدوقة والأم شبتون،

وكانتا قد عرفتا الحقيقة. وقال لهما: «سيعرفان حقيقة أمرنا جميعًا، متى عرفا شيئًا. ولا خير في إرعاها الآن!»

ولم يكتف توم سيمون بأن يجعل كل ما معه من زاد ومثونة رهن مشيئة المستر أوكهيرست، بل أظهر السرور والاستمتاع بهذه العزلة الاضطرارية، وراح يقول: «سنبقى أسبوعًا، ثم يذوب الثلج، فنعود جميعًا معًا.» وأعدت القوم بشاشة الشاب وسكينة المستر أوكهيرست. واستطاع الغرير، بفضل أفرع الصنوبر أن يصنع سقفًا للكوخ، وتولت الدوقة إرشاد بيني في ترتيب الحجرة، وأظهرت في ذلك من الذوق والفطنة ما فتح عيني هذه الغادة الريفية الساذجة، فقالت: «أحسبك ألفت في حياتك مناعم العيش في بوكرفلات.» فأدارت الدوقة وجهها بسرعة، لتخفي الدم القاني الذي صبغ وجهها تحت دهانه المألوف. وتقدمت الأم شبتون إلى الفتاة بالرجاء أن لا «تثرثر» ولما عاد المستر أوكهيرست بعد طول الكد والعناء في البحث عن الطريق الذي ضاع أثره، سمع أصوات الضحك ترجعه الصخور المتجاوبة به، فوقف وقد ارتاع، ووثب به الخاطر أولًا إلى الويسكي الذي حرص على أن يخبئه، ولكنه عاد فقال: «ولكن هذه الأصوات ليست من فعل الويسكي.» ولم يطمئن قلبه إلا بعد أن أبصر النار المستعرة من خلال العاصفة الثائرة، ورأى الجالسين حولها.

ولا أعلم هل خبأ المستر أوكهيرست، أو أهمل أن يخبئ أوراق اللعب أيضًا، حتى لا يجعلها في متناول الجماعة، ولكن المحقق أنه — كما قالت الأم شبتون — لم يجر لسانه بذكر الورق ولا مرة واحدة في تلك الليلة، وزُجي الفراغ بقيشارة أخرجها توم سيمون من أحرازه وهو مباه بها. واستطاعت بيني على الرغم من بعض الصعوبات أن تخرج من هذه الآلة بعض الأصوات، وكان الغرير يصحبها بصنجنين يضرب أحدهما على الآخر، غير أن هذه الحفلة لم تبلغ ذروتها إلا حين رفع الحبيبان الصوت عاليًا بنشيد ديني ساذج، ويدهما متشابكتان. وأعدّيا غيرهما، فانضموا إليهما وأنشدوا معهما: «إني فخور بأن أحياء في خدمة الرب، وأن أموت في جيشه.»

وتمايلت أشجار الصنوبر، وهاجت العاصفة، وزفرفت الرياح، ودارت فوق هؤلاء التعساء، ووثبت ألسنة النار في هذا «المعبد» نحو السماء كأنها شهود على هذا العهد.

وخفت العاصفة حوالى منتصف الليل، وتفرقت السحب المتراكمة، وتلاحمت النجوم الخفاقة للمعان فوق النوام. وكان المستر أوكهيرست قد تركته عادات حرفته (القمار) قليل النوم خفيفه، فلما اقتسم مع توم سيمون واجب الحراسة، استطاع بطريقةٍ ما، أن يختص نفسه بالنصيب الأوفر منها، وكان مما أقنع به الغرير قوله إنه كثيرًا ما

كان يقضي أسبوعاً كاملاً بلا نوم، فسأله توم: «وماذا كنت تصنع؟» فقال أوكهيرست: «ألعب البوكر ... متى وقع المرء على حظه فإن التعب لا يعتوره ... وما أقوى الحظ وأعجب حاله! كل ما نعرفه عنه على وجه التحقيق هو أنه لا بد أن يتغير ويتقلب، وإدراك المرء أن الحظ يوشك أن يتحول هو الذي يسعده. ولقد وقعنا على حظ سيئ بعد أن غادرنا بوكر فلات، وإذا بك تجيء وتقع معنا! وأنت بخير ما وسعك أن تصبر لأني (قال المقامر هذا بلا مناسبة؛ ولكنه كان واضح البشر) لأني فخور بأن أحيأ في خدمة الرب، وأن أموت في جيشه.»

وطلع اليوم الثالث، وأطلت الشمس من خلال الغمام الأبيض، على الطُرداء وهم يقتسمون بعض ما بقي من زادهم المتناقص، لطعام الإفطار، وكان من خصائص هذا الإقليم الجبلي أن أشعة الشمس تنشر فيه الدفء على وجوهه الشاتية، كأنما تعرب بذلك عن عطفها وأسفها لما مضى وفات، ولكنها كشفت عن طبقة فوقها طبقة من الثلج المتركب المتعالي حول الكوخ، عن بحر مجهول لا طريق فيه، ولا درب له، ولا أمل لسالكه، من الثلج المتراكم تحت الشيطان الصخرية التي يتعلق بها هؤلاء المقذوف بهم عليها. وكان الجو عجيبيًا في صفائه، حتى لكانوا يرون الدخان المتصاعد من حلة بوكر فلات على مسافة أميال وأميال، وقد رآته الأم شبتون فقدفت الحلة، من ذروة

معقلها الصخري، بلعنة أخيرة. وكانت هذه آخر بذاءاتها، ولعلها لهذا السبب كانت على حظ من الجلال. وقد أخبرت الدوقة أن هذه اللعنة التي أطلقتها نفعتها وشفّت نفسها، ودعتها أن تحذو حذوها قائلة: «اخرجي إلى هناك، والعني، ثم انظري.» ثم رجعت إلى واجب تسليّة «الطفلة» كما كانت هي والدوقة تسميان الفتاة «بيني»، ولم تكن بيني ضعيفة، ولكنه كان يسرّ هاتين المرأتين أن تعدّاهما كذلك، لأنها كانت لا بذيةً صحّابة، ولا عسوّاً فاجرة.

وأقبل الليل مرة أخرى، فعادت ألحان القيثارة تعلو وتهبط متقطعة، وبعد فترات طويلة، حول النار الموقدة، غير أن أصوات الموسيقى لم تستطع أن تملأ الفراغ الوجيع الذي أحدثته قلة الكفاية في الطعام، فاقترحت بيني ملهاة جديدة هي أن يقص كل واحد قصته. ولم يكن لا المستر أو كهيرست ولا رفيقته على استعداد لذكر شيء من سيرهم أو تجاربهم الشخصية، فكاد الاقتراح يخبط، لولا الغرير، فقد عثر قبل بضعة شهور على نسخة من ترجمة المستر بوب (الشاعر) لإلياذة هومر، فرأى أن يقص حوادثها الكبرى باللهجة الدارجة في حلة ساندي بار، فقد نسي عبارة الشاعر وألفاظه، وإن كانت الحوادث منقوشة على صدره. وهكذا عاد أبطال هومر وأربابه فمشوا على الأرض مرة أخرى في تلك الليلة، وكان زفيف الريح كأنها يمثل صراع الطرواديين الصخابين، والأغارقة الماكريين، وكأنها كانت أشجار الصنوبر العظيمة تنحني أمام غضب ابن بلياس.

وكان المستر أوكهيرست ينصت وهو راض ساكن، وقد اهتم على الخصوص بمصير أخيل.

وهكذا — بقليل من الطعام، وكثير من هومر والقيثارة — انقضى أسبوع على هؤلاء الطرداء. وخذلتهم الشمس مرة أخرى، فاحتجبت عنهم، وألقت السماء المدجنة، رقائق من الثلج المنخول، على الأرض. وأخذ نطاق الثلج يزداد كل يوم ضيقاً حتى صاروا ينظرون من سجنهم إلى جدران من الجليد اللامع، ترتفع مقدار عشرين قدماً فوق رؤوسهم. وتعذر شيئاً فشيئاً تقوية النار بإلقاء الحطب عليها حتى من الأشجار المنقصفة القريبة التي اختفى نصفها في الجمد. ومع ذلك لم يشكّ منهم أحد، فكان الحبيبان ينصرفان بوجهيهما عن هذا المنظر الجهم، وينظر كل منهما في عين صاحبه فيسعد، ووطن المستر أوكهيرست نفسه على السكون إلى هذه اللعبة الخاسرة، وتولت الدوقة التي صارت أكثر بشاشة وطلاقة مما كانت من قبل، العناية ببيني، أما الأم شبتون التي كانت أقوى الجميع، فقد بدأت تفتّر، وتعتل، وتدنف، وفي منتصف ليلة اليوم العاشر دعت المستر أوكهيرست إلى جانبها، وقالت له بصوت الساخط على الضعف: «سأقضي نحبي، ولكن لا تقل شيئاً، ولا توقظ الطفلين، وخذ الحزمة التي تحت رأسي وافتحها.» ففعل المستر أوكهيرست كما أمرت، فألقى نصيبها من الزاد طول الأسبوع، لم تمسه يدها. وقالت، وهي تومئ إلى بيني: «أعطه للطفلة.» فقال

المقامر: «لقد أمتّ نفسك من الجوع.» فقالت المرأة بضجر: «كذلك يقولون.» واستلقت، ثم أدارت وجهها إلى الحائط، ولفظت النفس الأخير في سلام.

وأهملت القيشارة والصنج في ذلك اليوم، ونُسي هومر، وبعد أن دفنوا رفات الأم شبتون في الثلج، انتحى المستر أوكهيرست بالغيرير ناحية وأراه حذاءين للسير على الثلج صنعهما من سرج قديم، وقال: «هناك فرصة — واحد في المائة — لإنقاذها.» وأشار إلى بيني، ثم إلى ناحية بوكرفلات وقال: «إذا استطعت أن تصل إلى هناك في يومين، فإنها تنجو.»

فسأله توم سيمون: «وأنت؟»

فكان الجواب الموجز: «سأبقى هنا.»

وافترق الحبيبان بعد عناق طويل، ونظرت الدوقة إلى المستر أوكهيرست، فخیل إليها أنه ينتظر ليصحب توم، فسألت: «أأنت ذاهب كذلك؟» فقال: «إلى مجرى الوادي فقط.» والتفت إليها فجأة، وقبلها، وترك وجهها الشاحب مضطرباً، وأعضاءها المضطربة متصلة من فرط الدهول.

وجاء الليل، ولكن المستر أوكهيرست لم يحمى، وثار العاصفة مرة أخرى، وراحت الرياح الدائرة تلقي الثلج، وأججت الدوقة النار، ووجدت أن بعضهم ترك إلى جانبها

كوماً من الخطب يكفي بضعة أيام؛ فاغرو رقت عينها بالدموع، ولكنها أخفتها عن بيني.

وصارت الفتاة والدوقة لا تنامان إلا غراراً. ولما أصبح الصباح قرأت كل منهما مصيرها في وجه صاحبتها. ولم تنطق إحداها بكلمة، ولكن بيني نحلت نفسها حق الذي هو أقوى، فذنت من الدوقة، وأحاطت خصرها بذراعها، وظلتا هكذا بقية النهار. وبلغت العاصفة في تلك الليلة أعنف ثوراتها. فمزقت أشجار الصنوبر التي كانت كالوقاء للكوخ، واقتحمته عليهما.

وقبيل الصباح وجدتا أنهما عاجزتان عن تقوية النار، فما لبثت أن خمدت، وبينما كانت الجمرات تسودّ، والدُّكوات تهمد اقتربت الدوقة من بيني، وخرجت من الصمت الذي ظل ساعات، وقالت: «بينى، هل تستطيعين أن تصلي؟» فقالت بيني ببساطة: «كلا، يا عزيزتي.» فأحست الدوقة لسبب ما، أن عبئاً انحط عن صدرها، وأراحت رأسها على كتف بيني، ولم تقل شيئاً بعد ذلك، وغلبها النوم وهما على هذا الحال، صغراهما وأطهرهما، تحمل على صدرها البكر العفّ، رأس رفيقتها الملوثة.

وهدأت الريح، كأنها أشفقت أن توقظهما. ونفضت أغصان الصنوبر الطويلة ثلجها، فطار كالريش، وخفق كالحمام

البيضاء، ثم هبط عليهما وهما نائمتان. وأطل القمر من خلل السحاب الممزق على المكان. ولكن كل لوثة، كل أثر من آثار الجهد والكد على الأرض، انطوى تحت هذا الستر الناصع النقي الذي ألقته رحمة السماء!

ونامتا طول ذلك اليوم، واليوم التالي، ولم تستيقظا لما عصفت أصوات القادمين بالسكون. وامتدت الأصابع الرحيمة، فنحت الثلج عن الوجهين، غير أنه ما كان يسع أحداً أن يقول، وهو ينظر إليهما، أيهما كانت المخطئة، حتى أهل بوكرفلات، بقانونهم الصارم، أدركوا هذا، فمضوا عنهما وتركوهما في عناقهما. ولكنهم، على رأس الوادي، وعند شجرة من أضخم أشجار الصنوبر، وجدوا ورقة من أوراق اللعب مسّرة إلى الجذع بمدية، وعليها ما يأتي، مكتوباً بالقلم الرصاص، ويبدّ ثابتة:

تحت هذه الشجرة يرقد جثمان جون أوكهيرست الذي عثر به الحظ في الثالث والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٨٥٠ وقد أسلم أمره لقضاء الحظ فيه في السابع من ديسمبر/ كانون الأول سنة ١٨٥٠.

ووجدوا هذا الذي كان أقوى المنفيين من بوكرفلات، وأضعفهم في آن معاً، راقداً تحت الثلج، وقد انقطع النبض وابترد الجسم، وإلى جانبه مسدس، وفي قلبه رصاصة!

هنري جيمس أربع مقابلات

رأيتها أربع مرات، ليس إلا. ولكنني أتذكرها كأوضح ما تكون؛ فقد وقعت من نفسي وأعجبني طلاوتها وحسنها، وعددتها نموذجا بارع الظرف لطراز بعينه. وقد أحزنني نعيها، ولكنني أعود فأفكر في الأمر، فلا يسعني إلا أن أتساءل: لماذا يؤسفني ذلك؟ إنها على التحقيق، لم تكن في آخر مرة لقيتها فيها، ولكنني سأصف مقابلاتنا على الترتيب.

١

كان أول لقاء لنا، في الريف، على الشاي في حفل صغير، في ليلة مثلوجة، ولا بد أن يكون ذلك منذ سبع عشرة سنة.

وكان صديقي «لاتوش» ذاهبًا لقضاء عيد الميلاد مع أمه، فعدعاني إلى مرافقته، واحتفت بنا هذه السيدة الطيبة وأرادت أن تكرمنا بهذه الحفلة التي أسلفت الإشارة إليها. وقد أفدتُ من هذه الرحلة متعة حقيقية، فما سبق لي أن أوغلت في «إنجلترا الجديدة» في مثل هذا الوقت. وكانت السماء قد ظلت تثلجنا طول النهار فارتفع ما ألقته على الأرض إلى الرُّكب، ووددت أن أعرف كيف وصل السيدات إلى البيت.

وسألتني السيدة لاتوش عن الصور الشمسية وهل أستحسن أن أعرضها على الفتيات؟ وكانت هذه الصور في محفظتين كبيرتين جاء بهما ابنها الذي عاد مثلي من أوروبا في الأيام الأخيرة. فأدرت عيني في الجمع، فلاحظت أن أكثر الفتيات يشغلن ما هو أحق بأن يستغرقهن من أية صورة شمسية مهما بلغ من دقتها وإحكامها ووضوحها. ولكن كانت هناك واحدة واقفة على مقربة من الصِّفة وهي تجيل عينها في الحجرة، وعلى شفيتها ابتسامة رقيقة لا توائم، فيما بدالي، العزلة التي آثرتها. فنظرت إليها مليًا ثم قلت: «إني أحب أن أعرض الصور على هذه الأنسة.»

فقالت السيدة لاتوش: «أي نعم. لقد وُفقت في اختيارك فإنها رزان. لا تعبأ شيئًا بالمغازلة. سأكلمها.»

فأجبت بأنها لا تكون طلبتي إذا كانت لا تميل إلى المغازلة،

ولكن السيدة لاتوش كانت قد ذهبت لتعرض عليها الأمر.

وقالت، وقد عادت: «إنها مغتبطة. وهي طلبتك على التحقيق ... هادئة وذكية ...»

ثم أخبرتني أن اسمها الأنسة كارولين سبنسر، وقدمتني إليها وقامت بواجب التعريف.

ولم تكن الأنسة كارولين سبنسر بارعة الحسن، ولكنها كانت وضيئة رقراقة، ولا بد أن تكون قد ناهزت الثلاثين، غير أنها كانت غضة، ولها محيا الطفل، وكان رأسها دقيقاً جميلاً، وشعرها معقوصاً، على نحو ما يكون في تماثيل الإغريق، وإن كان من المشكوك فيه أن تكون قد رأت في حياتها تمثالاً إغريقياً. ووقع في روعي أنها «فنانة» على قدر ما تسمح جريمونتر بتشجيع الميول والنزعات الفنية. وكان في عينها لين، وفي نظرتها دهشة، وفي شفيتها رقة، ولأسنانها وضاءة وجمال. وكانت تلف جيدها بمنديل تجمع طرفيه بدبوس، رأسه من المرجان، وتحمل في يدها مروحة من القش المصفور يزينها شريط قان. وكان ثوبها القصير من الحرير الأسود. وكانت تتكلم برقة مع الضبط، وتفتح فمها الدقيق، وتفرج شفيتها الرقيقتين، فتكشف عن أسنانها البيضاء اللامعة، وقد بدا عليها السرور، بل التأثير، لرغبتني

في عرض الصور عليها. وقد تم ذلك بسهولة بعد أن أخرجت المحفظتين من مكانهما ووضعت كرسيين قريباً من مصباح. وكانت الصور رسوماً لأشياء أعرفها؛ مناظر من سويسرا، وإيطاليا وإسبانيا، ولقصور وصور وتماثيل شهيرة. وقد أدليت بما وسعني من الشرح، وكانت، وهي تصغي إليّ، وتنظر إلى الصور التي أرفعها لعينها، ساكنة لا تتحرك وطرف مروحتها على شفتها السفلى. وكانت ربما قالت برقة وأنا أرد إحدى الصور إلى مكانها: «هل رأيت هذا المكان؟» وكان جوابي في الأغلب والأعم أني رأيت مرات عديدة (فقد كنت كثير الأسفار) وكنت أحس بعد أن أقول ذلك أنها تلحظني بعينها الجميلتين. وقد سألتها في بداية الأمر: هل سافرت إلى أوروبا؟ فكان جوابها «لا، لا» وكان صوتها همساً خافتاً، كأنما تُسر إليّ شيئاً، ولكنها بعد ذلك لم تكد تقول شيئاً، وإن كانت لم تحول عينها عن الصور، حتى توهمت أنها ضجرت، فلما فرغنا من إحدى المحفظتين اقترحت أن أقصر عن عرض ما بقي، إذا كانت تؤثر ذلك. وشعرتُ أنها لم تسأم، ولكن صمتها حيرني، واشتيت أن أحملها على الكلام، فأدرت وجهي ونظرت إليها فرأيت على خديها احمراراً خفيفاً، وكانت تروّج على وجهها ولا تنظر إليّ، بل تحجج المحفظة الثانية المسندة إلى المنضدة.

وقالت بصوت فيه بعض التهديد والارتعاش: «ألا تريني ما في هذه؟» فكدت أعتقد أنها مضطربة، وقلت: «يسرني ذلك، إذا كنت لم تتعبى.»

قالت: «لا، لست متعبة. إني أحب ذلك.»

وتناولت المحفظة الثانية فأراحت كفها عليها ومسحتها برقة.

وسألتنى: «وهل سافرت إلى هذه البلاد أيضًا؟»

وفتحتُ المحفظة فتبين أني سافرت إلى هذه الأقطار، وكان من بين الصور الأولى منظر كبير لقصر شيلون على بحيرة جينيف.

وقلت وأنا أريها هذا: «لقد زرت هذا المكان عدة مرات. أليس جميلًا؟» وأشارت إلى الصور المنعكسة في الماء الصافي الساكن، للصخور الوعرة والصروح الزاهية في الهواء، فلم تقل: «ما أبدع هذا» ثم تدفعه لترى الرسم الذي يليه، بل تأملته مليًا ثم سألت: أليس هذا هو المكان الذي حُبس فيه بونيفار على ما جاء في شعر بيرون؟ فقلت: نعم، وحاولت أن أنشدها بعض أبيات بيرون في الموضوع ولكن الذاكرة لم تساعفني كما ينبغي.

فروحت على وجهها لحظة ثم أنشدت الأبيات على الوجه الصحيح بصوت لين مطرد النبرة إلا أنه حسن، واتقد

وجهها لما فرغت، فأثّنت عليها وقلت لها إنها مزودة بها يلزم لزيارة سويسرا وإيطاليا، فنظرت إليّ بمؤخر عينها لترى أجاد أنا أم أنا أمزح، فقلت لها: إذا كان المراد أن تعرف المواضيع من وصف بيرون لها فإن الواجب أن تعجل بالسفر فإن أوروبا تحول بسرعة عن العهد بها في أيام بيرون.

فسألتنى: «متى ينبغي إذن أن أذهب؟»

قلت: «إني أمهلك عشر سنوات.»

قالت بلهجة متزنة: «أظن أن في وسعي أن أسافر في خلال ذلك.»

قلت: «ستستمتعين بالرحلة جدًّا، وستلقينها حافلة بالمطرب المعجب.»

وعثرت على صورة لركن في مدينة أجنبية كنت كلّفها بها، وكانت لي فيها عهد يحن القلب لذكرها، وأحسبني أفضت في الكلام عنها، وكنت فيما قلت، رطب اللسان، فقد كانت مرهفة الأذنين، وأنفاسها محتبسة.

وسألتنى بعد أن أقصرت ببرهة: «هل طال مقامك في

البلدان الأجنبية؟»

قلت: «سنين عديدة.»

قالت: «وهل رحلت إلى كل مكان؟»

قلت: «كانت أسفاري كثيرة فأني كلف بالتجوال. ومن حسن الحظ أنني كنت قادرًا على ذلك.»

فنظرت إليّ مرة أخرى بمؤخر عينها وسألت: «وهل تعرف اللغات الأجنبية؟»

قلت: «إلى حدٍّ ما.»

قالت: «هل في معرفتها والكلام بها مشقة؟»

فقلت: «أعتقد أنك لن تجدي في الأمر صعوبة.»

قالت: «لا يعنيني أن أتكلّم أنا، إنما يكون همّي أن أنصت.»

وأمسكت ثم قالت: «يقولون إن المسرح الفرنسي بديع.»

قلت: «هو خير ما في العالم في بابه.»

قالت: «هل كثر تردادك إليه؟»

قلت: «لما كنت في باريس كنت أذهب إليه كل ليلة.»

قالت: «كل ليلة!» وفتحت عينيها الصافيتين جدًا «إن هذا في رأيي...» وترددت هنيهة «رائع جدًا» ثم سألت بعد دقائق: «أي البلاد تفضل؟»

قلت: «هناك بلاد أفضلها على كل ما عداها، وما أظن برأيك إلا أنه سيكون كرأيي.»

فنظرت إليّ قليلاً ثم قالت برقة: «إيطاليا؟»

قلت: بمثل رقتها «إيطاليا.» ورشق كل منا صاحبه بلحظه. وكان يُخيل إليّ وأنا أنظر إلى إشراق محياها ووضاءته وصباحته كأنني كنت أغازلها وأبثها حبي، ولم أكن أريها صوراً شمسية. ومما قوى هذا الوهم أن وجهها صبغه الدم فحولته عني. وساد الصمت هنيهة قالت بعدها: «هذا هو المكان الذي كنت أفكر في الذهاب إليه على الخصوص.»

قلت: «أوه ... هذا هو ... هذا هو.»

وقلبت صورتين أو ثلاثًا في صمت ثم قالت: «يقولون إن النفقة ليست باهظة.»

قلت: «كما هي في بعض البلاد الأخرى؟ نعم، وليس هذا أقل مزاياها.»

— «ولكنها غالية كلها، أليست كذلك؟»

— «تعين أوروبا؟»

— «السفر والطواف والتنقل ... هذه هي الصعوبة إلى الآن، فإن المال عندي قليل. إني مدرّسة.»

قلت: «لا شك أن المال ضروري ولا غنى عنه، ولكن الإنسان يستطيع أن يدبر أموره بمبلغ معتدل.»

قالت: «أظن أن في وسعي ذلك، فقد ادخرت شيئًا، ولا أزال أضيف إليه ... لهذا الغرض» وسكتت برهة ثم انطلقت تتكلم بلهفة كأنها كانت مكبوتة، وكأنها كان إخباري بذلك فيه لذة نادرة إلا أنها عسى أن تكون غير بريئة «ليس

المال كلّ ما عاق ... كل شيء عاق. كل شيء كان يصد، وقد انتظرت، وانتظرت، فما عدوت حال الذي يبني القصور بخياله في الهواء، وإني لأكاد أخاف أن أتكلم في هذا ... وقد خاليني الأمل بالتحقيق مرتين أو ثلاثاً فتكلمت به، فانتسخ الحلم! ألا لقد تكلمت كثيراً ... أكثر مما ينبغي.» قالت ذلك منحية به على نفسها، وكانت تجد في هذا بعض المتعة على ما بدا لي «ولي صديقة عزيزة لا تريد أن تسافر، ولست أمل تكليمها في هذا حتى لأضجرها جداً. وقد قالت لي مرة إنها لا تدري ماذا عسى أن يكون مآلي، فليني خليقة أن يطير عقلي إذا لم أسافر إلى أوروبا، وسيطير عقلي على التحقيق إذا سافرت.»

فقلت: «على كل حال، هذا أنت لم تسافري، ولم يطر عقلك مع ذلك.»

فنظرت إليّ ملياً ثم قالت: «لست على يقين من ذلك. فما أراني أفكر في شيء آخر. أفكر في السفر دائماً، حتى ليمنعني ذلك أن أفكر فيما هو أدنى إليّ — فيما ينبغي أن أعنى به — وهذا ضرب من الجنون.»

قلت: «الدواء أن تسافري.»

قالت: «إن لي ثقة وإيماناً بأني سأسافر. ولي في أوروبا ابن عم!»

وقلبنا بضع صور أخرى وسألناها هل قضت كل حياتها في «جريمونتر»؟

فقالت: «لا يا سيدي. لقد قضيت ثلاثة وعشرين شهراً في بوستون.»

فقلت مازحاً: «إنه ما دام الأمر كذلك فإن أوروبا ستخيب أملها على الأرجح.» ولكني لم أزعجها.

وقالت، وعلى فمها ابتسامتها اللطيفة الودیعة: «إني أعرف عن أوروبا أكثر مما تظنني أعرف، أعني بالقراءة عنها. فقد قرأت كثيراً، ولم أقتصر على بيروت وحده، بل قرأت كتب التاريخ وكتب إرشاد السياح. وأنا واثقة أنني سأرضى عن رحلتي حين يتاح لي أن أقوم بها.»

فقلت: «إني أعرف حالتك، وأدرك بواعثها. هو الهوى الذي يلج بنفس الأمريكي ... هوى الجمال والروعة. وأحسب أن هذا عندنا مقدم على كل ما عداه، وسابق لكل اختيار وتجربة. فإذا جاءت التجربة لم ترنا إلا ما كنا نحلم به.»

فقالت كارولين سبنسر: «أعتقد أن هذا صحيح. فقد حلمت بكل شيء. وسأعرف كل شيء حين أراه.»

قلت: «أظنك ضيعت وقتاً طويلاً جداً.»

قالت: «نعم وهذا شر ذنوبي.»

وكان الذين حولنا قد بدءوا ينصرفون، فنهضت ومدت إليّ يدها في دعة ورقة ولكن عينها كانت فيها لمعة غريبة.

فقلت وأنا أهز يدها مودعاً: «إني عائد إلى هناك، وسأتطلع إلى لقاءك.»

فقالت: «سأخبرك إذا خاب أمني.»

ومضت عني، وعليها أمارات الاضطراب الخفيف، وفي يدها المروحة تتحرك.

٢

عدت إلى أوروبا بعد هذه المقابلة ببضعة شهور، وانقضت ثلاث سنوات. وكنت مقيماً في باريس، وفي أخريات أكتوبر/ تشرين الأول رحلت عنها إلى «الهافر» لأقابل أختي وزوجها.

وكانا قد كتبنا إليّ يقولان إنهما يوشك أن يصلا إليها. فلما بلغت الهافر وجدت أن الباخرة قد سبقتني إليها وأني تأخرت حوالي ساعتين؛ فانكفأت إلى الفندق الذي نزل فيه قريبا. وكانت أختي قد أوت إلى فراشها من الإعياء الذي سببه لها ركوب البحر، فقد عانت منه شر ما يصيب الإنسان. وكانت ترغب ألا يزعجها أحد من راحتها أو ينغصها عليها فلم أمكث معها إلا خمس دقائق. ومن أجل هذا اتفقنا على البقاء في الهافر إلى اليوم التالي. وكان زوجها من فرط قلقه عليها لا يريد أن يغادر غرفتها ولكنها أصرت أن يخرج معي ويتمشى لينفي عنه ما يشعر به راكب البحر، ويستعيد إحساسه بالوثاقة والاستقرار. وكنا في الخريف، وكان الصباح دافئاً، منعشاً، وأعجبنا المناظر وسرتنا ونحن نجتاز الشوارع البهيجة الألوان الغاصة بالناس في هذا المرفأ الفرنسي القديم. وسرنا على أرصفة الميناء المشمسة العالية الضوضاء ثم دخلنا في شارع جميل واسع، بعضه تضيئه الشمس والبعض في الظل، وكان لقدمه، ولما عليه من الصبغة الريفية يبدو للنّاظر كأنه رسم بالألوان المائية، فهذه مساكن عالية كثيرة الطبقات مغبرة اللون، وسقفها الحمراء الأحمر على هيئة المثلث، وعلى نوافذها شبابيك خضراء وفوقها الزخرفة، وفي الشرفات الزهريات، وعلى العتبات النساء وقد لففن رءوسهن بمناديل بيضاء. وقد سرنا في الظل، وكنا نرى هذه المناظر على الجانب المشمس فكأنها صورة. وإذا بنسبي يقف بغتة ويضغط ذراعي ويحدق! فنظرت إلى حيث ينظر،

فرأيت أننا وقفنا على مسافة قصيرة من مقهى رصت أمامه المناضد والكراسي تحت طنف. ٢ وكانت النوافذ مفتوحة، وعلى جانبي الباب شجيرات ست مرصوفة في مغارسها، وقد فرش الرصيف بالتبن النظيف. وكان المقهى صغيراً، عتيقاً، ولكنه هادئ، ورأيت بداخله، في الظلام النسبي، امرأة حسناء سمينة على قبعتها شرائط قرمزية، ووراءها مرآة، وهي تبسم لشخص متوارٍ عن النظر. على أني لم ألاحظ هذا إلا فيما بعد. أما الذي رأيته أول الأمر فسيدة جالسة وحدها على منضدة من تلك المناضد الرخامية المبعثرة على الرصيف. وكان نسيبي قد وقف لينظر إليها، وكان أمامها شيء على المنضدة، ولكنها كانت مضطجعة، وساعداها مطويان على صدرها، وعينها إلى الناحية الأخرى من الشارع. ولم أر منها سوى لمحة جانبية ومع ذلك كبر في ظني أني رأيته من قبل.

وقال نسيبي: «سيدة الباخرة!»

فسألته: «أكانت على الباخرة معكم؟»

قال: «من الصباح إلى الليل. ولم يصبها الدوار. وكانت تجلس على جانب السفينة وساعداها مطويان كما تراها الآن، وترسل لحظها إلى الأفق الشرقي.»

فسألته: «أتنوي أن تكلمها؟»

قال: «لست أعرفها ... لم نتعارف ... وكنت سيئ الحال من الدوار، ولكنني كنت أراقبها، ولا أدري لماذا كنت معنيًا بها. وإنها لأمريكية صغيرة رشيقة. وأكبر الظن أنها مدرسة، وأنها في إجازة، وهي تتنزه بما ادخرته من تلاميذها.»

وأدارت في هذه اللحظة خدها قليلًا ونظرت إلى المساكن العالية المغبرة الجدران فقلت: «سأكلمها أنا.»

فقال نسيبي: «لو كنت مكانك لما فعلت فإنها حيَّةٌ جدًّا.»

قلت: «يا صديقي العزيز، إني أعرفها. وقد أريتها مرة بضع صور شمسية في حفلة شاي.»

وقصدت إليها، فلفتت وجهها ونظرت إليّ، فأيقنت أنها الآنسة كارولين سبنسر، ولكنها لم تعرفني بمثل هذه السرعة، فقد بدت عليها دهشة المفاجأة، وقلت، وقد سحبت كرسيًا وقعدت: «أرجو ألا يكون أملك قد خاب.»

فحدقت فيّ، وقد احمر وجهها قليلًا، ثم انتفضت قليلًا انتفاضة المعرفة والإدراك وقالت: «أنت الذي أراني الصور الشمسية في جريمونتر؟»

قلت: «نعم، أنا هو بعينه، هذه مصادفة جميلة فأني أحس كأن عليّ أن أقيم لك استقبلاً وترحيباً رسميين. فقد كلمتك كثيراً عن أوروبا.»

فقلت بلهجة رقيقة: «لم تقل أكثر مما يجب. وإني لسعيدة.»

وكانت السعادة بادية عليها، ولم يكن ثمّ ما يدل على أن سنّها زادت وأنها صارت أكبر، واحتفظت وسامتها بمزايا الرزانة والوداعة. وإذا كانت قد بدت من قبل زهرة من أزاهير الطهر على عودها الأملود، وبهجة ألوانها الرقيقة، فما كانت نضرة هذه البهجة الرقيقة أقلّ ظهوراً، الآن، وكان إلى جانبها رجل كهل يحتسي شراب «الأبسنت» ووراءها السيدة ذات القبعة المزدانة بالشرائط القرمزية، تصيح «ألسيّاد!» «ألسيّاد!» للخادم ذي الفوطة الطويلة الملفوفة على وسطه، وأخبرت الآنسة سبنسر أن زميلي كان معها على السفينة، وأنه زوج أختي، فتقدم وعرفته بها فنظرت إليه كأنها ما وقعت عليه عينها من قبل، ولا عجب فقد حدثني أنها كانت لا تنفك تنظر إلى الأفق الشرقي، ومن الجلي أنها لم تفتن إلى وجوده على الباخرة. وابتسمت له ابتسامة حيّة ولم تحاول أن تزعم أنها رأتَه من قبل، وبقيت معها في المقهى، ورجع هو إلى الفندق وزوجته. وقلت للآنسة سبنسر: إن مقابلي لها بُعيد نزولها من السفينة اتفاق عجيب جداً،

ولكنني مغتبط بذلك ويسرني أن تخبرني عن وقع السفر في نفسها.

قالت: «لا أدري! ولكنني أشعر كأني في حلم. وإن لي هنا لساعة، ولست أريد أن أتحرك. كل شيء جميل. ومن يدري؟ لعل القهوة أسكرتني، والحق أنها كانت لذيدة!»

قلت: «إذا كان هذا مبلغ سرورك بمرفأ الهافر الممل وكنت تفيضين عليه كل هذا الإعجاب، فإنك لا تبقين شيئاً من السرور والإعجاب بما هو خير منه. كلا، لا تنفقي كل ذخرك من الإعجاب في أول يوم. واذكري أن هذه وثيقة الاعتماد الأدبية... تذكرني كل البلدان والأشياء الجميلة التي تنتظرك. تذكرني إيطاليا الفاتنة!»

فقالت بلهجة الجذل، وعينها على المساكن أمامها: «لست أخشى الإفلاس وإن في وسعي أن أجلس هنا طول النهار، وأقول لنفسني إنني صرت ها هنا أخيراً. كل شيء قاتم، وقديم، ومغاير لمألوفي!»

فسألتها: «على فكرة، كيف اتفق لك أن تقعدي هنا؟ ألم تقصدي إلى فندق من الفنادق؟» فقد استغربت سذاجة القلب التي جعلت هذه المرأة الحسنة الرقيقة تتخذ مكانها في هذه العزلة البارزة على حافة الطريق.

فكان جوابها: «جاء بي ابن عمي إلى هنا. أتذكر أنني قلت لك إن لي ابن عم في أوروبا؟ استقبلني هذا الصباح على الباخرة.»

قلت: «لم تكن به حاجة إلى تجشيم نفسه عناء الاستقبال إذا كان سيهجر بك بهذه السرعة.»

قالت: «إنما تركني مسافة نصف ساعة. ذهب ليحيى بهالي.»

فسألتها: «وأي مالك؟»

فضحكت ضحكة خفيفة وقالت: «إنني أشعر بأن لي شأنًا حين أخبرك أنها كلها أوراق نقد.»

فسألتها: «وأي أوراقك النقدية؟»

قالت: «في جيب ابن عمي.»

قالت هذا بهدوء، ولكن الخبر — لا أدري لماذا؟ — أجرى في بدني قشعريرة البرد، ولو أنني سئلت في تلك اللحظة عن الباعث لعجزت عن تعليل هذا الشعور فما كنت أعرف شيئًا عن ابن عمها فالمفروض أن يكون أمينًا، ولكنه أقلقني

فجأة أن تكون مواردها القليلة قد انتقلت إلى يديه بعد نصف ساعة من نزولها من السفينة.

وسألتها: «أترأى سيسافر معك؟»

قالت: «إلى باريس فقط. فإنه يدرس الفن فيها. وكنت قد كتبت إليه أني قادمة ولكني لم أكن أتوقع أن يجيء إلى هنا ليستقبلني، ولم أطمع في أكثر من أن يلقيني على المحطة في باريس. وإنما المروءة منه. ولكنه ذو مروءة، وذكي أيضًا.»

فشعرت برغبة ملحة في أن أرى ابن عمها الذكي الذي يدرس الفن.

وسألتها: «هل ذهب إلى المصرف؟»

قالت: «نعم، إلى المصرف. ذهب بي إلى فندق، مكان صغير غريب ولكنه جميل، وفي وسطه ساحة، تحيط بها من فوقها شرفة تدور بها، وصاحبة الخان سيدة ظريفة تلبس ثوبًا محبوبك التفصيل على قدها. وبعد قليل خرجنا لنتمشى إلى المصرف لأنه ليس معي شيء من النقود الفرنسية، ولكني كنت دائرة الرأس من ركوب البحر فاستحسننت أن أقعد، فجاء بي إلى هنا وذهب هو إلى المصرف، وسأنتظر حتى يعود.»

وقد يبدو هذا مني إغراقاً في التخيل، ولكنه مر بخاطري أنه لن يعود أبداً. فاعتدلت على الكرسي وقد صممت على البقاء إلى جانبها حتى أرى ما يكون. وكانت دقيقة الملاحظة لا يفوت عينها شيء، مما تعرضه علينا حركة الشارع؛ غرابة الثياب، وأشكال المركبات، والخيّل النورماندية الجسيمة، والقساوسة الضخام الأبدان، والكلاب الحليقة. وتحدثنا عن هذه الأشياء، فوجدت متعة من جدة مشاهدتها وكيف كان ذهنها الواسع الاطلاع يدرك الأشياء ويغتبط بها.

وسألتها: «وبعد أن يرجع ابن عمك، ماذا تنوين أن تصنعي؟»

فترددت لحظة ثم قالت: «لا ندرى تماماً.»

قلت: «ومتى تذهبين إلى باريس؟ إذا ركبت قطار الساعة الرابعة فإنه يكون من دواعي سروري أن أكون في خدمتك في هذه الرحلة.»

قالت: «لا أظن أننا سنفعل ذلك فإن ابن عمي يرى أن أبقى هنا بضعة أيام.»

فقلت: «أوه» ولبثت خمس دقائق لا أنبس بحرف. وكنت

أتعجب لابن عمها هذا ماذا ينبغي من وراء ذلك؟ وأدركت عيني في الشارع وأرسلت لحظي فيه إلى آخر مدى البصر، ولكنني لم أر أحداً يمكن أن يعد أمريكياً ذكياً من طلاب الفنون. وأخيراً سمحت لنفسني أن ألاحظ أن الهافر ليس بالمكان الذي يختاره من يطوف في أوروبا ليتلبث فيه ويعجب به. فما هو بأكثر من استراحة، ومعبّر ومجاز ينبغي أن ينفذ منه المرء بسرعة، ونصحت لها أن تسافر إلى باريس على قطار العصر، وأن تتسلى في أثناء ذلك بالركوب إلى القلعة القديمة عند مدخل الميناء، ذلك البناء الدائر الجميل الذي يحمل اسم فرنسيس الأول ويبدو للعين كأنه قصر صغير من قصور سنت أنجلو.

وكانت تصغي بعناية، ثم بدا عليها الجد وهي تقول: «أخبرني ابن عمي أنه بعد عودته سيحدثني في أمر خاص، وقال إننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً أو نقرر أمراً إلا بعد أن أستمع إلى ما عنده، ولكنني سأحمله على الإسراع في إخباري، ثم نذهب بعد ذلك إلى القلعة القديمة. ولا داعي للتعجيل بالسفر إلى باريس، فإن الوقت فسيح.»

وكانت تبسم بشفتيها الرقيقتين الحادثتين قليلاً وهي تقول هذا، ولكنني كنت أتفرس في وجهها، فلمحت طيفاً من الخوف في عينيها.

وقلت: «لا تقولي إن هذا الرجل التعس سيفضي إليك
بأخبار سيئة!»

قالت: «أحسب أنها ستكون سيئة قليلاً، ولكني لا أعتقد
أنها سيئة جداً. على كل حال لا بد من الاستماع.»

فنظرت إليها هنيئة ثم قلت: «ما أظنك جئت إلى أوروبا
لتصغي إليه أو لغيره، إنما جئت لتنظري!»

وأيقنت أن ابن عمها سيعود، ما دام أن لديه أخبارَ سوء
يريد أن يطلعها عليها فلا بد أن يرجع. وسألتها عن البلدان
التي تنوي أن تزورها، فألفتها قد رتبت رحلتها على أدق
نحو، وسردت لي أسماء البلاد بلهجة الجدد، فهي ستذهب
من باريس إلى ديجون وأفينيون، ومن ثم إلى مارسيليا
وطريق الساحل «الكورنيش» ثم إلى جنوة، وسبزا، وبيزا،
وفلورنسة، ورومية. ويظهر أنه لم يخطر لها قط أن في
السفر وحدها وبلا رفيق أيَّ عناء، ولما كان لا رفيق لها؛
فقد حرصت على اجتناب إقلاقها أو إضعاف شعورها
بالاطمئنان والثقة.

وأخيراً جاء ابن عمها. رأيته يخرج علينا من زقاق جانبي،
وما كادت عيني تأخذه حتى أيقنت أنه هو الأمريكي الذكي
الذي يدرس الفن في باريس. وكان يلبس قبة ناعمة عريضة

الحافة، وسترة لبيسة^٣ من المخمل الأسود، رأيت أمثالها كثيراً في «شارع بونا بورت»، وكان قميصه ينفرج عن جانب كبير من عنق لم يبد لي على البعد جميلاً. وكان طويلاً نحيفاً وشعره أحمر، وفي وجهه حطاط،^٤ وقد لاحظت هذا كله وهو يدنو من المقهى ويحرق في مستغرباً وجودي. ولما صار معنا عرفته بنفسه وقلت إني صديق قديم للآنسة سبنسر، فأخذ النظر إليّ بعينه الضيقتين المحمرتين. ثم انحنى لي على الطريقة الفرنسية ملوّحاً بقبعته العريضة.

وقال: «أكنت على السفينة؟»

قلت: «كلا، لم أكن هناك، فإني في أوروبا منذ ثلاث سنوات.»

فانحنى مرة أخرى بتؤدة وأومأ إليّ أن أجلس كما كنت، فقعدت لأراقبه وأفحصه قليلاً، فقد آن لي أن أعود إلى أختي، وبدالي أن ابن العم هذا غريب، فما خلقه الله في صورة يلائمها زي بيرون أو روفائيل، ولا كانت سترته المخملية، وعنقه العاري على اتساق مع خصائص وجهه، وكان شعره مقصوفاً إلى قريب من جلدة الرأس، وأذنه عظيمة مقبلة على الوجه، متباعدة عن الرأس. وكان في هيئته فتور، وفي قامته انحناء يناقضان ما في عينه الغريبة اللون من الحدة والشدة. ولعلي كنت متحاملاً عليه، ولكنه خيل إليّ أن في

عينه غدرًا. وظل لحظة لا يقول شيئًا، وكان يعتمد يديه على عصاه ويصعد طرفه ويصوبه في الشارع، وأخيرًا رفع عصاه ببطء وأشار بها وهو يقول: «هذا حسن.» وكان يُميل رأسه ويُداني بين جفونه وهو ينظر، فوجهت عيني إلى حيث كان يومئذ بعضاه، فرأيت خرقة حمراء معلقة من شبك قديم. وقال: «لون حسن.» وحول إليّ لحظه من غير أن يحرك رأسه وقال: «يكون جميلًا في الرسم.» وكان صوته ناشفًا جامدًا خاليًا من الصقل.

فقلت: «أرى أن لك لنظرًا. وقد أخبرتني ابنة عمك أنك تدرس الفن.»

فنظر إليّ بعينه المغضية ولم يجب، فمضيت في كلامي بلطف متكلف: «أحسبك تعمل مع واحد من هؤلاء العظماء.»

فظل ينظر إليّ ثم قال برقة: «جيروم.»

قلت: «أحسبك مغتبطًا هناك؟»

قال: «هل تعرف الفرنسية؟»

قلت: «إلى حد ما.»

فأبقى عينيه على وجهي ثم قال بالفرنسية: «إني أعبد التصوير.»

فقلت: «أوه. إني أستطيع أن أفهم هذا حين تقوله.»

ووضعت الأنسة سبنسر راحتها على ذراع ابن عمها، وكان في حركتها اضطراب خفيف من السرور، وكأنها أعجبها أن يكون المرء ذرب اللسان في اللغات الأجنبية! ونهضت لأودعها، وسألت الأنسة سبنسر أين في باريس يتاح لي أن أتشرف بلقائنها؟ وإلى أي فندق تنوي أن تقصد؟

فالتفتت إلى ابن عمها مستفسرة، فشرفتي مرةً أخرى بنظرة فاترة بمؤخر عينه وسألني: «أتعرف فندق الأمراء؟»

قلت: «أعرف مكانه.»

قال: «سأخذها إليه.»

فقلت لكارولين سبنسر: «إني أهنتك. فإني أعتقد أن هذا خير فندق في العالم. وإذا اتفق أني استطعت أن أختلس من وقتي هنا لحظة أراك فيها، فأين أجدك؟»

فقالت بلهجة الجذل: «ما أحلاه من اسم ... ألا بل نورماند!»

ولما غادرتها انحنى لي ابن عمها ملوحًا بقبعته في دائرة واسعة.

٣

تبين أن أختي لم تعد إليها نفسها إلى حد يسمح بأن تغادر الهافر على قطار العصر، فلما كان الغسق ألفت نفسي في فسحة من الوقت، وأن في وسعي أن أزور فندق «ألا بل نورماند». ويجب أن أعترف أنني قضيت وقتًا طويلًا أفكر فيما عسى أن يكون هذا القريب الرّذُل لصديقتي الجميلة قد أفضى إليها به من أخبار السوء. وكان «ألا بل نورماند» خانًا صغيرًا في سكة ظليلة مريبة، لا يرتاح المرء حين يتصور أن الأنسة سبنسر لا بد أن تكون قد صادفت فيها كثيرًا من «اللون المحلي»، وكان هناك — في الخان — فناء ضيق يتخذ للسمر، وسلم إلى غرف النوم، دَرَجَه على ظاهر الحائط، ونافورة صغيرة يقطر منها الماء وفي وسطها تمثال من الجص، وغلّام يلبس طاقية بيضاء ويلف وسطه بفوطة، ينظف بعض الأواني النحاسية في مدخل المطبخ الظاهر، وربة الفندق وهي سيدة ثرثارة، في شفوف نظيفة، ترتب الكمثرى والعنب على هيئة الهرم في طبق قرمزي. فأجلت

عيني في المكان فرأيت كارولين سبنسر على دكة خضراء، خارج باب مفتوح كتب عليه: «حجرة الطعام»، وما كادت عيني تأخذها حتى تبينت أن شيئاً حدث بعد أن تركتها في الصباح؛ فقد كانت مضطجعة على الدكة، ويدها متشابكتان في حجرها، وعينها على ربة الخان في الناحية الأخرى من ساحة البيت وهي ترتب الكمثرى.

ولكني أدركت أيضاً أنها لم تكن تفكر في الكمثرى، وإنما كانت تشخص وهي ذاهلة عما حولها، مفكرة في خلافه، ودنوت منها فتبينت أنها حديثة عهد بالبكاء. وقعدت على الدكة إلى جانبها قبل أن تراني، فلما أبصرتنني لم تزد على أن تلتفت بلا دهشة، وأن تريح عينها على وجهي. ولا بد أن ما وقع كان غاية في السوء، فقد تغيرت جداً.

ولم أتوان في مصارحتها برأيي فقلت: «إن ابن عمك قد أبلغك خبراً سيئاً فأني أراك في كرب شديد.»

فلبث لحظة لا تقول شيئاً، وخيل إليّ أنها تخشى أن تتكلم لأن الدموع تتحير في عينيها. ولكنني ما لبثت أن تبينت أنها أراقت كل عبرة في الفترة الوجيزة التي غبت عنها فيها، وأنها استرجعت، واستردت جلدها وسكيتها.

وقالت أخيراً: «إن ابن عمي المسكين مكروب، وقد كان ما أبلغنيه سيئاً.» وترددت قليلاً ثم قالت: «كانت حاجته شديدة إلى المال.»

فقلت: «تعين حاجته إلى مالك؟»

قالت: «إلى أي مال يمكن أن يحصل عليه، بطريقة شريفة! وكان مالي كل ماله إلى وسيلة.»

فسألتها: «وأخذ ما معك؟»

فترددت مرة أخرى، وكانت عينها تتوسل إليّ وتضرع، ثم قالت: «أعطيته ما عندي.»

وما زلت أذكر نبرة صوتها وهي تنطق بهذه الكلمات، وما فتئت أعدها أشبه ما سمعت، بأصوات الملائكة، ولكنني حين سكت أذني هذه الألفاظ انتفضت قائماً كأنها أصابتنني مساءة شخصية وقلت: «يا لله! هل تسمين هذا حصولاً على المال بوسيلة شريفة؟»

وكان هذا شططاً مني، فقد اتقدحياها وقالت: «دع الكلام في هذا؟»

فقلت وأنا أقعد ثانية: «بل يجب أن نتكلم في هذا! إني صديقك، ويخيل إليّ أن بك حاجة إلى صديق. فما خطب ابن عمك؟ ماذا دهاه؟»

قالت: «إنه مدين.»

قلت: «لا شك، ولكن ماذا يجعل من حقه أن تؤذي عنه دينه؟»

قالت: «قص علي قصته كلها، وأنا آسفة جدًا له.»

قلت: «وأنا مثلك، ولكني أرجو أن يردّ إليك مالك.»

قالت: «لا شك في ذلك ... متى وسعه أن يفعل.»

فسألتها: «ومتى يكون هذا؟»

قالت: «بعد أن يتم رسم الصورة العظيمة التي يعمل فيها الآن.»

فصحت: «يا سيدتي العزيزة، لعنة الله على صورته العظيمة! أين ابن العم السادر هذا؟»

فترددت ترددًا واضحًا ثم قالت: «يتعشى.»

فتلفت ونظرت من الباب المفتوح في «حجرة الطعام»، فأبصرت ذلك الشاب الذكي، طالب الفنون في باريس، وموضع عطف الأنسة سبنسر، قاعدًا إلى طرف مائدة طويلة. وكان مقبلًا على الطعام فلم يرني في بادئ الأمر، ولكنه — وهو يضع على المائدة قدحًا أفرغ ما كان فيه من النبيذ في جوفه — لاحظ أنني أراقبه. فتوقف عن الأكل، وأمال رأسه إلى ناحية، ورشقني بلحظه كما أرشقه، وفكاه يتحركان ببطء. ثم مرت بنا ربة الخان وعلى يديها طبق الكمثرى.

فقلت: «وهذه الفاكهة اللذيذة له؟»

فنظرت إلى الطبق برقة وقالت: «إنهم يحسنون تقديم ما عندهم.»

فسخّطت وأحسست أنه لم تبقي لي حيلة، وقلت: «تعالى، تعالى! هل توافقين على أن يأخذ منك هذا الشاب الطويل القوي مالك؟»

فحولت وجهها عني، وكان من الواضح أنني أولمها. وخامرني اليأس، فما من شك في أن هذا الشاب الطويل القوي «يعنيها.»

وقلت: «اغفري لي أن أتكلم عنه بلا كلفة. ولكنك أسخى
يدًا مما ينبغي أن تكوني، وهو أقل تعففًا مما يجب. لقد جرّ
على نفسه الدين، فحقيق به أن يؤديه ويرده بنفسه ومن
موارده.»

فقالت: «لقد كان أحق. أعرف ذلك، فقد قص عليّ كل
شيء. وطال حديثنا في هذا صباح اليوم. وقد قصد إليّ في
حاجته. فقد وقع سندات بمبالغ جسيمة.»

قلت: «ما أعظم حماقته!»

قالت: «إنه يعاني همًّا ثقیلاً. وليس الأمر بقاصر عليه
وحده، فإن هناك أيضًا زوجته المسكينة.»

قلت: «آه! أوله زوجة مسكينة؟»

قالت: «لم أكن أعرف هذا حتى أقرّ لي به. تزوجها منذ
سنتين سرًّا.»

وتلفتت كارولين سبنسر حولها كأنها كانت تخشى أن يسرق
السمع أحد، ثم قالت برقة، وبنبهة مؤثرة: «لقد كانت
كونتيسة.»

فسألتها: «أواثقة أنت من ذلك؟»

قالت: «لقد كتبت إليّ رسالة ما أجملها!»

قلت: «تطلب منك فيها قرصًا حسنًا؟»

قالت: «بل تلمس الثقة والعطف، فقد حرمها أبوها حقوقها. وقد خبرني ابن عمي بقصتها، وفصلتها هي لي في رسالتها. إنها أشبه بالقصص القديمة. فقد رفض أبوها أن يوافق على هذا الزواج، ولما عرف أنها خالفت أمه سرًّا رمى بها. الحقيقة أنها حادثة مؤثرة. وأسرتها أعرق الأسر في مقاطعة بروفنس.»

وكنت أنظر وأصغي وأنا أتعجب. وبدائي أن هذه المسكينة تجد لذة حقيقية في هذه الرواية التي تدور وقائعها على كونتيسة منبوذة يتزوجها ابن عمها، وقد بلغ من استغراق هذه الرواية لها أن صرفتها عن التدبر في أمرها وفيما يحجره عليها ضياع مالها.

وقلت: «يا سيدتي العزيزة، هل تريدان أن تخبرني في سبيل الخيال؟»

قالت: «لن أخرب! وسأعود بعد قليل لأقيم معهما. فإن الكونتيسة تلح في ذلك وتصر عليه.»

فسألت: «تعودين؟ هل تعين أنك راجعة إلى بلادك؟»

فغضت طرفها هنيهة، ثم قالت وهي تجاهد أن تخفي اضطراب صوتها: «ليس معي مال للسياحة.»

قلت: «أو أعطيته كل ما معك؟»

قالت: «احتفظت بما يكفي للإياب.»

فتوجعت من الغيظ، وفي هذه اللحظة خرج من غرفة الطعام ابن عمها السعيد الذي استحوذ على مدخرها، وعلى يد الكونتيسة أيضًا! ووقف لحظة على العتبة، يقشر كمثراة، ثم دسها في فمه، وتركها فيه ملتذًا بها، وجعل ينظر إلينا وساقاه متباعدتان، ويداه في جيبي سترته. فنهضت الآنسة سبنسر، ورمت إليه نظرة لم تفتني، واشية بالاستسلام والافتتان، بل بالنشوة. وقد كان هذا الشاب قبيحًا، وسوقيًا، ودعيًا خائنًا، في رأيي، ولكنه استطاع أن يخلب لبها ويسحر خيالها. وقد كان حنقي عليه شديدًا، وتقززي منه عظيمًا، ولكنه لم يكن لي حق في الدخول في الأمر، وعلى أنه لم يغب عني أن الدخول في هذا عبث لا طائل تحته.

ولوّح الشاب بيده تلويحًا مسرحيًا وقال: «ساحة جميلة. ومكان طيب. هذه الآجرة لونها حسن. وهذا السلم الملتوي أيضًا!»

فنفد صبري، ولم تعد لي طاقة على الاحتمال، ومددت يدي إلى كارولين سبنسر من غير أن أرد على ابن عمها، فنظرت إليّ بوجهها الدقيق وعينيها الواسعتين وبدت لي أسنانها، كأنها أرادت أن تبسم وقالت: «لا تأسف من أجلي، فإني واثقة أنني سأرى شيئًا من هذه القارة العتيقة يومًا ما.»

فقلت لها إني لا أودعها، وإني سأعود إليها في صباح الغد. وكان ابن عمها قد لبس قبعته العريضة، فترعها ولوّح لي بها على سبيل التحية، فانصرفت.

ورجعت في صباح اليوم التالي إلى الخان حيث التقيت بربته، وكانت أقل عناية بشبابها مما كانت في المساء، فلما سألتها عن الأنسة سبنسر قالت: «سافرت يا سيدي. غادرتنا في الساعة العاشرة البارحة مع ... مع ... إنه ليس زوجها، هه؟ على كل حال مع السيد ... وذهبا إلى الباخرة الأمريكية.»

فانصرفت. فيا لها من مسكينة! لم تقض في أوروبا إلا حوالي ثلاث عشرة ساعة!

وكنت أسعد حظاً منها فقضيت في أوروبا حوالي خمس سنوات. وفي هذه المدة فقدت صديقي لاتوش، فقد أصيب بحمى الملاريا أثناء رحلة على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، فقضى نحبه. وكان أول ما صنعت بعد عودتي إلى أمريكا أن قصدت إلى بلدة «جريمونتر» لأعزي أمه المسكينة، وكانت شديدة الحزن، فجلست معها الصباح كله (وكنت قد وصلت في ساعة متأخرة من الليلة السابقة) أصغي لحديثها الباكي، وأتغنى بسجايا صديقي. ولم يكن لنا كلام في غير ذلك، ولم يقطع حديثنا إلا وصول سيدة صغيرة خفيفة تسوق مركبتها، وقد رأيتها ترمي الأعنة على ظهر الجواد بمثل سرعة النائم أفزعه شيء فرمى الغطاء ونهض. ووثبت من المركبة، ودخلت الغرفة وثباً من فرط النشاط في حركتها والخفة فيها. وعرفت أنها زوجة القسيس، وأنها «راوية» البلدة، وكان يبدو عليها أن لديها نخبة متخيرة من الأحاديث تتلهف على الإفضاء بها، وكنت على يقين من هذا، كيقيني من أن السيدة لاتوش لا يمنعها جزعها على وحيدها وتكلها له أن تصغي إلى صاحبته. ورأيت أن الانصراف أكيس فقلت: «إني سأذهب لأتمشى قبل الغداء، وسألت قبل الخروج: «وعلى فكرة، إذا استطعت أن تدليني على بيت الأنسة سبنسر، ذهبت إليها.»

فردت زوجة القسيس وأخبرتني أن الأنسة سبنسر تسكن في البيت الرابع بعد الكنيسة، وهي على اليمين، وفوق بابها طَئْفٌ محمول على عمودين، تراه هي أشبه بإطار السرير.

وقالت السيدة لاتوش: «نعم، اذهب وزر كارولين المسكينة، فسيرد إليها نفسها أن ترى وجهًا غريبًا.»

وقالت زوجة القسيس: «أحسبها رأت فوق الكفاية من الوجوه الغريبة!»

فأصلحت السيدة لاتوش العبارة وقالت: «إنما أعني أن ترى زائرًا.»

فعادت صاحبته تقول: «وأحسبها شبت من الزوار! ولكنك أنت لا تنوي أن تبقى عشر سنين؟»

فقلت وأنا متحير: «أوعندها زائر من هذا الضرب؟»

قالت: «سترى ضربه. ومن السهل أن ترى زائرتها، فإنها تجلس عادة في الساحة المقدمة أمام البيت، وعليك أن تكون لبقًا وشديد الحذر في كلامك، وتوخ الأدب على الخصوص.»

فقلت: «آه، حساسة جدًا، أليست كذلك؟»

فوئبت زوجة القسيس إلى قدميها، وانحنت لي، انحناء
سخر وتهكم، وقالت: «هي كما تقول، من فضلك، فإنها
كونتيسة!»

ونطقت اللفظ بلهجة لاذعة، حتى لخیل إلي أنها تضحك
ساخرة، في وجه الكونتيسة، فوقفت لحظة أهدق، وأتعجب،
وأذكر.

ثم قلت: «أوه ... سأكون مؤدبًا جدًا.» وتناولت قبعتي
وعصاي، وانصرفت.

ولم أجد مشقة في الاهتداء إلى بيت الأنسة سبنسر، فقد عرفت
الكنيسة بلا جهد، وكان البيت الصغير الحائل البياض، ذو
المدخنة الكبرى والنباتات الزاحفة، أخلق مسكن بعانس
مقتصدة لها ذوق وخیال.

وتباطأت لما دنوت من البيت، فقد سمعت أن بعضهم لا
يفتأ جالسًا في الساحة المقدمة، فأحببت أن أستطلع وأتبين
أولًا، ورفعت رأسي محاذرًا ونظرت من فوق السور الأبيض
الواطئ الذي يفصل الحديقة الصغيرة عن الطريق، ولكني
لم أر كونتيسة أو سواها، وكان هناك ممر مستقيم يؤدي
إلى عتبة الباب وعلى الجانبين رقعة صغيرة من الحشيش
حولها إطار من شجيرات العنب الجافة وفي وسط الرقعة

— في كلا الجانبين — شجرة كبيرة، حافلة بمظاهر الشظف والقفول. ٥ وتحت إحدى الشجرتين منضدة صغيرة، وكرسيان. وعلى المنضدة شقة من النسيج لم ينته العمل فيها، وكتابان أو ثلاثة مجلدة بورق زاهي الألوان. فدخلت من البوابة، ووقفت في منتصف الممر، ونقضت المكان عسى أن أبصر ما يدل على حال ساكنته التي ترددت فجأة، بلا داع أعرفه، أن أقدم نفسي إليها. ثم خطر لي أن البيت رث، وأنه ليس من حقي أن أتطفل، فقد كان الشوق إلى استطلاع طلعتها هو كل باعثي، ولكن هذه الرغبة بدت لي الآن غير لائقة. وبينما كنت مترددًا ظهرت سيدة في مدخل الباب ووقفت تنظر إليّ، فعرفت أنها كارولين سبنسر، ولكنها هي كانت تنظر إليّ كأنها ما رأتني قط من قبل، فتقدمت بتؤدة وإشفاق إلى الباب، ثم قلت وأنا أتكلف اللهجة الودية: «لقد انتظرت هناك عودتك ولكنك لم تحيئي أبدًا.»

فقال برقة، وقد زادت عيناها اتساعًا: «انتظرت أين يا سيدي؟»

لقد كبرت، وظهر عليها التعب، والتلف.

وقلت: «انتظرت في الهافر.»

فحدّقت فيّ، ثم عرفتني، وتبسمت، واحمر وجهها، وضمت

راحتها وقالت: «الآن تذكرتك، وتذكرت ذلك اليوم.» ولكنها ظلت واقفة، لا تخرج إليّ، ولا تدعوني أن أدخل، وكانت مرتبكة.

وكنت أنا أيضًا مرتبكا. فغرزت عصاي في الأرض وقلت: «ظللت أترقب مجيئك عامًا بعد عام.»

فهمست: «أتعني في أوروبا؟»

قلت: «في أوروبا، طبعًا. أما هنا فإن من السهل أن يهتدي إليك المرء، على ما يظهر.»

فأراحت رأسها على جانب الباب غير المدهون، ونظرت إليّ لحظة بلا كلام، وخيل إليّ، أني اجتليت في وجهها ما يرسم على وجه المرأة حين تشفى على البكاء، وإذا بها فجأة تخطو إلى الحجرة أمام العتبة، وتغلق الباب وراءها، ثم بدأت تتبسم، وقد بقيت أسنانها كأجمل ما عهدتها، ولكنه كان هناك دموع أيضًا، ولا شك.

وسألت بصوت كالهمس: «أَوَكنت هناك طول الوقت منذ ذلك اليوم؟»

قلت: «عدت منذ ثلاثة أسابيع، وأنت؟ ألم تذهبي قط؟»

وكانت تنظر إليّ، وعلى ثغرها ابتسامتها الثابتة، ثم مدت

يدها من خلفها وفتحت الباب وقالت: «إني أهمل واجب الضيافة، ألا تدخل؟»

قلت: «أخشى الإثقال عليك وإزعاجك.»

قالت: «كلا» وهي تبسم، ودفعت الباب، وأومأت إليّ أن أدخل.

فدخلت وتبعته، فمضت بي إلى غرفة صغيرة على يسار الردهة الضيقة، أحسبها غرفتها، وإن كانت في الناحية الخلفية، ومررنا بباب غرفة أخرى، موصد، تطل، فيما قدرت، على رقعة الحشيش والشجرة، وكانت الغرفة التي دخلناها تشرف على خص من الخشب، ودجاجتين تصيحان، وكانت الغرفة جميلة جداً، ولكن ما فيها مما يكسبها معنى الأناقة والرشاقة، ينبئ بشدة التدبير ودقة الاقتصاد، وقد زاد هذا في حسننها، فما رأيت من قبل أثاثاً باهتاً، وصوراً قديمة في إطارات من أوراق الخريف المموهة، مرتبة على خير من هذا النظام أو أنق وأحلى. وقعدت الأنسة سبنسر على حرف الأريكة، ويدها متشابكتان في حجرها. وكانت تبدو أسن بعشر سنين، ولو قلت إنها وسيمة لكان هذا القول الآن غير سائغ، ولكنها كانت في عيني وسيمة، أو على الأقل لهيئتها وقع في النفس. وكانت مضطربة، فحاولت أن أتكلف

الإغضاء ولكنني قلت لها فجأة وبلا أدنى تدبر، وبدافع لا يقاوم من ذكرى صداقتنا في الهافر: «إني أثقل عليك، فإنك مهمومة.»

فرفعت يديها إلى وجهها، وأبقتة مدفونًا فيهما لحظة، ثم ردتها وقالت: «ذاك لأنك تذكرني...»

قلت: «أتعنين أني أذكرك بذلك اليوم المشئوم في الهافر؟»

فهزت رأسها وقالت: «لم يكن مشئومًا؛ كان حسنًا.»

فقلت: «لم أصدم قط كما صُدمت ساعة ذهبت إلى الخان في صبيحة اليوم التالي لأسأل عنك فإذا بك قد سافرت.»

فلبث قليلًا لا ترد، ثم قالت: «أرجو أن تعفيني من الكلام في هذا.»

فسألتها: «هل عدت إلى هنا مباشرة؟»

قالت: «عدت إلى هذه البلدة بعد ثلاثين يومًا ليس إلا من سفري منها.»

– «وبقيت هنا بعد ذلك دائماً؟»

فقالت برقة: «نعم.»

– «ومتى تذهبين إلى أوروبا كرة أخرى؟»

وكان السؤال عن هذا لا يخلو من قسوة وإيلام، ولكن طراوة استسلامها استفزتني، وأغرتني بأن أنتزع منها عبارة تدل على الملل والتبرم.

فصوبت عينها إلى دائرة ضيقة من نور الشمس على السجادة، ثم نهضت وأرخت الشباك قليلاً لترد هذا النور، وقالت، بلهجتها اللينة، ردّاً على سؤالي: «لن أذهب أبداً.»

– «عسى أن يكون ابن عمك قد رد إليك مالك؟»

فحولت وجهها عني وهي تقول: «لست أبالي هذا الآن.»

– «ألا تحفلين بهالك؟»

– «للسفر إلى أوروبا.»

— «أتعنين أنك لن تذهبي ولو قدرت على السفر؟»

فقالت: «لا أقدر — لا أقدر — انتهى الأمر ... ولست أفكر في هذا أبدًا.»

فقلت: «إذن لم يرد إليك مالك؟»

فبدأت تقول: «أرجو ... أرجو ...»

ثم أمسكت، وكانت تنظر إلى الباب، فقد تأدى إلينا من ورائه حفيف ثوب، ووقع قدم.

ونظرت مثلها إلى الباب، وكان مفتوحًا؛ فظهرت فيه سيدة أخرى على عتبه، وجاء ورائها شاب، وأحدت السيدة النظر إليّ جدًّا، وطال لحظها حتى وسعني أن أنقش صورتها على لوح صدري، ثم التفتت إلى كارولين سبنسر، وقالت بنبرة أجنبية واضحة: «اغتفري لي تطفلي، لم أكن أعرف أن معك أحدًا؛ فقد دخل السيد في سكون تام.»

وردت إليّ لحظها مرة أخرى.

وكانت غريبة حقًّا. ومع ذلك كان أول ما وقع في نفسي أني

رأيتها من قبل، ثم أدركت أنني إنما رأيت سيدات يشبهنها، ولكنني رأيتها بعيداً جداً من جريمونتر، فأحدثت لي رؤيتها هنا إحساساً غريباً، فإلى أين يحملني مرآها؟ إلى باب مفتوح على غرفة مقدمة قدرة، وإلى سيدة تميل على درابزين وعلى ذراعها مشملة باهتة الألوان، وهي تصيح بالخدمة أن تصعد إليها بالقهوة.

وكان ضيفة الأنسة سبنسر سيدة ضخمة، جاوزت ميعة الشباب، ووجهها السمين في مثل صفرة الموت، وشعرها مسرح إلى الخلف على الطريقة الصينية، وعينها صغيرة، ولكن نظرتها حادة نافذة، ولها ما يسميه الفرنسيون ابتسامة مرضية، وكانت ترتدي طيلساناً قديماً قرمزيّاً من الكشمير موشى بنقوش بيض. وكانت — كالصورة التي رفعتها ذاكرتي لعيني — تضم طرفيه أمامها بذراع عارية مستديرة، ويدبضة كثيرة الخطاط.

وقالت للآنسة سبنسر: «إنما جئت لأذكرك بقهوتي، فلإني أرجو أن ترسل إليّ في الحديقة تحت الشجرة الصغيرة.»

وكان الشاب الذي خلفها قد دخل الغرفة ووقف ينظر إليّ، مثلها، وهو شاب جميل المحيا، وعليه سيما الريفي المتأنق، وله أنف دقيق معتدل القصبة، وذقن صغيرة حادة، وقدمان

لم أر أصغر منهما أو أدق، وكان ينظر إليّ كالأبله وفمه مفتوح.

وقالت الأنسة سبنسر وعلى خديها جمرتان طاقتان:
«ستجيئك القهوة.»

وقالت السيدة ذات الطيلسان: «حسن» والتفتت إلى الشاب
وقالت: «هات كتابك.»

فأدار عينه في الغرفة وقال بصوت من لا حيلة له: «أتعنين
أجروميتي؟»

وكانت السيدة ترشقني بلحظها متعجبة، وتضم طرفي
كسائها بذراعها البيضاء وتقول: «هات كتابك يا صديقي.»

فقال وهو يرميني بعينه: «هل تعنين ديوان الشعر؟»

فقالت صاحبتة: «لا بأس! دع الكلام، ولنتمش اليوم.
وستحدث. ولكنه لا ينبغي لنا أن نقطع عليهما حديثهما،
تعال.» واستدارت وهي تقول للآنسة سبنسر على سبيل
التذكير: «تحت الشجرة الصغيرة.»

ورمت إليّ ما يشبه التحية، وكلمتي «أيها السيد» وانصرفت،

والشاب في إثرها.

ووقفت كارولين سبنسر وعينها على الأرض.

فسألتها: «من هذه؟»

— «الكونتيسة، زوجة ابن عمي.»

— «ومن هذا الشاب؟»

— «تلميذها، المستر مكستر.»

فأغراني وصف العلاقة بين هذين الشخصين اللذين غادرا
الغرفة، بالضحك، فنظرت إليّ الأنسة سبنسر بجد وقالت:
«إنها تدرس اللغة الفرنسية، فقد فقدت ثروتها.»

قلت: «يظهر أنها مصممة على ألا تكون حميلة على أحد،
وهذا هو الواجب.»

فصوبت كارولين عينها إلى الأرض مرة أخرى وقالت: «يجب
أن أذهب لأعد لها القهوة.»

فسألته: «هل لها تلاميذ كثيرون؟»

قالت: «المستر مكستر تلميذها الوحيد، وهي تهبه وقتها كله.»

ولم أستطع أن أضحك من هذا، وإن كنت قد أحسست بالاستفزاز، فقد كانت الأنسة سبنسر جادة جدًّا، وما لبثت أن قالت ببساطة: «إنه يدفع أجرًا حسنًا، فهو غني جدًّا، ورقيق وعطوف جدًّا، يخرج بها في مركبته للتنزه.»

وهمت بأن تمضي فسألته: «أذهبة أنت لإعداد قهوة الكونتيسة؟»

— «إذا أذنت لي ... بضع دقائق.»

— «أليس هنا أحد غيرك يستطيع أن يعدّها لها؟»

فرمت إليّ نظرة عذبة السكون وقالت: «ليس لي خدم.»

فسألته: «ألا تستطيع أن تخدم نفسها؟»

— «لم تتعود هذا.»

فقلت بأرق لهجة أقدر عليها: «مفهوم. ولكن قبل أن تذهبي، خبريني من هذه السيدة؟»

— «لقد أخبرتك من قبل، في ذلك اليوم. زوجة ابن عمي الذي رأيته.»

— «السيدة التي نبذتها أسرتها على إثر زواجها؟»

— «نعم. ولم ترها أسرتها بعد ذلك أبدًا. نبذتها كل النبذ.»

— «وأين زوجها؟»

— «مات»

— «وأين مالك؟»

فانتفضت المسكينة من حز الألم، فقد كانت أسئلتني واضحة السياق، جلية الغاية. وقالت بضجر وتعب: «لا أدري.»

وألححت في خطتي فسألتها: «وبعد أن مات زوجها جاءت السيدة إلى هنا؟»

— «نعم، جاءت ذات يوم.»

— «وكم لها هنا؟»

— «ستتان.»

— «وبقيت مذ جاءت؟»

— «طول الوقت.»

— «وكيف رضاها عن مقامها هنا؟»

— «ليست راضية.»

— «وكيف رضاك أنت؟»

فأخفت وجهها بين كفيها لحظة، كما فعلت قبل عشر دقائق، ثم خرجت بسرعة لتعد قهوة الكونتييسة.

وبقيت وحدي في الغرفة، فقد أردت أن أرى فوق ما رأيت، وأن أعرف أكثر مما عرفت. وبعد خمس دقائق أقبل الشاب الذي قالت الأنسة سبنسر إنه تلميذ الكونتييسة، ووقف

ينظر إليّ وشفته متباعدتان، فلم يخالجنني شك في أنه شاب
غريب جداً.

وأخيراً قال: «إنها تريد أن تعلم هل تحب أن تخرج إليها؟»

— «من هو الذي يريد أن يعلم؟»

— «الكونتيسة ... تلك السيدة الفرنسية.»

— «هل طلبت منك أن تحيئها بي؟»

فقال بضعف وهو يتأمل قامتي الطويلة: «نعم يا سيدي.»

فخرجت معه فألفينا الكونتيسة جالسة في ظل شجرة من
الأشجار الصغيرة المغروسة أمام البيت. وكانت تعمل
بالإبرة في رقعة النسيج التي كانت على المنضدة، وتلطف
فأومأت إليّ أن أقعد على الكرسي إلى جانبها، ففعلت.
وتلفت المستر مكستر ثم قعد على الحشيش عند قدميها.
ورفع عينه، وراح ينقلها من وجه الكونتيسة إلى وجهي.

وقالت الكونتيسة وهي ترشقني بعينيها الصغيرتين البراقتين:
«إني واثقة أنك تتكلم الفرنسية.»

فقلت بالفرنسية: «نعم يا سيدتي إلى حد ما.»

فصاحت: «أرأيت! لقد فطنت إلى ذلك من أول نظرة؛ لا شك أنك أقمت في بلادي.»

— «زمنًا طويلًا.»

— «وتعرف باريس؟»

«أتم معرفة يا سيدتي.» وتعمدت أن أنظر إليها، في عينيها.

فما لبثت أن حولت عينيها وصوبتها إلى تلميذها المستر مكستر، وسألته: «في أي شيء كنا نتكلم؟»

فرفع ركبتيه، وقلع بعض الحشيش، واضطرم وجهه وهو يقول: «إنكما تتكلمان بالفرنسية.»

فقالت الكونتيسة: «لي عشرة أشهر وأنا أدرس له. لا تخف أن تقول إنه أبله، فلن يفهم.»

فقلت: «أرجو أن يكون تلاميذك الآخرون أبعث على رضاك.»

– «ليس لي تلميذ غيره، فإنهم لا يعرفون ما اللغة الفرنسية، ولا يحفلونها هنا ولا يريدون أن يعرفوها، ففي مقدورك أن تتصور سروري بلقاء من يتكلمها مثلك.»

فأجبت بأن سروري ليس دون سرورها، وأقبلت على النسيج تعمل فيه إبرتها وخنصرها مثني، وكانت كل بضع دقائق تدني عينها مما تصنع على نحو ما يفعل قصيرو النظر. فوقع في نفسي منها أنها شخص بغيض، فقد كانت خشنة غير مصقولة، ومتكلفة خائنة، وليست كونتيسة ولا شيئاً من هذا القليل، كما أني أنا لست خليفة.

وقالت: «حدثني عن باريس. فإن ذكر اسمها بمجرد يحرك نفسي. كم لك مذركتها؟»

– «شهران.»

– «ما أسعدك! حدثني عنها. قل لي ماذا يصنعون هناك؟
إيه ما أشوقني إلى ساعة واحدة في البوليفار؟»

– «إنهم يصنعون ما لا يزالون يصنعون، يتسلون على قدر ما يسعهم!»

فتنهدت وقالت: «في المسارح؟ وفي المراقص؟ وحول المناضد الصغيرة أمام الأبواب؟ يا لها من حياة! إنك تعرف أنني باريسية من رأسي إلى قدمي.»

فتشجعت وقلت: «إذن كانت الأنسة سبنسر مخطئة حين قالت لي: إنك من بروفنس.»

فحدقت أمامها لحظة ثم دست أنفها فيما تنسج، وقالت: «أنا من بروفنس مولدًا، ولكنني باريسية هوى.»

فقلت: «وتجربة أيضًا فيما أظن؟»

فتفرست هنيهة في وجهي بعينيها الحادثين وقالت: «التجربة! في وسعي أن أتحدث عن التجربة إذا شئت، فما كنت أتوقع مثلاً أن تدخري التجربة هذا»، وأشارت بكوعها العاري وبهزة من رأسها إشارة تشمل كل ما يحيط بها البيت الصغير، والشجرة، والسياج، والمستر مكستر أيضًا.

فقلت بابتسامة: «إنك في منفى.»

— «يمكنك أن تتصور أي منفى هو! السنتان اللتان قضيتهما هنا عشتها ساعة فساعة، والمرء يعتاد الأشياء والحالات،

ويخيل إليّ أحياناً أنني ألفت هذا. ولكن هناك أشياء ولا تزال
تبدأ من جديد، قهوتي مثلاً.»

فسألتها: «أتشربين القهوة دائماً في هذه الساعة؟»

فرمت رأسها إلى الوراء وراحت تفحصني وتزني.

وقالت: «في أية ساعة تفضل أن أشرب قهوتي؟ إنه لا بد لي
من فنجان قهوة بعد الإفطار.»

— «آه! الإفطار في هذه الساعة؟»

— «في منتصف النهار، هنا يفطرون بعد الساعة السابعة بربع
ساعة... وقت ظريف!»

فقلت بلهجة العطف: «ولكنك كنت تحدثيني عن
قهوتك؟»

فقالت: «إنها (تعني كارولين) لا تؤمن بها، ولا تستطيع أن
تفهمها. هي فتاة رائعة، ولكن فنجان القهوة وعليها قطرة
من الكونياك، في هذه الساعة، هذا يتجاوز نطاق فهمها
وإدراكها، فأنا مضطرة أن أنبهها كل يوم، وأنت ترى ما

يستغرقه من الوقت صنع هذه القهوة، ووصولها إليّ، وعندما تصل ... آه يا سيدي، لا تلمني إذا لم أقدم لك شيئاً منها، فإنني أعرف أنك شربتها في البوليفار ...»

فحز في نفسي هذا التحقير لمروءة كارولين سبنسر وكرمها، ولكنني اتقيت أن أقول شيئاً اجتناباً لإساءة الأدب، ونظرت إلى المستر مكستر الذي طوق ركبتيه بساعديه، وقعد يرقب حركات الكونتيسة وهو مفتون، ولاحظت هي أي أتأمله، وألقت إليّ نظرة وابتسامة تفسيرية جريئة، وقالت: «إنك ترى أنه يعبدني.» ودست أنفها ثانية فيما تطرز، فأعربت لها عن تصديقي لذلك، واقتناعي به، ومضت في كلامها فقالت: «إنه يحلم بأن يكون عشيقتي. نعم، هذا حلمه. وقد قرأ رواية فرنسية ... من عمره ستة شهور ... وما زال منذ ذلك الوقت، يتوهم أنه هو البطل وأنا البطلة.»

وكان من الجلي أن المستر مكستر لم يخطر له أنه موضوع كلامها، فقد كان ذاهلاً عن ذلك بما هو فيه من نشوة التأمل. وفي هذه اللحظة برزت كارولين سبنسر من البيت تحمل إبريق القهوة على صحن صغير، ولاحظت أنها وهي تقطع المسافة من الباب إلى المنضدة، ألقت إليّ نظرة خاطفة، نظرة توصل غامض. ولم أدر ماذا تعني بها، وحسبت أن المراد أنها اشتاقت، وهي واجفة الفؤاد، أن تعرف رأي خبير

بالحياة عاش في فرنسا مثلي، في الكونتيسة، ولم أسترح إلى هذا الظن، فما كان يسعني أن أقول لها إن الكونتيسة ليست على الأرجح سوى زوجة حلاق فرّت منه. وقد حاولت على العكس أن أبدي لها الاحترام والتوقير. ولكنني نهضت. ولم أعد أطيع أن أبقى. وساءني أن أرى كارولين سبنسر واقفة كأنها خادمة!

وقلت للكونتيسة: «هل تتوقعين أن تبقي زمناً آخر في جريمونتر؟»

فهزت كتفيها هزة عنيفة وقالت: «من يدري؟ ربما أقمت هنا سنين، وسنين. متى كان المرء بائساً...» والتفتت إلى الأنسة سبنسر وقالت: «يا عزيزتي لقد نسيت الكونياك.»

واستبقيت كارولين سبنسر حين همت، بعد أن ألقت نظرة صامتة على المنضدة الصغيرة، بأن تذهب لتجيء بالشراب الناقص. ومددت إليها يدي في سكون، مودعاً. وكان التعب بادياً عليها، ولكنه كان على وجهها الصغير الوديع لمحة غريبة من ذخيرة الجلد والصبر. وكبر في وهمي أن انصرافي سرها. وكان المستر مكستر قد نهض وأقبل على إبريق القهوة يصب منه في الفنجان. وخطرت لي وأنا أمر في عودتي بالكنيسة أن الأنسة سبنسر المسكينة كانت موفقة حين قالت لي في الهافر إنها ستري «شيئاً» من أوروبا العتيقة!

هوامش

- (١) الرزان: العاقلة اللازمة لمقعدها.
- (٢) ما أشرف خارجًا عن البناء.
- (٣) اللبیس: ما طال لبسه فأخلق.
- (٤) الحطاط: بشر صغير يظهر في الوجه ويقبح اللون ولا يقرح.
- (٥) الشظف: في الشجرة أن لا تجد ربيها فتخشن وتذهب ندوتها، والقفول: أن تجف الجفوف كله.

أوسكار وايلد

عيد ميلاد الأميرة

كان ذلك عيد ميلاد الأميرة، وكانت قد بلغت الثانية عشر، وكانت الشمس تغمر بنورها حدائق القصر.

ولم يكن لها سوى عيد ميلاد واحد، في كل عام، كغيرها من بنات الفقراء وأبنائهم، وإن كانت أميرة حقيقية، ووارثة عرش إسبانيا، فكان مما تعنى به البلاد كلها أعظم العناية أن يكون اليوم أجمل وأبهى ما يدخل في الوسع، وقد كان اليوم جميلاً حقاً، فاعتدلت أزهار «الطوليب» الطويلة المخططة، على سوقها، كأنها صف من الجند، وشخصت إلى الورود المقابلة لها وقالت: «إننا مثلك الآن نضرة وبهجة». وخفقت الفراشات القرمزية، وعلى أجنتها تراب النضار،

فوق زهرة بعد زهرة. وخرجت السحالي الصغيرة من شقوق الجدران وراحت تضحى في الشمس، وتشقق الرمان من وقدة الحر، وفتح قلبه الدامي، حتى الليمون الأصفر الذي حفلت به أفنانه، أفاد من ضوء الشمس لونًا أزهي، ونورت شجيرات المنوليا، وتفتحت أكمامها عن العاج المطوي، ونشرت في الجو عبرها القوي.

وراحت الأميرة الصغيرة تتمشى على الشرفة مع أترابها، وتلعب معهن لعبة «الاستخفاء» حول الزهريات المصنوعة من الحجر، أو التماثيل التي نمت عليها الأعشاب. وكانت في الأيام العادية لا يؤذن لها في اللعب إلا مع اللواتي هن من طبقتها، فكان لعبها وحدها دائمًا، ولكن عيد ميلادها كان يومًا استثنائيًا، فأمر الملك أن تدعو الأميرة من لداتها من تحب من الجنسين، ليلهوا معها، وكان هؤلاء الأطفال الإسبانيين الدقاق اللطاف سمت، وفيهم رشاقة، وهم ينسابون هنا وهناك؛ الصبيان بقبعاتهم الكبيرة المريشة، ومعاطفهم القصيرة، والبنات وهن يمسكن فضل أفوافهن المنفوشة الموشاة بخيوط الذهب والفضة، ويحجن الشمس عن عيونهن بمراوح كبيرة سوداء مفضضة. ولكن الأميرة كانت أرشقهن جميعًا وأبرعهن ثيابًا على ما كان يقضي به ذوق تلك الأيام. وكان ثوبها من الأبريسم، وقد وُشى بحوله^١ وكماه المنتفخان بالفضة، أما الصدر^٢ فمرصع بوسائل من اللآلئ العجيبة، وكان على رجليها حذاءان

لطيفان مزدانان بوردتين كبيرتين قرمزيتين، يدوان من تحت ذلاذل ثوبها إذ تمشي، وكانت مروحتها الكبيرة من أسلاك لؤلؤية وقرمزية الألوان، وكان شعرها كأن عليه هالة من العسجد الباهت، وكان ينسدل على جانبي محياها الدقيق الحائل اللون وفيه وردة بيضاء جميلة.

وكان الملك الحزين يشرف عليهم من نافذة في قصره، وخلفه أخوه — دون بدرو أمير أراغون، وكان الملك شديد الكراهة له — وقسيسه — رئيس محكمة التفتيش في غرناطة — وهو جالس بجانبه. وكان الملك يبدو في يومه هذا أشد حزنًا وأسى، فقد كان وهو ينظر إلى الأميرة وهي تنحني بوقار صيباني لرجال الحاشية المجتمعين، أو تضحك وتستر وجهها بالمروحة، من دوقة ألبوكيرك الصارمة الوجه، التي لا تفارق الأميرة، ينثني به الخاطر فيتذكر الملكة الشابة — أم الأميرة — التي جاءت منذ عهد قصير — هكذا كان يخيل إليه — من بلاد فرنسا المرححة، فذوى غصنها الرطيب في بلاط إسبانيا الجهم على فرط أهبته، وقضت نحبها بعد ستة شهور من ميلاد الأميرة، وقبل أن ينور شجر اللوز في البستان ويظهر بهجته وزهرته مرة ثانية، أو تُجنى ثمار الحول الثاني من شجرة التين القديمة المعجزة^٣ التي كانت قائمة في الساحة التي يكسوها العشب الآن. وقد بلغ من عظم حبه لها أن أبى أن يدع القبر يحجبها عنه، فحفظها طيب عربي جازاه على ذلك بالإبقاء على حياته التي كان مقضيًا عليها

لكفره وسحره، فلا يزال جثمانها يرقد على نعشه المسجف في الهيكل المبني بالرخام الأسود في القصر، مذحله الكهنة إليه في يوم عاصف من أيام مارس/ آذار، منذ اثنتي عشرة سنة، وفي كل شهر مرة، يتلفع الملك بملحفة سوداء، ويحمل في يده مصباحاً مخنوق الضوء ويدخل الهيكل ويركع إلى جانب الجثمان ويصيح: «يا ملكتي! يا ملكتي!» وقد يغلبه الحزن أحياناً، فيتجاوز ما تقضي به التقاليد التي تسيطر في إسبانيا على كل عمل من أعمال الحياة، وتضع حدوداً حتى لحزن الملك، فيقبض على اليدين الصفراوين المزدانين بالخلي، وقد ذهب بلبه حرقات الكمد، ويحاول بقبلاته الجنوبية أن يرد الحياة إلى المحيا الباهت المصبوغ.

وكان يراها اليوم، مرة أخرى، كما رآها أول مرة في قصر «فينتبيلو»، وكان هو يومئذ في الخامسة عشر من عمره، وكانت هي أصغر، وقد عقد خطبتها حينئذ السفير البابوي بحضور ملك فرنسا ورجال الحاشية أجمعين، ثم عاد إلى الإسكوريال يحمل حلقة صغيرة من شعر ذهبي، وذكرى شفتين رقيقتين تنحني بهما على يده لتلثمها، وهو يستقل المركبة، ثم كان الزواج بعد ذلك، فاحتفل به على عجل في برغوس، وهي بلدة صغيرة على الحدود بين المملكتين، ثم الموكب الفخم ساعة دخول مدريد والاحتفال المؤلف في كنيسة «لا أتوشا»، والاحتفال الذي جاوز المؤلف بتسليم حوالي ثلاث مائة من الكفار والملاحدة — بينهم إنجليز كثيرون — للسلطة المدنية لإحراقهم.

وكان حبه لها على التحقيق حب جنون، ومن رأي الكثيرين أنه أضرب بذلك بلاده التي كانت يومئذ في حرب مع إنجلترا في سبيل الاستيلاء على العالم الجديد. وكان لا يكاد يتركها تغيب عن عينه، وفي سبيلها نسي — أو خيل إلى الناس أنه نسي — شئون الدولة الخطيرة، وأعمى الحب الجامع بصيرته — كما هو شأنه دائماً — فعجز عن أن يرى أن المراسم الدقيقة التي أراد أن يدخل بها السرور على قلبها زادت داءها الغريب تفاقمًا، فلما ماتت ظل زمنًا ما، كالمذهوب بعقله، بل إنه ما من شك في أنه كان حقيقًا أن ينزل عن العرش، ويدخل دير غرناطة — وكان هو رئيسه الفخري — لولا أنه خشي أن يترك الأميرة الصغيرة تحت رحمة أخيه، الذي كان مشهورًا في إسبانيا بالقسوة وغلظ الكبد، والذي يزعم كثيرون أنه كان السبب في موت الملكة، فقد أهداها، على ما يقال، قفازين مسمومين لما زارت قصره في أراغون. حتى بعد أن انقضت أعوام الحداد العام الثلاثة التي أمر بها في مملكته، لم يسمح قط لوزرائه بأن يخاطبوه في عقد زواج جديد. ولما كتب إليه الإمبراطور نفسه يعرض عليه يد بنت أخيه أرشيدوقة بوهيميا الجميلة، كان جوابه لسفرائه أن قولوا لمولاكم إن ملك إسبانيا قد رُوجَ الأسى، وإنها لعروس عاقر، ولكنها أحب إليه من الجمال، وقد كلفه هذا الجواب ثمنًا غاليًا، ففقد تاجه إقليم البلاد الواطئة الخصب الذي ما لبث، بإيعاز من الإمبراطور أن ثار بزعماء بعض المتهوسين من رجال الإصلاح الديني.

وتمثل لعينيه وهو يرقب الأميرة إذ تلعب في الشرفة، عهد زواجه كله بأفراحه العنيفة المتوهجة الألوان، والحركات الكاوية التي كان بها ختام ذلك العهد، وكان في الأميرة من أمها سرعة البادرة وحدة الطباع، وهزة رأسها إذ تنجح إلى العناد، وتقويصة فمها الجميل الواشية بكبرياء النفس، وابتسامتها الخلابة إذ ترفع رأسها من حين إلى حين، وترمق النافذة، أو تمد راحتها الصغيرة لكبراء إسبانيا ليلثموها، ولكن ضحكات الأطفال العالية كانت تسك مسامع الملك، كما كان نور الشمس القاسي الوهاج يسخر من أساه، وكان يشوب هواء الصباح الصافي فيما يحس أو يتوهم، أرج بخور غريب شبيه بما يتخذه المحنطون، فدفن وجهه في يديه، فلما صعدت الأميرة طرفها كانت الأستار قد أسدلت، والملك قد دخل.

فأبدت علامة امتعاض، وهزت كتفيها. أفما كان في وسعه أن يظل معها في يوم عيدها؟ ما قيمة شئون الدولة السخيفة هذه؟ أم تراه قد ذهب إلى ذلك الهيكل القائم الذي لا تنطفئ فيه الشموع والذي لا يؤذن لها في دخوله؟ وتالله ما أحققه إذا كان قد ذهب إلى هناك وترك هذه الشمس المشرقة وزهد في السعادة التي ينعم بها كل أحد. وستفوته مصارعة الثيران التي بدأت الأبواق تنفخ إيذاناً بها، وألعاب القراقوز وغيرها من المتع والمسرات، ألا إن عمها ورئيس محكمة التفتيش لأرشد وأهدى سبيلاً، فقد خرجا إلى الشرفة وسراها

وشرحا صدرها بالتحيات والتهنئات. وهزت الأميرة رأسها مرة أخرى وتناولت يد «دون بدرو» ونزلت من السلم إلى سرادق طويل من الحرير القرمزي نصب في آخر الحديقة، وتبعها الأطفال المدعوون على ترتيب درجاتهم ومنازلهم، فأطولهم أساء أسبقهم وأحقهم بالتقديم.

...

وتقدم موكب من الصبيان الأشراف في أفواف موشاة، ومطارف من السندس والأبريسم لاستقبال الأميرة، وأقبل «كونت تيرا نويفا» وهو غلام بارع الحسن يناهز الرابعة عشر، ونزع قبعته برشاقة من وُلد وشب في بيوت السيادة والمجد وصحبها إلى كرسي صغير مذهب ومطعم بالعاج على منصة مرفوعة تشرف على الساحة. وانتظم الأطفال الآخرون صفوفًا حولها، وهم يهزون مراوحهم الكبيرة، ويتهامسون فيما بينهم، ووقف دون بدرو ورئيس محكمة التفتيش في المدخل يضحكان. حتى الدوقة — وهي امرأة نحيلة معروقة صارمة معارف الوجه — لم تكن كالمعهود فيها من الشراسة وسوء الخلق، فمر بوجهها المغضن طيف ابتسامة اختلجت لها شفتاها الرقيقتان الظمياوان. ٤

وكانت مصارعة الثيران الصورية بديعة جدًا، وحدثت الأميرة نفسها أنها أمتع من تلك المصارعة الحقيقية التي حملوها إلى سيفيل لمشاهدتها لما زار دوق بارما والدها، وكان

بعض الغلمان يتوقصون ويقربون^٥ على خيول صناعية زاهية السرج، وبأيديهم حراب طويلة محلاة بأشرطة مختلفة الألوان، وكان آخرون منهم يروحون ويحيئون وينشرون المطارف الأرجوانية أمام الثور، فإذا هجم عليهم قفزوا خففاً من فوق السور. أما الثور فكان أشبه شيء بثور حقيقي وإن كان مصنوعاً من أعواد وجلد مُصْحَب^٦. وكان يأبى أحياناً إلا أن يذهب يعدو حول الساحة من داخلها، على قائمته الخلفيتين، وهو ما لا يحلم ثور حقيقي بأن يفعلهُ. وقد أبلى في المصارعة بلاء حسناً حتى لقد كان الأطفال ينهضون عن مقاعدهم ويلوحون بمناديلهم المطرزة ويصيحون، هاتفين بالثور: «مرحى يا ثور! مرحى يا ثور» كما يفعل الكبار — وأخيراً بعد صراع طويل أُرديت فيه خيول صناعية عديدة وترجل فرسانها، استطاع كونت تيرا نويفا (الأرض الجديدة) أن يلقي الثور على ركبته على هيئة المتكئ، ثم استأذن الأميرة في الإجهاز عليه، وغرز سيفه الخشبي في عنق الثور بعنف ففصله عن سائر الجسد، وبرز محيا صغير مشرق هو محيا «دي لورين» ابن السفير الفرنسي في مدريد.

وأُخليت الساحة بين التصفيق والصياح، وأُخرجت الجياد الصناعية — جرّها اثنان من الخدم في ثياب صفراء وسوداء — وبعد فترة وجيزة لعب فيها فرنسي على جبل مشدود، ظهر «قرقوز» إيطالي على مسرح صغير أعد له، وقد كان

التمثيل جيداً، والحركات طبيعية متقنة حتى لقد اغرورقت عين الأميرة بالدموع في ختام الفصل. بل لقد بكى بعض الأطفال، فكان لا بد من التسمية عنهم بالحلواء، حتى رئيس محكمة التفتيش نفسه قال لدون بدرو: إن مما لا يطاق أن تشقى وتتعذب بمثل هذه المصائب الكُبر أشياء مصنوعة من الخشب والشمع الملون تحركها أسلاك خفية بطريقة آلية.

وجاء بعد ذلك «حاو» أفريقي يحمل سلة واسعة روحاء^٧ مغطاة ووضعتها في وسط الساحة، وأخرج من عمامته قصبه جعل يشيع فيها وينفخ، فبدأ الغطاء يتحرك وعلا صوت المزممار فأطل ثعبانان أخضران برأسيهما العجيين اللذين يشبهان الوتد، وجعلا يرتفعان ببطء ويتمايلان على صوت الزامر تمايل النبات في الماء. غير أن الأطفال أفزعهما منظر الرأسين المنقطين واللسانين الدقيقين البارزين، وكان سرورهم أعظم لما استنبت الحاوي الأرض شجيرة برتقال منورة تتهدل أغصانها بالثمار الحقيقية. ولما أخذ مروحة ابنة المركيز ده لاس توريس فانقلبت عصفوراً أخضر يطير حول السرادق، وهو يغرد، جاوز سرورهم كل حد. وكانت الرقصة الدينية التي رقصها الغلمان الآتون من كنيسة «نويسترا سينورا دل بيلار» جميلة. ولم تكن الأميرة قد شاهدت من قبل هذا الرقص البديع الذي يجري كل عام في الربيع أمام مذبح العذراء العالي، بل إنه ما من

أحد من الأسرة المالكة في إسبانيا دخل ساراتوجا الكبيرة مذ حاول قسيس مجنون، يقال إن اليصابات ملكة إنجلترا كانت تستخدمه، أن يطعم أمير أستوريا كعكة مسمومة. لهذا لم تكن الأميرة تعرف «رقصة العذراء» — كما كانت تسمى — إلا سماعاً، لا عياناً، والحق أنها كانت رقصة جميلة. وكان الغلمان يرتدون ثياباً من المخمل الأبيض عتيقة الطراز، وكانت قبعاتهم المثلثة لها حافة مفضضة، وعليها ريشات كبيرة من ريش النعام، فكان يريق أرديتهم البيضاء الناصعة يزداد لمعاناً إذ يخطرون في نور الشمس، ويضاعف النضوع وجوههم السمراء وشعرهم الطويل الدجوجي. وقد سحروا النظارة بأبهتهم وسمتهم إذ يقومون بحركات الرقصة المعقدة، ورشاقة إيحاءهم البطيئة وانحناءاتهم، فلما انتهوا من ذلك ونزعوا قبعاتهم المريشة وانحنوا بالتحية للأميرة قبلت منهم التحية بتلطف، ونذرت فيما بينها وبين نفسها أن تهدي شمعة عظيمة لمعبد العذراء تجزية لها على ما سرتها به في يومها هذا.

ثم تقدم صف من المصريين ذوي القسامة — كما كان الغجر^٨ يسمون في ذلك الزمان — وقعدوا القرفصاء في حلقة، وأنشئوا يعزفون برقة وعذوبة على قيثاراتهم ويحركون أجسامهم على أنغامها ويغنون، وكأنها يهمسون صوتاً شجياً، وكانوا إذا أخذت عيونهم دون بدرو، يزلقونه بأبصارهم متسخطين متجهمين، وربما بدا على بعضهم الذعر، فقد

شئق اثنين من قبيلتهم في سوق سيفيل بدعوى أنهما من السحرة، ولكن الأميرة كانت تفتنهم وتسحر ألبابهم وهي مضطجعة ومشخصة ببصرها إليهم لا تصرفه عنهم من فوق مروحتها، وكان يقينهم وهم يلحظونها أن من كان له مثل جمالها لا يمكن أن تكون فيه قسوة أو جبروت. ومن أجل هذا جعلوا يعزفون برقة ولا يكادون يلمسون أوتار القيثارات بأظافرهم الطويلة المحددة، وكان رءوسهم تحفق كأن النعاس يغالبها ويثنيها. وإذا بهم ينتفضون ويثبون إلى أقدامهم فجأة ويطلقون صيحة عالية مجلجلة ذعر منها الأطفال، واثنت يد دون بدرو إلى مقبض خنجره المحلى، وانطلقوا كالعاصفة يعدون حول الساحة ويقرعون طبولهم، ويضربون بدفوفهم، ويغنون صوتًا فيه غزل جامح بلغتهم الغريبة. ثم أوماً إليهم رئيسهم فارتموا على الأرض كرة أخرى والتزموا السكون فلم يكن يسمع إلا هزيج الأوتار الخفيف. وكرروا هذا عدة مرات اختلفوا بعدها، ثم برزوا يجرون دبة كثيفة الشعر، من سلسلة، وعلى أكتافهم قردة صغار. ووقفت الدبة على رأسها، ولعبت القردة المفطومة ألعاباً شتى مسلية، مع اثنين من الغجر كانا على ما يظهر هما اللذان يدربانها، فكانت القردة تتضارب بسيوف صغيرة قصيرة وتطلق بنادق، وتقوم بالتدريب العسكرية المنتظمة كما يفعل حرس الملك سواء بسواء. فكان الغجر موفقين وفازوا بإعجاب المشاهدين أجمعين.

ولكن أمتع الملاهي كلها بلا شك رقص القزم الصغير،
فما كاد يدخل الساحة متعثراً، ويمشي متكفّفاً في جانبيه،
متخلعاً يهز منكبيه، ويميل رأسه العظيم المشوه الخلق في
هذه الناحية مرة، وفي تلك مرة أخرى، حتى ضج السامر
بصيحات الجذل، وراحت الأميرة نفسها تضحك وتكركر
مستغربة في ذلك حتى اضطرت وصيفتها أن تذكرها بأن
هناك سوابق في إسبانيا تحيز أن تبكي ابنة الملك على مرأى
من أترابها ولداتها، ولكنه ليس هناك ما يبيح للأميرة من
نسل الملك أن تظهر مثل هذا الطرب والسرور على مرأى
ممن هم دونها مولداً وأصلاً. ولكن الحقيقة أن القزم كان
وقعه في النفس لا يُغالب أو يقاوم، وقد كان البلاط الإسباني
مشهوراً بحبه للفظيع والشنيع، ولكن مثل هذا المخلوق
العجيب لم يُر فيه من قبل. وكانت هذه أول مرة ظهر
فيها القزم، فما عثروا عليه إلا في اليوم السابق، وكان يعدو
في الغابة، واتفق أن كان اثنان من النبلاء قد خرجا للصيد
والقنص في ناحية قصية من الغابة العظيمة المحيطة بالمدينة،
فحملاه معها إلى القصر، هدية لم تكن في الحسبان، للأميرة،
وكان أبوه رجلاً فقيراً، فسرّه أن يتخلص من طفل دميم
مشوه مثله، لا خير فيه ولا جدوى منه. ولعل أبعث ما في
الغلام على التسلية والمسرة أنه كان غافلاً ذاهلاً عن دمامته
وقبح منظره، لا يدري من هذا الأمر شيئاً، بل لقد كان بيّن
السعادة واضح الابتهاج والمرح، وكان إذا ضحك الأطفال،
يضحك مثلهم وبه ما بهم من خفة الفرح والجذل، وكان

في آخر كل رقصة ينحني لهم أغرب انحناء وأدعاه إلى الضحك، ويبتسم ويهز رأسه لهم كأنما كان واحداً منهم، لا خلقاً مشوهاً صاغت منه الطبيعة ضحكة للآخرين. وقد سحرته الأميرة واستولت على هواه، فكان لا يستطيع أن يحول عينه عنها، وكأنما كان يختصها برقصه، وفي آخر اللعب تذكرت الأميرة أنها رأت سيدات البلاط يلقين طاقات الزهر على كافاريلي المغني الإيطالي المشهور، الذي اختاره البابا من رجال هيكله الخاص وبعث به إلى مدريد ليذهب من حزن الملك ويُجلّد قلبه على مصابه، بحلاوة صوته وعذوبة غنائه، فانترعت من شعرها الوردية البيضاء، على سبيل المزاح من ناحية، ولتكايد الوصيفة وتعايشها من ناحية أخرى، ورمّت بها إلى القزم في الساحة وهي تفتّر له عن أعذب ابتساماتها، فتناولها جاداً، وأهوى عليها بشفتيه الغليظتين الخشتين، ووضع يده على قلبه، وجثا على ركبتيه أمامها، وفمه مفتوح من أذن إلى أذن، وعينه تلمع سروراً، فغلب الضحك الأميرة حتى لقد ظلت تُرجع فيه بعد أن خرج القزم من الساحة بزمان طويل، وأعربت لعمها عن رغبتها في أن تعاد الرقصة، ولكن الوصيفة قالت إن الشمس حامية جداً، ورأت أن الأصوب أن ترجع الأميرة من تؤتها إلى القصر، حيث أعد مقصف فاخر لها، وكعكة بديعة لعيد ميلادها، سُطرت عليها الحروف الأولى من اسمها بالسكر الملون، ورفع فوقها علم جميل من الفضة. فنهضت الأميرة، وأمرت أن يرقص لها القزم مرة أخرى بعد أن تأخذ

حظها من الراحة، وشكرت للكونت الصغير ده تيرا نويفا
(الأرض الجديدة) حسن استقباله لها وحفاوته بها، وعادت
إلى الجانب المفرد لها في القصر، يتبعها الأطفال على الترتيب
الذي جاءوا به.

...

ولما سمع القزم أن عليه أن يرقص ثانية أمام الأميرة، وأن
هذا هو أمرها الصريح فرح فرحاً عظيماً، وامتلات نفسه
زهواً، فخرج يعدو إلى الحديقة وجعل يبوس الزهرة البيضاء
من فرط سروره وابتهاجه، ويأتي من حركات الجذل والخفة
أغربها وأبعدها من الظرف والرشاقة.

وقد أغضب «الأزهار» أنه اجترأ على التطفل عليها في
حديقته الجميلة، ولما رآته يقفز في الماشي والممرات، وهو
يروح ويجيء فيها، ويلوح بذراعيه فوق رأسه على نحو
سخيف، لم تستطع أن تكبح شعورها.

فقالت أزهار الطوليب: «إنه في الحقيقة دميم جداً، ولا يليق
أن يُسمح له باللعب في أي مكان نكون فيه.»

وقالت أزهار السوسن القرمزية الكبيرة: «ينبغي أن يُسقى
عصير الخشخاش وينام ألف سنة»، واضطربت غلاثلها
من حدة الغضب.

وصاحت الصّبارة: «إنه هولة مفزعة! كل ما فيه أعوج، ناقص، مشوه، وليس بين رأسه ورجليه أي تناسب، وإني لأشعر حين أراه بالوخز في كياني كله، وقد آليت أن أشكه بشوكي إذا دنا مني.»

وقالت شجيرة الأزهار البيضاء: «إن معه زهرة من أجمل أزهارى، وكنت قد أهديتها للأميرة بنفسى هذا الصباح، في عيدها، فسرقتها منها.»

وراحت تصيح بأعلى صوت: «لص! لص! لص!»

حتى زهرة الخبيزي المشهورة بالدعة والتواضع، التي يكثر بين ذوي قرباها أهل الفقر والمترية، سخطت عليه لما بصرت به، ولما قالت أزهار البنفسج إنه حقيقة دميم، ولكن لا حيلة له في هذا، لأنه ليس ذنبه، ردت عليها تلك بأن هذا عيبه، وأنه ليس ثم ما يدعو إلى الإعجاب بمخلوق لا سبيل إلى شفائه من دائه، أو إصلاح عيبه وعلاجه، وقد أحست بعض البنفسجات أن القزم يعرض دمايته مبايهاً بها، وأنه كان أمثل به وأدل على حسن الذوق أن يبدي الاكتئاب، أو يظهر على الأقل على هيئة المفكر بدلاً من أن يذهب ينط ويقفز مرحاً، ويتخذ لنفسه هيئات سخيفة قبيحة.

أما الساعة الزوالية التي كانت فيما خلا تبين الوقت للإمبراطور شارل الخامس نفسه فقد راعها منظر القزم الصغير، حتى لقد ذهلت فنسيت أن تشير إلى انقضاء دقيقتين كاملتين بأصبعها الظلي الطويل، ولم يسعها إلا أن تقول للطاووس الذي يضحى في بهو الأعمدة: إن كل واحد يعلم أن أبناء الملوك ملوك، وأن أبناء الفحامين فحامون، ومن السخف أن يدعي أحد أن هذا ليس كذلك.

وهو قول وافق عليه الطاووس أتم موافقة، بل لقد صاح «صحيح! صحيح!» بصوت عال جاف أزعج الأسماك الذهبية الصغيرة التي تسبح في حوض النافورة فأخرجت رءوسها من الماء وسألت تماثيل أرباب البحر عن الخبر.

ولكن العصافير أحبته لسبب ما، وكانت قد رآته من قبل مرارًا في الغابة، يرقص كالعفريت وراء الأوراق التي تعبث بها الرياح وتثور، أو منطويًا على نفسه في فجوة في شجرة قديمة، والطيور تأكل الجوز من يده. ولم تكن العصافير تبالي قبح خلقته أو تعبًا بذلك شيئًا، ومع ذلك ماذا من الجمال في البلب الذي يغرد في الليل في أحراش البرتقال فيصغي له القمر ويهبط قليلًا ليسمعه؟ ثم إن هذا القزم كان يحنو على العصافير ويرق قلبه لها، فكان في الشتاء القارس، الذي يغدو فيه ظهر الأرض صلبًا كالحديد، ويتعرى الشجر فلا

يبقى عليه من الحب أو الثمر ما يُلقط، وتزحف الذئاب إلى قريب من أبواب المدينة التماسًا للقوت، لا ينسى العصافير ولا مرة واحدة، فكان يبقى لها فتاتًا من خبزه الأسود، ويجعل لها نصيبًا من كل طعام يصيبه.

لهذا راحت العصافير تطير حوله في حديقة القصر، وتلمس خده بأجنحتها، وتزقزق فيما بينها، وبلغ من سرور القزم بها أن لم يسعه إلا أن يُريها الزهرة البيضاء الجميلة، وأن يخبرها أن الأميرة نفسها جادت بها عليه لأنها تحبه.

ولم تفهم العصافير مما يقول ولا كلمة واحدة؛ ولكن هذا لم تكن له قيمة، فقد أدنت رءوسها، بعضها من بعض، وبدأت كأنها فاهمة مدركة، وهو ما يعادل الفهم، ويفضله بأنه أسهل.

كذلك أحبته السحالي، فلما تعب من الجري والنط، وقعد على بساط الروض ليستريح راحت تلعب حوله وعلى بدنه، وتحاول أن تسره وتسليه جهد طاقتها. وكانت تقول فيما بينها: «ليس في الإمكان أن يكون كل أحد جميلاً كالسحلية، فإن هذا مرام بعيد ومطلب عسير، ثم إنه ليس بالديميم جدًا، وإن كان هذا القول يبدو غريبًا، على شرط أن يغمض الواحد عينيه ولا ينظر إليه.» والسحالي مطبوعة على

الفلسفة، وكثيراً ما تقضي ساعات وساعات في تفكير عميق إذا لم يكن ثم شيء تصنعه غير ذلك، أو إذا كان الجو مطيراً لا يسمح بالخروج من الشقوق.

وقد ساء الأزهار جداً مسلك السحالي والعصافير، فقال بعضها لبعض: «هذا يرينا أن هذا الجري والطيران المستمرين يفسدان النفس، ويجعلانها سوقية مبتذلة، والمهذبون من الناس يبقون حيث هم، ولا يرحلون مكانهم — مثلنا — وما رأنا قط أحد ننط في ميادين البستان، أو نعدو كالمجانين وراء الذباب. وإذا احتجنا إلى تغيير الجو بعثنا في طلب البستاني فينقلنا إلى أحواض أخرى. وهذا هو الوقار والاحتشام الواجبان، ولكن الطيور والسحالي لا تدرك معنى السكون والرصانة، بل إن العصافير ليس لها عنوان ثابت! وهي أبداً شاردة كالغجر، وينبغي أن تعامل كما يعامل الغجر.» وصعرت الأزهار خدها، كبراً وشموخاً، وُسرت جداً لما رأت القزم ينهض عن الحضرة ويمضي إلى الشرفة فالقصر، وقالت لنفسها: «إنه حقيق بأن يبقى أبداً وراء الأبواب. انظروا إلى ظهره الأحذب وإلى ساقيه المعوجتين!»

وراحت تتهااتف.

ولكن القزم لم يدر شيئاً من هذا كله، وكان يحب العصافير والسحالي حباً جماً، ويرى أن الأزهار أجمل وأعجب ما في

الدنيا كلها، ما عدا الأميرة، ولكن الأميرة أعطته الوردية البيضاء الجميلة، وهي تحبه، فأمرها مختلف جدًا. ولشد ما يتمنى لو أنه رافقها في أوبتها إلى القصر، إذن لجعلته عن يمينها وابتسمت له، فلا يفارقها أبدًا، ويكون ملاعبها ويعلمها كل ضروب اللعب. ولا نكران أنه لم يعيش من قبل في قصر، غير أنه يعرف أشياء كثيرة تروق وتدهش، ففي مقدوره مثلاً أن يصنع أقفاصاً صغيرة من الحصير للصراير تغني فيها، ومن القصب ذي العقل الطويلة يراعة^٩ يشتهي «بان» أن يسمع صوتها وهو يشيع فيها. وهو يعرف صوت كل طائر، ويميز الزرزور من مالك الحزين، ولا يخفى عليه أثر دابة، ويستطيع أن يقفوا الأرنب بما يخلفه من أثر دقيق، والخنزير بما يطؤه من أوراق الشجر، ويعرف كل الرقصات الأبدية — الرقصة العنيفة في الثياب الحمر في الخريف، والرقصة الخفيفة بالخفاف^{١٠} الزرق، على القمح، ورقصة الشتاء، ورقصة الربيع في البساتين والرياض، ويعرف أين تجعل الحمام عشها، وقد حدث مرة أن جاء صائد فأوقع في شركه حمامتين، فتولى هو تربية صغارهما، وبنى لهما عشا صغيراً في فجوة في شجرة وألفته فكانت تأكل من يديه كل صباح. وإن الأميرة لخليقة أن تحب الطير، والأرانب التي تجري في العشب الناهض، وأبا زريق بريشه القوي ومنقاره الأسود، والقنفذ الذي يجعل من جسمه كرة شائكة، والسلاحف الكبيرة الرزينة التي تدلج،^{١١} وتهز رءوسها وتشهها لتأكل من الورق، نعم، يجب أن تذهب الأميرة إلى الغابة وتلعب

معه فيها، وهناك يدع لها فراشه لترقد عليه، ويبقى هو قائماً بحراستها خلف النافذة إلى مطلع الفجر، حتى لا يؤذيها قرن حيوان، أو تدنو من كوخها الذئب الجائعة النحيلة، وفي الفجر ينقر على الشباك ويوقظها، فيخرجان معاً، ويرقصان معاً، طول النهار، وما في الغابة وحشة، فإنه يتفق أحياناً أن يجتازها أسقف على حمار أبيض ومعه كتاب مزخرف يقرأ فيه، وأحياناً يجيء الصقارون، ١٢ وعلى رءوسهم قبعات خضراء من المخمل، وقد اكتسوا ثياباً من جلود الظباء المدبوغة، والصقور على أرساغهم، وفي موسم العنب ترى العصارين مكلي الرءوس، حمر الأيدي والأرجل، ومعهم القرب يقطر منها النبيذ. ويجلس الخطابون في الليل حول الوطيس العظيم يلحظون الأجذال الجافة وهي تحترق ببطء ويشوون الجوز في الرماد، ويخرج اللصوص من كهوفهم وغيرانهم ويحيئون إليهم ويسمرون معهم، وقد رأى مرة موكباً جميلاً في الطريق الطويل المعفر إلى طليطلة، وكان الرهبان في الطليعة يغنون أعذب غناء، ويحملون أعلاماً زاهية وصلباناً من الذهب، وتلاهم الجنود في المغافر ١٣ والدروع والتروس، ومعهم البنادق والرماح وبينهم ثلاثة رجال حفاة يلبسون ثياباً صفراً عجيبة عليها نقوش وصور غريبة وبأيديهم شموع مضاءة. إلا أن في الغابة كثيراً مما يسر ويبهج، وإذا تعبت (الأميرة) فإنه يستطيع أن يجد لها مكاناً معشوشباً ليناً. فيحملها على ذراعيه — فقد كان قوياً، وإن كان يعرف أنه ليس بالطويل — وينظم لها

عقدًا من أطراف العذارى ١٤ فيكون له جمال هذه الأعناب التي تلبسها على ثيابها، وإذا ملتها رمتها، فإنه يستطيع أن ينظم غيرها، ويحيئها بشمار الأشجار وبالأزهار المخضلة واليراعات الوهاجة البريق لتزين بها شعرها الذهبي فتكون فيه كالنجوم المتلاحة.

ولكن أين هي؟ سأل الوردة البيضاء فلم تجبه، وبداله القصر كأنه نائم كله — حتى في حيث لم تغلق النوافذ، أسدلت الأستار الكثيفة لتحجب الضوء، فمضى يحوم حول القصر باحثًا عن مدخل إلى أن انتهى إلى باب صغير كان مواربًا فتسلل منه وألقى نفسه في قاعة فخمة — أفخم وأروع من الغابة، فقد كان كل ما فيها مذهبًا، حتى البلاط كان من قطع كبيرة ملونة مرصوفة على نحو هندسي، ولكن الأميرة لم تكن هناك، ولم يكن ثم سوى تماثيل صغيرة بديعة تنظر إليه من فوق القوائم التي رفعت عليها بعيون بيضاء وشفاه مفترية.

وكان في آخر القاعة سجف من المخمل الأسود المطرز وعليه صور الشمس والنجوم التي كان الملك يؤثرها كشعار له، أفترها مختبئة وراء هذا؟ سيري!

فمشى على أطراف أصابعه إلى السجف ونحاه قليلًا. كلا! كل ما هنالك حجرة أخرى وإن كانت أجمل فيما بدا له من التي

أقبل منها، وكان على الجدران رقعة خضراء مطرزة وعليها صور أناس خارجين للصيد، وقد صنعها فنانون من البلاد الواطئة سلخوا من أعمارهم فيها سبع سنوات. وكانت هذه في بعض الأعصر الخوالي حجرة — «جان المجنون» — كما كان يسمى، ذلك الملك الذي كان مجنونًا بالطراد، فكان كثيرًا ما يحاول أن يمتطي الخيل العظيمة الشديدة الشماس أو الجساح أو الكثيرة التقريب،^{١٥} وأن يصرع الظبي الذي تقفز حوله الكلاب، وهو ينفخ في النفير ويضرب بخنجره، وقد صارت هذه الحجرة تتخذ لمجلس الوزراء، وكان على المنضدة الوسطى فيها محافظ الوزراء الحمراء، وعليها شارة إسبانيا وشعار آل هابسبرج.

وأدار القزم عينيه في الحجرة متعجبًا، وخامره الخوف من الاستمرار، وكان يخيل إليه أن هؤلاء المصورين الذين يركضون بسرعة ومن غير أن يحدثوا صوتًا، مثل تلك الأشباح المربعة التي سمع الخطابين يتحدثون عنها ويقولون إنها تخرج للصيد في الليل، فإذا لقيت إنسانًا قلبته غزالًا وراحت تطارده. ولكنه تذكر الأميرة فتشجع، وكان يريد أن يلقاها وحدها وأن يقول لها إنه هو أيضًا يحبها، فلعلها في الغرفة التي وراء هذه!

وذهب يجري على السجاد المراكشي الناعم الوثير وفتح الباب. كلا! ولا هنا أيضًا! فقد كانت الغرفة خالية.

وكانت هذه قاعة العرش التي يستقبل فيها الملك سفراء الدول الأجنبية. وما أقل ما يفعل الآن. وهي نفس القاعة التي جاء إليها منذ سنوات عديدة رسل من إنجلترا ليتفقوا على التدابير اللازمة لزواج ملكتهم — وكانت يومئذ كاثوليكية — بابن الإمبراطور. وكانت الأستار من جلد قرطبة المذهب، وقد تدلت من السقف المدهون باللونين الأسود والأبيض، شجرة عظيمة تحمل أغصانها ثلاث مائة شمعة. وكان فوق العرش ظلة مذهبة صورت عليها أسود قسطنطينية وصروحها باللالئ الدقيقة، وكان العرش مجللاً بمخمل أسود موشى بأزهار من الفضة، وأطرافه محلاة بالفضة واللؤلؤ، وعلى الدرجة الثانية من منصة العرش مقعد الأميرة وفوقه وسادة كسوتها من نسج الفضة، وتحت هذه الدرجة وفيما يخرج عن نطاق الظلة، كرسي لسفير البابا وكان هذا وحده هو الذي له الحق في الجلوس في حضرة الملك في أي احتفال عام، وكانت قبعته ذات الزر القرمزي، موضوعة على محمل بنفسجي أمام الكرسي. وعلى الجدار المواجه للعرش صورة بالحجم الطبيعي لشارل الخامس في ثياب الصيد وإلى جانبه كلب عظيم، وعلى حائط آخر صورة لفيليب الثاني وهو يستقبل وفد البلاد الواطئة الذي جاء ليعرب عن الولاء والخضوع. وبين النافذتين صندوق من الآبنوس مطعم بصفائح من العاج نقشت عليها صورة «رقصة الموت» لهولبين، ويقول البعض إن هذا المصور هو الذي نقشها بيديه.

ولكن القزم لم يكن يعبأ شيئاً بهذه الأبهة كلها. وما كان ليرضى أن يتعاض من وردته البيضاء كل ما في نسج الظلة من لآلىء، بل ما كان ليستبدل بغلالة واحدة من غلائل وردته، العرش نفسه، وما كان ينبغي سوى أن يرى الأميرة قبل أن تنزل إلى السرادق، ليرجو منها أن تذهب معه بعد أن يقوم برقسته، فقد كان الجو هنا، في القصر، محبوساً خانقاً، وكان له على الصدر جثوم، ولكن الهواء في الغابة حر، ونور الشمس يفرق أوراق الشجر المضطربة بأيدي من الذهب. وهناك في الغابة الأزهار أيضاً. وقد لا يكون لها جمال نظائرها في الحديقة، ونضرتها وبهجتها، ولكنها أزكى أرجاً وأطيب عبيراً، وأشد توهجاً — هناك الحوجم الذي يغمر الوادي والهضاب المنبسطة المعشاب، بحمرته المتوجة، والدَّريب^{١٦} الذي ينمو حول جذور أشجار البلوط، وكل بيضاء وصفراء وحمراء من الأزهار كالعيون أو النجوم أو الأقمار — نعم، لا شك في أنها تصحبه إذا استطاع أن يهتدي إلى مكانها، — ترافقه إلى الغابة الساحرة، فيرقص لها طول النهار ليسرها. ولمعت عينه بنور البشر والجدل وهو يتخيلها معه، ومضى إلى الغرفة التالية.

وكانت هذه أجمل وأبهى ما رأى. وكانت الجدران مكسوة بالديباج من نسج «لوكا»، وعليه صور الطير، وقد حلي بأزاهير من فضة، وكان الأثاث من الفضة المحلاة بأكاليل الزهر الأرجواني وصور كوبيد، إله الحب، وأمام الموقدين

الكبيرين ستران موشيان بصور البيغاوات والطواويس.
وكانت الأرض مفروشة بأحجار خضراء لونها كلون البحر،
ويخيل للناظر أنها ممتدة ذاهبة إلى غير مدى. ولم يكن القزم
وحده في هذه الحجرة فقد كانت هناك في مدخل في آخر
الحجرة، من ينظر إليه ويلاحظه، وقد خفق قلب القزم
وندت عنه صيحة فرح وبرز إلى النور، فتقدم الشخص
الواقف أيضًا، وراه القزم كأوضح ما يكون.

أهذه الأميرة؟! كلا بل هذا شخص بشع مشوه لم ير القزم
أبشع من منظره ولم يكن مستوي الخلق كغيره من الناس،
بل أحدب متموج الأعضاء ملتويها ضخم الدماغ. أسود
الشعر. وعبس القزم لما رأى هذا المخلوق، فعبس مثله.
فضحك، فضحك مثله، ووضع يديه في خاصرتيه كما فعل،
فانحنى له القزم ساخرًا، فرد تحيته بمثلها، فمشى إليه
فتقدم ذاك منه، وكان يقتاس به ويحاكيه في كل خطوة، ويقف
إذا وقف. فصاح من سروره بذاك وراح يعدو، وبسط يده،
فلمست كف الوحش البشع يده، فخاف وحرك يده يمينًا
وشمالًا، فقلده الذي أمامه، فحاول أن يدفع يده إليه ولكن
شيئًا أملس صلبًا صده عن ذلك. وكان وجه هذا الوحش
قريبًا منه الآن، فطالعه من عينيه الذعر، فنحى الشعر عن
عينيه، فقلده الذي هو أمامه، فضربه بجمع يده، فتلقى
ضربة بضربة، فهاج عليه سخطه ومقتته، فلم يكن الوجه
الذي يراه أقل نطقًا بالكرهية والحنق، فراجع، فارتد ذاك
أيضًا.

ما هذا؟! وفكر القزم لحظة، ثم أجال لحظه في بقية الحجرة، فرأى عجباً! ذلك أن كل شيء هنا له نظير يقابله في هذا الجدار الذي كأنها هو مصنوع من الماء الصافي. لكل صورة، وكل أريكة، أختها حتى تمثال الإله النائم في فجوة بالجدار إلى جانب الباب له توأم نائم. وحتى تمثال فينوس الفضي القائم في نور الشمس، يمد يده إلى فينوس أخرى ليست دون تلك جمالاً.

أهذا هو الصدى؛ لقد نادى الصدى مرة في الوادي، فرد عليه نداءه كلمة كلمة. أفترى الصدى يعابث العين كما يعابث الأذن؟ أفى وسعه أن يجعل عالم التقليد كعالم الحقيقة؟ وهل يتسنى أن يكون لخيال الأشياء لون وحياة وحركة؟ هل يمكن...؟

وانتفض، ونزع الورد البيضاء من صدره، ودار فلتمها، فإذا الذي هناك معه وردة كوردته، لا تنقص غلالة واحدة، وإذا هو يلثمها كلثاته، ويضمها إلى قلبه بحركة بشعة وإيماءات ثقيلة.

وفطن إلى الحقيقة فأطلق صرخة يأس، وهوى إلى الأرض يبكي ويعول. إذن هو هذا المشوه الأحذب الكريه المنظر الشميم الخلق! هو الوحش البشع، وهو الذي كان الأطفال جميعاً يضحكون منه — حتى الأميرة التي حسبها تحبه —

هي أيضًا كانت تسخر منه وتهزأ به، وتضحكها أعضاؤه المعوجة! لماذا لم يتركوه في الغابة حيث لا مرآة تقول له إنه بغيض مشنوء الهيئة؟ ولماذا لم يقتله أبوه بدلًا من أن يبيعه ليفضحه؟ وانهمرت الدموع الحارة على خديه، ومزق الزهرة البيضاء، ففعلت صورته مثله ونشرت الغلائل الرقيقة في الهواء، وتمرغت ١٧ على الأرض، فلما رفع عينه لينظر رأى الألم مرتسمًا على وجهه، فتسلل راجعًا لثلا يرى صورته، وغطى عينيه بيديه — جر رجله كالجريح، إلى ركن ظليل مظلم وراح يئن ويتوجع.

وفي هذه اللحظة دخلت الأميرة من الشباك المفتوح، في حاشية من أترابها، فلما بصروا بالقزم مرتميًا يضرب الأرض بجمع يده، جلجلت ضحكاتهم وحفوا به ينظرون إليه.

وقالت الأميرة: «كان رقصه مضحكًا، ولكن تمثيله أبعث على الضحك وأغرى به — أشبه بحركات الدمى في القراقوز، إلا أن هذه أقرب إلى الطبيعة وأشبه بها.»

وهزت مروحتها الكبيرة، وصفقت.

ولكن القزم لم يرفع عينه قط، وصارت شهقاته أخفت، وإذا به يفهق ويمسك جانبيه، ثم ارتقى، وظل ساكنًا لا يتحرك.

وقالت الأميرة بعد هنيهة: «هذا بديع. والآن يجب أن ترقص لي.» فصاح الأطفال جميعًا: «نعم، قم وارقص، فإنك ماهر كالقردة، ولكنك أبعث منها على الضحك.»

لكن القزم لم يجب.

فضربت الأميرة الأرض برجلها، ونادت عمها الذي كان يتمشى على الشرفة مع أحد الأمناء، وهو يقرأ رسائل جاءت الساعة من المكسيك حيث أنشئت الكنيسة منذ عهد قريب. وقالت الأميرة: «إن قزمي الصغير المضحك يعاند، فتعالى أنهضه ومره أن يرقص.» فابتسما ودخلا، وانحنى دون بدر ووطم القزم على خده بقفازه الموشى وقال: «يجب أن ترقص أيها الوحش الصغير. يجب أن ترقص، فإن أميرة إسبانيا وأتراها يردن أن يتسلين.»

ولكن القزم لم يتحرك.

فقال دون بدر ووضعه على قلبه، ثم هز كتفيه ونهض، وانحنى للأميرة وقال: «أيتها الأميرة الجميلة، إن قزمك الصغير لن يرقص أبدًا. وهذا مما يؤسف له، فقد

كان دميماً مشنوء الطلعة إلى حد كان يُرجى أن يحمل الملك
على الابتسام.»

فسألته الأميرة: «ولكن لماذا لا يرقص ثانية؟» وضحكت.

فقال الأمين: «لأن قلبه انفطر.»

فعبست الأميرة، واستدارت شفتاها الرقيقتان زراية واحتقاراً
وقالت: «في المستقبل، يجب أن يكون الذين يحيئون ليلعبوا
معي بغير قلوب.»

وخرجت تعدو إلى الحديقة.

هوامش

(١) المجول في الأصل: ثوب تجول فيه المرأة، أو هو قميص
خفيف يلبس تحت الثياب، وقد استعملته هنا للجولة.

(٢) جزء من الثوب يغطي الصدر والمنكبين وقد استعملت اللفظ
لكلمة tesroC.

(٣) المعجزة: الكثيرة العقد، والعقد مخارج الغصون.

(٤) الظمي: ذبول الشفة وذهاب لونها.

(٥) التوقص هو: أن يثب الجواد وثباً. والتقريب: رفع اليدين
معاً، ووضعهما معاً.

(٦) جلد مصحب: عليه صوفه أو وبره أو شعره.

(٧) قريية القعر.

(٨) seispYG.

(٩) مزمار.

(١٠) جمع خف وهو ما يلبس في الرجل.

(١١) تمشي بطيئة مثقلة بحملها.

(٢١) الصقار: قيم الصقور ومعلمها ليصيد بها.

(٣١) المغفر: الخوذة.

(٤١) عنب أبيض طوال.

(٥١) رفع اليدين معاً ووضعهما معاً.

(٦١) الحوجمة وردة حمراء، والذريب صفراء.

(٧١) أي صورته في المرأة.

جورج جوسنج

مرجل فقير

كان ذلك في حجرة الجلوس بعد الغداء، وقد قعدت المسز شارمن — ربة الدار الجسيمة الطيبة القلب — على كرسي إلى جانب صديقتها الصغيرة المسز لورنج وتنهدت سائلة: «كيف ترين المستر تمبرلي؟»

قالت: «ظريف جدًا ولكن فيه بعض الشذوذ.»

قالت الأولى: «نعم شاذ، لا يجري على قياس. وقد أردت أن أحدثك عنه قبل أن ننزل ولكن الوقت ضاق بي، وهو صديق قديم لنا، وقد كان هو وزوجي العزيز في مدرسة واحدة، هارو. وإنه لأحلى وأعذب وأرق الناس. وأخشى

أن يكون خيرًا من أن يصلح لهذه الدنيا. يتناول كل شيء جادًا. ولن أنسى حزنه لوفاة زوجي المسكين. إني أحدث المسز لورنج عن المستر تمبرلي، يا أده.»

وكانت العبارة الأخيرة موجهة إلى بنتها المتزوجة، وهي عادة ساكنة، فيها من أمها دماثتها وطيبها، ولكنها أذكى وأفطن.

وقالت أده (المسز وير): «إني آسفة لأنه يبدو أبعد ما يكون من الصحة.»

فقالت الأم: «إنه لم يكن قط مشرق الديباجة، وحياته ... ولكنني سأحدثك عنه (والتفتت إلى المسز لورنج) إنه عزب، وفي رغد من العيش، و — هل تصدقين؟ — يعيش وحده في حي زري من أحياء لندن. أي حي هو يا أده؟»

— «شارع حقير في اسلنجتون.»

— «نعم، هناك يعيش، في مسكن وضع — ولا بد أن يكون غير صحي — لا شيء سوى أنه يريد أن يحيط علمًا بحياة الفقراء والمساكين، وليكون بذلك أقدر على معاونتهم. أليست هذه بطولية؟ وقد وقف حياته على هذا على ما يظهر فما يلتقي به أحد في مكان آخر. وأحسب أن بيتنا هو الوحيد

الذي يظهر فيه للناس. حياة نبيلة! ولا يخوض فيها بكلام،
أو يشير إليها بحرف، وإني لوثيقة أنك لم يخطر لك أن هذا
هكذا من حديثه على المائدة!»

فقالت المسز لورنج مستغربة: «لم يخطر لي قط. على أنه
لم يكن كثير الكلام، وقد استطعت أن أعرف أن أكبر ما
يعنيه، زخرفة الخشب، والسياسة الخارجية.»

فضحكت المسز وير وقالت: «هو بعينه! لما كنت طفلة كان
يصنع لي لعباً شتى جميلة بمنشاره، ولما كبرت كان يحدثني
عن التوازن الدولي! ومن يدري؟ لعله يكتب مقالات
افتتاحية في الصحف، يا أمي!»

فقالت الأم: «يا بنيتي العزيزة، ما من شيء يستغرب من
المستر تمبرلي! وإنها حياة جديدة هذه التي يحياها بعد
حياته في الريف. لقد كان له بيت صغير جميل قرب بيتنا
في بيركشير. وليس يسعني إلا أن أعتقد أن وفاة زوجي هي
التي حملته على مغادرته وتركه، فقد كان وثيق الصلة به
وصديقاً حميماً له. فلما مات زوجي وتركنا بيركشير اختفى
المستر تمبرلي — حوالي ستين — ثم التقيت به مصادفة في
لندن. ومن رأي أدع أنه لا بد أن يكون قد خاب له أمل في
حب.»

فقالت بتتها: «يا أُمِّي العزيزة، لقد كان هذا تأويلك أنت لا ختفائه لا تأويلي أنا.»

قالت الأم: «صحيح؟ ربما! إن الإنسان لا يسعه إلا أن يلاحظ أنه قاسى بعض الآلام. وقد يكون هذا من أثر عطفه على الفقراء والمساكين الذين وقف عليهم حياته! رجل عجيب!»

وسمعن أصوات رجال عند باب الغرفة، فتطلعت المسز لورنج إلى رؤية هذا الرجل الشاذ. وكان هو آخر من دخل، وهو طويل، وفي كتفيه انحناء، ونحيل وغير رشيق، وفي خطوته اضطراب وفي مشيته تردد، وبه حياء ظاهر، وعينه الرقيقة النظرة كثيرة التلفت هنا وهنا، وفي خط الحاجب ما يشي بالتردد والضعف، وفي الابتسامة التي تخفق على شفثيه ما ينم على وهن الشخصية بل امحائها. وكان شعره قد بدأ يخف ويشيع فيه البياض، وكان شارباه كثيفين وأليق بوجه أصرم وأحزم. وكان هو يدخل الغرفة، أو يتسلل إليها، لا تزال كفه تنقبض وتنسبط على نحو يغري بالضحك، وقد أفردته بين الرجال أنه كان في هيئة ما يمكن أن يوصف بأنه انطفاء اللمعة، أو ذهاب الصقل، وإن كان لا يبلغ حد الرثاءة، فإذا أخذ المرء النظر إليه تبين أن ثيابه السوداء مفصلة على طراز يرجع إلى بضع سنوات مضت، وكان قميصه ناصع البياض، ولم يكن يتخذ من الحلي أكثر من أزرار بسيطة على كميته وصدرة.

ومضى إلى ركن، وكان خليقًا أن يبقى فيه وحده، في سلام،
لولا أن المسز وير جرت كرسيها إلى جانبه.

وقالت له: «أترك ستبقى في المدينة في شهر أغسطس؟»

فقال: «لا ... لا لا ... كلا ... لا أظن.»

— «ولكنك تبدو مترددًا، وسأخبرني حين أقول إنني واثقة أن بك
حاجة إلى تغيير الهواء. فالحقيقة أنك لا تبدو في صحة جيدة.
فهل لي أن أغريك بالانضمام إلينا واللحاق بنا في لوسرن؟ إن
زوجي يكون مسرورًا جدًا ... بأن تتاح له فرصة للحديث
معك في أحوال أوروبا. فهب لنا من وقتك أسبوعين ...
أرجو ...»

فقال: «يا عزيزتي المسز وير، إنك الرقة مجسدة. وإن شكري
لك لجزيل، وإنني لعاجز عن العبارة عما أحس به تلقاء هذه
العناية، ولكن الحقيقة أنني أكاد أكون مرتبطًا بوعده لإخوان
آخرين. بل في وسعي أن أقول إنني في حكم ... نعم هذا هو
الواقع.»

وكان صوته كالصفير، ونطقه واضحًا، وكان يتسم ابتسامًا
يحول إلى ما يشبه الإشفاء على البكاء وهو يتقل من عبارة

إلى عبارة في ارتباك واضطراب، وكانت كفاه المعروقتان الطويلتان متضاغتين حتى صارت عقل أصابعه بيضاء.

وقالت المسز وير: «إن المهم أنك ستغادر لندن، فإني أخشى أن تغالي في إرضاء ضميرك. وأحسبك تعلم أنك لن تفيد أحداً بأن تتلف صحتك.»

فقال: «هذا واضح. هاها! وإني أؤكد لك أن هذه الحقيقة غير خافية عليّ. الصحة أول ما ينبغي العناية به. وليس أولى بأن يجعل الإنسان أقل نفعاً من صحة متداعية. على التحقيق! على التحقيق!»

قالت: «فما القول في الجهد الذي تكلفك إياه معاطفك؟ إن لهذا أثراً في الصحة فضلاً عن الجو الفاسد.»

قال: «ولكن اسلنجتون ليست فاسدة الجوى يا عزيزتي المسز وير، وصدقيني حين أقول إن جوها كثيراً ما يكون منعشاً. ولا تنسي أن موقعها مرتفع. أما لو تسنى أن نقلل ما تنفثه مداخن المنازل والمصانع! على كل حال أؤكد لك أن أسلنجتون تتوفر فيها كل المطالب الصحية.»

وقبيل انقضاء السهرة عُزفت بعض الأصوات، وكان المستر

تبرلي يبدو كأنه يستطيها. فقد ثنى رأسه إلى الخلف، وشخص إلى فوق، وبقي شاردًا على هذه الهيئة إلى ما بعد انتهاء العزف ثم تنبه وتنهد.

ولما بارح البيت ارتدى معطفًا أكثف من أن يتخذ في ذلك الوقت، ودس في جيبيه حذاءيه. وكانت قبعته من المخمل، وعالية وتناول مظلته — ولم تكن محكمة القفل — وانطلق يمشي بسرعة، كأنها يقعد إلى المحطة القريبة من هناك. ولكن القطار لم يكن مقصده، لا ولا سيارات النقل المشترك. فمضى يمشي، ويمشي، في الليل العطر، بخطوة موزونة، شأن من ألف هذا الضرب من الرياضة، وخرج من «نوتنج هيل» إلى «ماربل آرتش»، ومن ثم إلى «نيو أكسفورد ستريت»، ومن طريق تيوبولد إلى بنتونفيل، وراح يصعد حتى بلغ عُدوة حيه الصحي! وبعد نصف الليل دخل في زقاق ضيق، يبدو في ضوء القمر الباهت، نظيفًا وإن لم يكن فيه ما يدعو إلى الإقبال عليه. وفتح بابًا بمفتاح معه، ودخل بيتًا صغيرًا تفوح فيه رائحة الصمغ. وأوقد شمعة وجدها في جيبه، وارتقى في السلم دورتين إلى غرفة خلفية طولها ثمانى أقدام وعرضها سبع أقدام ونصف قدم، وبعد دقائق كان مستغرقًا في النوم.

واستيقظ في الساعة الثامنة — وكان يعرف الوقت من جرس

يدق في الحي — فارتدى ثيابه بسرعة، وفتح الباب فألقى على العتبة صينية عليها طعام الإفطار وقد نقص إلى أدنى حد — قصب من لبن، وخبز، وزبدة. وفي الساعة التاسعة نزل، ونقر بأدب على باب الغرفة المقدمة، فأذن له صوت أجش في الدخول، وكان في الغرفة رجل كهل وفتاة، وهما عاكفان على عمل اليوم — تجليد الكتب.

وقال المستر تمبرلي: «عم صباحًا يا سيدي.» وحنأ رأسه للفتاة وقال: «عمي صباحًا يا آنسة سَجْس. يوم مشرق ... شمس ... منعش!»

ووقف يفرك يديه كما يفعل المرء في ليلة مصقوعة مبرودة. + وهز المجلد رأسه هزة جافة، وبين للمستر تمبرلي عمله فأقبل هذا عليه بهمة وعزم. وكان يتعلم مبادئ هذا الفن، ويقضي ساعات العمل كلها مكبًا صابرًا، مظهرًا في عمله من الاستعداد الطبيعي له حظًا غير قليل.

إلى هذا الحضيض انحدر المستر تمبرلي، وكان من سادة بيركشير، وكان يعيش في دعة وخفض في من ربح ماله المستثمر، وقد تعلم في مدرسة هارو، وتخرج في كمبردج، وفكر في اختيار مهنة، حتى بدا له، على العموم، أن وقت الاختيار مضى وانقضى، ولما لم تكن به حاجة إلى تجشيم نفسه عناء العمل، فقد عاش عيشة الفراغ والبطالة البريئة

على مقربة من البيت الريفي لصديقه المثري الوجيه المستر تشارمن. وكرت الأعوام لينة سميثة. وخطر له الزواج مرة أو مرتين ولكن طبيعة الحياء الشديد صدته عن اتخاذ الخطوة الأولى، ووقع في روعه آخر الأمر أنه معزابة. وكان قانعًا بذلك وراضيًا عنه، وليته أظهر مثل هذه الحكمة وبعد النظر في مغريات أخرى! ولكنه في ساعة مشئومة صدر عن رأي المستر تشارمن الذي كان لا ينفك يلهج بالمضاربة والشركات والأرباح العظيمة، ولم يخاطر المستر تمبرلي بباعث من الطمع، فقد كان عنده فوق الكفاية ولكنه كان معنيًا بأمر أخته التي تزوجت محاميًا ريفيًا غير موفق، وفي أبنائها الستة، الذين كان يشتهي أن يساعدهم على نحو ما يفعل الخال المثري في الأقاليم، ويمدهم بالعون اللازم لخوض الحياة، فوثق بالمستر تشارمن ثقة عمياء، فكان أن ألقى نفسه ذات يوم يرعش على شفا الهاوية. وجاءت الأنباء تترى بما حاق به من الخراب فهوى إلى الحضيض.

ولم يكن أحد يعلم ذلك سوى المستر تشارمن، وقد مرض هذا بعد بضعة أيام ثم قضى نحبه، ولم تتحيف الخسارة التي عصفت بصديقه، إلا جانبًا يسيرًا من ثروته، ولم ينبس المستر تمبرلي بكلمة لأرملة صديقه، ولا أفضى بحرف إلى أحد من الناس، ما عدا محاميه الذي سوى له أموره في هدوء، وأخته التي لم يبق لبيها إلا أن يحيا حياتهم بلا عون، وحدث أن غابت أسرة المستر تشارمن بعد موته عن

البلدة فترة من الوقت، فاخترى المستر تمبرلي في سكون.

وكان المسكين قد ناهز الأربعين، وقد بقي له من رأس المال قدر يسير لم يجترئ على مديده إليه للإنفاق منه، فاستثمره، فأفاده دخلاً لا يكاد يكفي عاملاً.

وكانت لندن هي المدينة الوحيدة التي يستطيع أن يعيش فيها، لأنها المكان الوحيد الذي يسعه أن يستخفي فيه وهو مطمئن آمن، فقصد إليها، واحتاج إلى زمن غير قصير ليتعلم فن مكافحة الجوع بأيسر مقدار من المال. وقد بلغ من سوء حاله في أول عهده بهذه المحنة، ومن عض الجوع وذل الفاقة، أن اضطر أن يغالب كبرياءه فكتب إلى صاحب له يستشيريه ويستعينه، وليس يعرف عبث النصح وإن حسنت فيه النية، وقلة جدوى الجاه الاجتماعي، إلا من كان في مثل موقف المستر تمبرلي وحاله. ولو أنه استجدى مألًا لتلقى شيئاً مشفوعاً بكلمات العطف، غير أن المستر تمبرلي ما كان يستطيع أن يحمل نفسه على هذا.

وحاول أن ينتفع بما كان يتسلى به قديماً من زخرفة الخشب، ونجح إلى حد ما، فربح في ستة شهور نصف جنيه! ولكن الأمل في اكتساب جنيه في العام يضيفه إلى دخله الضئيل لم يكن من شأنه أن يشجعه ويحضه على المثابرة!

وكان في ذلك الحين يعيش في عزلة تامة. والفقر أقوى ما زهد في الاختلاط ورغب في الاعتزال والوحدة، إلا إذا كان المرء قد ولد وشب في أحضان الفاقة. وليس يسع الرجل المرهف الحس حين يلقى أنه قد صار أدنى من أقرانه منزلة، إلا أن يلوذ بالوحدة، وما أسرع ما يتبين أن الناس لا يجدون عسرًا أو عناء في نسيانه. وقد كانت لندن، وما زالت، غاصة بالزهاد والمعتزلة، برضاهم أو كرههم، وكان المستر تمبرلي، كلما ذهب يحوب الشوارع أو الحدائق، أو يزجى الوقت في المتاحف (التي لا يؤدي داخلها شيئًا) لا يزال يلتقي بمن يفتن إلى أنهم نظراؤه وإخوانه في الاعتزال، وكان يفهم النظرة المخالسة حين تلتقي بنظرته، ويقرأ صفحة الوجه المقطب، ويلاحظ الثياب اللبسة بعطف. وليس بين هذه الخلائق المستخفية المتسللة بث متبادل، وما منهم إلا من يود أن يقول بشجوه، ولكن الكبرياء تصده وتكبحه، فيمضي في طريقه صامتًا مستفردًا حتى يجد نفسه آخر الأمر — حسن الحظ — في مستشفى أو ملجأ، فتتحل عقدة اللسان الممتسك ويقول القلب الكليم الموجه بعته على الدنيا.

ويحذق من هذا حاله دروسًا كثيرة لم تكن له في حساب، فيتعلم أساليب عجيبة للاقتصاد والتدبير، ويُرهي بأن يتبين أن المُسكة من الرزق حسب المقلل ليعيش بها، وقد كان المستر تمبرلي في أيام خفضه ويساره، خليقًا أن يجزم بأن

الإنسان لا يستطيع أن يعيش بأقل من كذا وكذا، فلما أعسر عرف أن الرجل يقدر أن يعيش بقروش قليلة في اليوم. وصار يعرف أثمان المآكل، وتعلم المزايا النسبية للأطعمة، والخصائص الغذائية المختلفة لكل منها، واضطره الشظف أن يكون نباتيًا فوجد أن الطعام من النبات أصح له، فجعل يلقي على نفسه خطبًا ساخرة بآكلي اللحوم، ويحاضرها في مضار القرم، وآلى مكرهاً ألا يذوق خمرًا، واشتاق أن يعتلي منبرًا من منابر الدعاة إلى نبذ الخمر، وأن يؤدي من فوقه الشهادة. وفي هذا كله عزاء، وإن فيه لعوضاً عن فقد كثير من ضروب الاحترام الذاتي.

واتفق يومًا أن كان يهم بأن يقبض من بنك إنجلترا المبلغ الزهيد الذي يأخذه كل ثلاثة شهور، فلمحته سيدة وعرفته. وكانت أرملة المستر تشارمن.

وصاحب به: «أين كنت كل هذا الزمن يا مستر تمبرلي؟ لماذا لم يجئني منك أي نبأ؟ هل صحيح ما حدثني به بعضهم من أنك كنت تعيش في الخارج؟»

وبلغ من ارتبাকে من جراء هذه المباغلة، أن ردد، بطريقة آلية، آخر ما سمعه من السيدة — «في الخارج.»

فألحت عليه المسز تشارمن تسأله ولا تدع له فرصة لكلام
يقوله: «ولكن لماذا لم تكتب إلينا؟ تالله ما أقساك؟ ولماذا
سافرت من غير أن تجربنا؟ إن ابنتي تقول إننا لا بد أن
نكون قد أسأنا إليك بشيء ما، قل بالله! إنه لا يمكن أن
يكون هناك شيء...»

فقال: «يا عزيزي المسز تشارمن، إني أنا المعلوم وحدي. إني
... ولكن الإيضاح صعب لأنه يستدعي تفصيلاً طويلاً،
وبياناً مسهباً، وإني لأرجو أن تحملي سلوكي الذي لا مسوغ
له على — على محمل الشذوذ المحض.»

— «لا بد أن تجيء إلينا وتزورنا. وهل تعلم أن آده تزوجت؟
نعم، منذ سنة أو حوالي ذلك. ولشد ما يسرها أن تراك!
فإنها تلهج بذكرك كثيراً، متى تستطيع أن تتعشى معنا؟
غداً؟»

— «بسرور، بسرور عظيم.»

وأعطته عنوانها، وافترقا.

وكان من الدلائل على أن المستر تمبرلي لم ييأس قط من العود
إلى عالمه القديم أنه عني بالتحفظ بثياب السهرة والحذاءين

الملائمين لها. وما أكثر ما هم مدفوعًا بحاجته وضمكه، أن يبيع هذه الأشياء التي لا نفع لها عنده! وقد رهنها أكثر من مرة، من أجل بضعة شلنات، ولكن النزول عن عنوان منزلته ورمز طبقته، لم يكن إليه من سبيل، لأن معناه اليأس المطلق، واليأس شيء أجنبي، لا يوائم طبيعة المستر تمبرلي المبنية على الجلد. وقد ذهبت حليته جميعًا — حتى ساعته وسلسلتها — فإن مثل هذه الأشياء ليست لازمة لازبة، لمظهر الرجل الكريم، وقد هنا نفسه بما كان من حسن تدبيره لأمواره، ذلك أن لقاء المسز تشارمن سره بقدر ما ربكه، وخفق قلبه خفقة الجذل وهو يتطلع إلى قضاء المساء في بيئته القديمة. وعاد مسرعًا إلى غرفته وفحص ثيابه بعناية وتدقيق فلم يجد فيها عيبًا ظاهريًا أو ملحوظًا. على أنه احتاج أن يشتري قميصًا ورباطًا. وكان معه لحسن حظه المال الكافي لسد هذه الخلة، ولكن بماذا يؤول لهم غيبتة الطويلة؟ هل يسعه أن يطلعهم على خصائصته ويدلهم على مسكنه؟ إن هذا يكون معناه استدرار العطف من أصدقائه القدماء، وهذا موقف لا قبل له به ولا قدرة له على احتماله. والرجل الكريم لا يكشف عن حالة تسوء وتؤلّم إذا كان يسعه كتمانها. فهل يكذب إذن صراحة أو ضمناً؟ وذكر الحقيقة لا سبيل إليه لأنها تنطوي على لوم لزوج المسز تشارمن.

وجاء مساء اليوم التالي وهو لا يزال حائرًا لا يستقر على

رأي. وبلغ بيت المسز تشارمن من غير أن يصح له عزم على أمر، وكان في غرفة الجلوس ثلاثة ينتظرونه — المسز تشارمن، وابنتها، وزوجها — المستر والمسز وير — وقد أشفى على البكاء من حسن ما استقبل به، وغلبته عواطفه ففقد رصانته وصار يتكلم جزافاً، فصاغ قصة خرافية لم يكذ يفرغ منها حتى بهت هو نفسه لها!

وقد جاءت هذه القصة في جواب سؤال طبعي عن مسكنه أين هو؟

فقال بابتسامة سخيفة: «في الوقت الحاضر أسكن غرفة للنوم والجلوس معاً في شارع صغير في حي إسلنجتون.»

فساد الصمت، ورشقوه بنظرات التعجب والدهشة، ولولا هذه النظرات لما درى أحد بماذا كان المستر تمبرلي حقيقةً أن يعترف.

وقال: «لقد قلت يا مسز تشارمن إنه لا يسعني إلا أن أعترف بشيء من الشذوذ. وإني لأرجو ألا يزعجك ذلك. وأوجز فأقول إني وقفت جهودي الضعيفة على العمل الاجتماعي. فأنا أعيش بين الفقراء، كواحد منهم، لأحصل بذلك على المعرفة والخبرة اللتين لا سبيل إليهما بغير هذه الوسيلة.»

فصاحت مضيفته: «تالله ما أنبلك!»

وكان ضمير المسكين يخزه وخزًا أليماً، فلم يسعه أن يزيد على ما اخترع شيئاً وأراد القوم أن يترفقوا بعواطفه ويعفوه من الحرج فغيروا موضوع الحديث. ولم يخطر لهم قط وقتئذ، ولا فيما بعد، أن يشكوا في صدقه. ولقد رآته المسز تشارمن يعامل بنك إنجلترا، وهو مكان لا يوحى إلى النفس فكرة الفقر، وكان العهد بالمستر تمبرلي أنه غريب الآراء والأساليب. وهكذا تورط في كذبة عجيبة، وخدعة لا يسهل تبيينها، ولا ضرر منها إلا عليه.

ومضى نحو عام على ذلك، التقى المستر تمبرلي في خلاله بأصدقائه هؤلاء ست مرات أو حوالي ذلك، وكان ينعم باجتماعه بهم على نحو يدعو إلى المرثية، ولم يكن يزعجه منهم أي إشارة إلى أسلوب حياته، فقد صار من المفهوم والمقرر أنه يؤثر أن يظل نوره محجوباً، ومروءته مكتومة، فلم يكن يحتاج أن يكذب مرة أخرى. وما من شك في أنه ندم على الكذب والخداع، وجال بخاطره أن المسز تشارمن — وهي سيدة غنية — لعلها كانت تستطيع أن تساعد على ما يبتغيه من وسيلة كريمة لكسب الرزق. على أن الواقع أنه لم يخطر له إلا أن يكون مجلد كتب، وهي حرفة توافق ذوقه بعض الموافقة، واجترأ يوماً فاتفق مع رب البيت على أن يعلمه

هذه الحرفة بالعمل له زمنًا ما، بعد أن يحذقها. وقد صار الآن هذا اليوم قريبًا، وأحس المستر تمبرلي أنه على العموم أسعد مما كان أيام البطالة واجترار الهموم، وأصبح يتطلع إلى اليوم الذي يزداد فيه دخله، فلا يعود يفرق من الأسبوعين الآخرين من كل ثلاثة شهور، ومن النوم فيهما كل ليلة بغير عشاء.

وقد أورثته دعوة المسز وير له أن يلحق بها في لوسرن، ألمًا مرًّا. لوسرن! أفترى تلك كانت حياة سابقة أيام كان يسعه أن يسافر ويجوب الأرض، ويركب البحر، ويتنزه كما يحب، ولا يعني نفسه بحساب المال؟ وارتسمت لعينه أماكن كثيرة جميلة رحل إليها، ومناظر حسنة كالأحلام نعم بها، وقد أصارتها شوارع لندن بعيدة نائية، وأشبه بالصور الخيالية منها بالحقيقة، وصارت السنوات الثلاث التي قضّاها في لندن في البأساء والضنك أطول فيما يحس من كل حياة الدعة والخفض التي كانت قبلها. لوسرن! ولو كانت طبيعة المستر تمبرلي أحد وأقوى لطار عقله، ولكنه جعل يدير هذا الخاطر في نفسه النهار كله، ولا يعبر عن عواطفه بأكثر من زفرة أو ابتسامة حزينة.

ولما كان قد أصاب من طعام العشاء، البارحة، حظًّا جزيلاً، فقد أحس أن عليه أن ينفق على طعامه في يومه أقل من

القدر المؤلف، وحوالي الساعة الثامنة مساءً، بعد أن تمشى في ذلك الجو الذي أثنى عليه، عرج على الدكان الذي ألف أن يشتري منه حاجاته القليلة، وكانت فيه امرأة سمينة، فهزت رأسها له بالتحية، وابتسمت لزبون آخر، فانحنى لها المستر تمبرلي، كما هي عادته، ردًا لتحيتها وقال: «تفضلي بإعطائي بيضة طازجة، وخسة صغيرة.»

فسألت المرأة: «واحدة فقط في هذه الليلة؟»

فقال، وكأنها كان يتحدث في غرفة استقبال: «شكرًا لك، نعم واحدة. وسامحيني إذا أعربت عن الأمل في أن تكون طازجة بأدق معنى للفظ. فإنه يخيل إليّ أن الأخيرة كانت في هذا الصندوق من قبيل الخطأ والسهو، وهو يغفر بسبب زحمة العمل.»

فقالت المرأة السمينة: «إنها جميعًا سواء، ودائمًا سواء، ولسنا نغلط مثل هذا الغلط.»

فقال: «عفوًا! لعلّي توهمت ...»

ووضع البيضة والخسة بعناية في حقيبة صغيرة معه، ورجع إلى البيت، وبعد ساعة من تناول هذه الأكلة، قعد على كرسي مستقيم الظهر يفكر، وإذا بنقر على الباب، ويد

تمتد إليه بكتاب. وكان يندر جدًّا أن يتلقى رسالة أو رقعة، فاضطربت يده وهو يتأمل الظرف. وكان أول ما رآه بعد أن فض الرسالة شيكًا، فزاد اضطرابه، وفتح الرقعة ونفسه تحيش، فإذا بالرسالة من المسزوير، وفيها تقول:

عزيزي المستر تمبرلي،

بعد الحديث الذي دار بيننا البارحة لم أستطع إلا أن أفكر فيك وفي حياة التضحية الجميلة التي تحياها، وقد قارنت حياة هؤلاء التعساء المساكين بحياتي التي لا يسعني إلا أن أحس أنها مباركة حافلة بالمناعم، وقد دفعتني هذه الخواطر إلى الاكتتاب بقدر يسير لأساهم في عملك المجيد، وإني أعد هذا ضربًا من الشكر لله في اللحظة التي أسافر فيها لأقوم برحلتني، فأقسم المبلغ من فضلك بين اثنين أو ثلاثة ممن تراهم أحق وأولى، أو إذا بدا لك أن تهبه كله لواحد فافعل. هذا وإني أتشبث بالأمل في أن أراك في لوسرن. وتحياتي إليك.

وكان المبلغ خمسة جنيهات. فرفع الشيك قرب النافذة، وتأمله. وخمسة جنيهات تعد مبلغًا جسيمًا إذا اعتبرنا الحياة التي يحياها، وقيم الأشياء فيها. وتصور ما يستطيع المرء أن يفعله بقدر من المال كهذا! حذاءه — اللذان رقعهما مرتين — لم يبق من عمرهما إلا القليل، وبنطلونه صار غاية

في الرثاءة. وقبعته (لشد ما عني بها) هي التي جاء بها إلى لندن منذ ثلاث سنوات. وقد أصبحت حاجته شديدة إلى ثياب جديدة يكتسيها، من رأسه إلى قدمه، وفي إسلنجتون، تُعد خمسة جنيهات فوق الكفاية لقضاء هذه الحاجات جميعاً، ومتى يتاح له أن يلقى إليه بمبلغ كهذا مرة أخرى، لينفقه على هواه، بلا حساب؟

وتنهد وتلفت في الغسق.

وكان الشيك مصلباً، فأدرك المستر تمبرلي للمرة الأولى في حياته أن رسم صليب على شيك، قد يسبب لمن يملكه متاعب كثيرة، فكيف يصرفه؟ وإنه ليعرف أن صاحب البيت رجل ليس أسرع منه إلى إساءة الظن، وأخلق بأن يكون الرفض — مقروناً بالنظرة التي يُحسن المستر سَجَز أن يحدج بها الإنسان — مهانة شديدة. ثم إن من المشكوك فيه جداً أن يستطيع المستر سَجَز أن ينتفع بهذا الشيك. فإلى من يتجه غيره؟ لا أحد في لندن كلها!

وحدث نفسه أن أول ما ينبغي أن يصنع هو أن يرد على رسالة المسز وير. فأضاء المصباح، وجلس إلى منضدة صغيرة، ولكنه غمس القلم في الدواة عدة مرات قبل أن يستطيع أن يكتب إليها شيئاً.

عزيزتي المسز وير،

وتلت ذلك فترة توقف طويلة حتى بدا كأنه نام، ثم
اتنفض وانحنى مرة أخرى على الورقة.

أشكرك شكرًا جزيلاً على هذه الهبة الكريمة. وسيوزع
المبلغ ...

(وتوقف مرة أخرى دقائق عديدة).

على الوجه الذي أردته، وسأقدم لك بيانًا مفصلاً بوجوه
إنفاقه.

ولم يسبق قط أن كابد مثل هذا العسر في الكتابة. وأحس أنه
يسيء العبارة جدًّا، عما يريد، وكأنها عوّق ذهنه عن الدوران
شيءٌ، ولم يستطع أن يتم الكتابة إلا بمجهود بدني كبير، فلما
فعل خرج واشترى طابعًا وألقى بالرد في صندوق البريد.

ولم ينم في ليلته تلك إلا غرارًا، فما كاد يرقد حتى شرع
يفكر في الأمر، وأين وكيف يجد هؤلاء الفقراء الحقيقيين
بأن يقتسموا هذه الهبة؟ ولم تكن له معرفة بالطبقة التي
تعنيها المسز وير، وتتبرع لها. وصحيح أن الأسر التي حوله
فقيرة كلها، ولكن هل للفقير عند هؤلاء نفس المعنى الذي
يفهمه هو من اللفظ؟ وهل في هذا الشارع القذر من

يحق له — بالقياس إليه هو — أن يُدعى فقيرًا؟ والمتعلم الذي يضطره انتقال الأحوال أن يعيش بين الطبقات الدنيا، تتكون له آراء غريبة. مثال ذلك أن المستر تمبرلي صار يعتقد أن ما يقال عما تقاسيه هذه الطبقات مبالغ فيه لأنه مقيس بمقياس غير صالح، وكان المستر تمبرلي يرى حوله عالمًا من المرح الصاخب، والعمل مع الرضى، وبلاذة الحس. وكان يخيل إليه أنه في هذا الحي، هو الوحيد الذي يشعر بالفاقة وبألمها.

وتنبه من إغفاء كالكابوس، على خاطر جلي، وذكرى تشق رأسه شقًا. إلى من يرجع «الفضل» فيما صار إليه من البؤس والفاقة بعد الرفاهة وخصب العيش؟ إلى والد المسز وير! وإذا نظر إلى الأمر من هذه الناحية ألا يكون له أن يعد الشيك ضربًا من التعويض!

وأخذ النعاس لحظة، ثم أفاق وفي رأسه خاطر آخر غريب. أيمكن أن تكون المسز وير (وهي امرأة ذكية) قد شكت في أمره أو وقفت على حقيقته؟ ألا يجوز أن تكون قد أرادت فيما بينها وبين نفسها أن يأخذ هو المال الذي بعثت به.

ولكن هذا الخاطر بدا في الصباح غير مقبول، أو محتمل، وكل ما أثمره هو أنه قوّى في نفسه شعوره بدين المستر تشارمن له. ووثب من الفراش، وتناول الشيك، فظل في

يده ساعة، ثم نهض وارتدى ثيابه.

وبعد أن أدى عمله في يومه خرج يتمشى في شارع كبير الدكاكين، فاستوقفه دكان حذاء، فبقي برهة غير قصيرة أمام الواجهة، ويده في جيبه تعبت بجنيه فيه — وما جنيته بقليل، من المبلغ الذي يعيش به إلى أن يجيء يوم القبض — ثم تخطى العتبة. ولم يكن أقل منه حزمًا أو حكمة، فقد فرغ من الأمر في مثل لمح البرق، وكان يتكلم ولا يسمع ما يجري به لسانه، وينظر إلى الأشياء ولا يراها، وكانت النتيجة أنه لم يدرك إلا بعد أن بلغ بيته، وحذاءاه العتيقان تحت إبطه، أن الحذاءين الجديدين ضيقان جدًّا، وأن ضغطهما شديد الإيلام، وكان لهما أيضًا أطيظ وصريف، ألا ما أعلى صوتهما! ولكن الأحذية الجديدة لا تخلو من أمثال هذه المعاييب. ولعله نسي ذلك لطول عهده بالقديم البالي. وكان يشعر بالإعياء الشديد، فتناول لقمة واستلقى على سريره لينام.

وظل طول الليل يحلم بالحذاءين الجديدين، وكان يرى في منامه أنه يظلع في شوارع مدينة خيالية يكمن له بعضهم فيها عند كل ركن وزاوية، وفي كل مرة يتبين أن العدو المتربص له هو المسزوير، وكانت تنظر إليه باحتقار، وتدعه يمضي في سبيله. وكان أطيظ جلد الحذاءين صوتًا

ناطقًا لا ينفك يصيح به ويعلن إليه اسمًا مرعبًا، فكان يتضاءل، ويتقبض، ويرعش، ويتوجع، ولكنه مع ذلك كان يمضي على سنته وفي يده شيك عليه صليب، يحاول عبثًا أن يجد من يعطيه به مالا.

ولما استيقظ كان رأسه أثقل من الرصاص، ولكن ذهنه كان صافيًا، وتفكيره مستقيم، فسأل نفسه: ماذا يعني بانفلاق المال على هذا النحو الجنوني مع افتقاره إليه؟ وليت الحذاء الجديد يطاق لبسه؟ أكان ينوي ... يا حفيظ!

ولم يكن المستر تمبرلي من أهل العلم بالنفس الإنسانية، ولكنه فطن بغته وعلى أجلي صورة، إلى الأزمة النفسية التي كان يعانيتها، واطلع بذلك على حقيقة أخرى من حقائق الفقر.

وبعد أن تناول طعام الإفطار نزل ونقر على باب المستر سجز، وكان الرجل يأكل، فسأله، وفمه ملآن: «ماذا تريد؟»

قال: «سيدي، إني أرجو أن تأذن لي في الغياب ساعة أو ساعتين في هذا الصباح، فإن هناك أمرًا له بعض الخطر، يتطلب عنايتي.»

فقال المستر سجز بما عرف عن أهل طبقتهم من الذوق: «أحسب أن لك أن تصنع ما تشاء، فما أنقذك أجرًا.»

فانحنى المستر تمبرلي وانصرف.

وبعد يومين آخرين كتب رقعة ثانية إلى المسز وير، هذا نصها:

إن المبلغ الذي تفضلت بإرساله إلي وأجبتك بأني تلقيته، قد وزع الآن. وقد رأيت أن الأولى والأمثل أن أسلم الشيك إلى قسيس في هذا الحي، مشفوعاً بأوامر صريحة، وقد دون على الرقعة التي ترينها مع هذه الرسالة، بياناً بأسماء الذين انتفعوا بهبتك، فعسى أن ترضي عما فعل.

ولكنك قد تسألين، لماذا رأيت أن أجدأ إلى قسيس؟ ولماذا لم أستعن في هذا الأمر بخبرتي وتجاربي، فأفيد الرضى والسرور الحاصلين من مساعدة الفقراء الذين أعني بهم؟ أنا الذي وقفت حياتي على هذا العمل الإنساني النبيل وجعلت من نفسي رسولاً للرحمة؟

والجواب وجيز وسهل. ذلك أني كذبت عليك.

فأنا لا أعيش في هذا الحي بإرادتي الحرة، ولست أقف حياتي على أعمال البر والإنسان. وأنا لست — كلا، بل لم أكن إلا — رجلاً تبين في يوم من الأيام أنه ضيع ماله في مضاربة حمقاء، فاستحى أن يطلع أصدقاءه على ما صار إليه أمره،

فلاذ بحياة العزلة والشقاء، فأنت ترين أني أضفت الجبن إلى
سوء الحظ ولن أخبرك كيف كدت أفعل ما هو شر من
ذلك.

وأنا أقضي فترة في تعلم حرفة ستمكنني بلا شك من زيادة
دخلي فأصبح أحسن حالاً. وإني لأرجو أن تغفري لي ما كان
مني، إذا استطعت، وأن تنسيني.

وإني لك يا سيدتي لخدم غير جدير بشيء.

س. ف. تمبرلي

هوامش

(١) من الصقيع والبرد بالتحريك.

(٢) من طالعت عزوبته حتى ما له في الزواج من حاجة.

هنري هارلاند

بيت يولالي

هو بيت صغير جميل في رقعة ساحرة من الريف — ركن
قلما يغشاه أحد، من بلاد نورمندي، على مقربة من البحر
— تكثر فيه البساتين، وتمتد الحقول والمراعي للماشية،
وتستقيم الطرق الظليلة.

والمرء لا يسعه إلا أن يستغرب أن يجد هذا البيت قائماً هنا،
فقد كانت البيوت الأخرى مساكن فلاحين أو أكواخ عمال،
ولكن هذا كان منزلاً أنيقاً مبيّضاً، وله نوافذ كالآبواب،
وشرفات ذات أسوار من حديد فيه صنعة، وستائر من
نسج البندقية، منزلاً للهو والمسرة تحيط به حديقة صغيرة

نضيرة، وتعطر جوه الورد والأزهار المنسقة، وترتاح العين إلى الخضرة الياضعة حوله. وكان هناك، مما يلي الحديقة، بستان تقوم فيه صفوف من أشجار التفاح القديمة، وقد مال بعضها على بعض فكأنها كانت ترقص ثم وقفت ولزمت آخر ما كانت عليه من هيئة. وتدير عينك فترى حقولاً منبسطة، من القمح والبقول المنسطة على الأرض، إلى البحر، وصخوراً بيضاء غير مستوية تستحم في الماء الأخضر، وترى لها ظلالاً لامعة خفاقة.

ورأيت لوحاً معلقاً على الحائط عليه كتابة ساذجة، أيدت ما علمته من السمسار في «دييب» فصحيح إذن أن البيت للإيجار. وقد ركبت ساعتين طويلتين لأراه، والآن صرت على عتبة، فدفقت الجرس. وهو جرس كبير معلق وله مقبض من البرنز مصنوع على هيئة جبل وزر. وخليق بصوته أن يذهب إلى بعيد في هذا الريف الساكن.

وقد ذهب الصوت، على كل حال، إلى مسكن كالكوخ على مسافة مائة ذراع، فخرج منه رجل وامرأة، ووقفاه هنيهة ينظران إلى ناحيتي ثم أقبلنا نحوي. وكان الرجل شيخاً والمرأة مثله، وكلاهما أسمر. وكان الرجل يلبس ثوباً غليظاً مفتول الغزل طاقين، وعلى المرأة قبة من القطن، بيضاء نظيفة، وفوطة زرقاء تلفها على وسطها. وكان خطوهما رويداً على عادة أهل الريف.

فسألتهما: «السيد والسيدة ليرو؟»

وذلك بعد أن تبادلنا التحيات التمهيدية، وأخبرتهما أنني جئت من ديب حيث أنبأني السمسار أن هذا البيت للإيجار، وكنا على ما بدا لي ينتظران مقدمي. فقد أبلغني السمسار أنه سيبلغهما رغبتني.

ولكن لشد ما استغربت إذ رأيت أن هذا الكلام العملي ربكهما! بل يخيل إليّ أنه أورثهما اضطراباً وأحدث لهما ألماً. فقد رفعاً وجهيهما المغضنين ونظرا إليّ نظرة القلق، وتبادلا النظرات الواشية بالحيرة، وقبضت المرأة بيد على الأخرى وجعلت أصابعها تتحرك، وتردد الرجل وتلجلج قبل أن يستطيع أن يقول: «جئت ل ترى البيت يا سيدي؟»

قلت: «نعم، أو لم يكتب إليك السمسار؟ لقد علمت منه أنك تتظرنني في هذه الساعة، اليوم؟»

قال الرجل معترفاً: «نعم، كنا في انتظارك.»

غير أنه لم يفعل شيئاً يتقدم به الأمر خطوة واحدة، وبادل امرأته نظرة حيرة أخرى فهزت رأسها كأنها تريد أن تقول إنه لا حيلة لها وأن الأمر لله، وأطرقت.

وقال الرجل بلهجة من يحاول جلاء الغامض: «شف يا سيدي ... شف ...» ثم تلجلج وزوى ما بين عينيه كأنها يعاني أزم التعبير.

فسألته مقترحًا: «هل استؤجر البيت؟»

فقال: «كلا، لم يؤجر.»

فقالت امرأته أخيرًا بلهجة المكروب ومن غير أن ترفع عينها عن الأرض: «يجسن أن تذهب وتجيء بالمفتاح.»

فانكفأ راجعًا يجر رجليه إلى كوخه، وبقينا نحن واقفين صامتين بجانب الباب، وكانت أصابع يديها المتشابكتين لا تزال تضطرب، وحاولت أن أجرها إلى الحديث، وأفتح لها أبواب الكلام، فأثنت على موقع البيت وجمال المنظر، فتمتت موافقتها في رقة ولطف، ولكن بضجر غير خاف. فلم يشجعني هذا على المضي في الكلام.

وعاد إلينا الرجل بالمفتاح، وشرع وامرأته معه يريني البيت، وكان فيه حجرتان جميلتان للجلوس والاستقبال في الطبقة الأرضية، وثلاثة للطعام، ومطبخ واسع من الأجر الأحمر المصقول، ومدخنة، وأوعية شتى من النحاس اللامع، وكان المتاع في غرف الجلوس والاستقبال والطعام خفيفًا على الطراز الفرنسي، وكانت النوافذ تفتح على الشمس وعلى أرج الحديقة وخضرتها البهيجة، فأعربت لهما عن سروري وإعجابي بما شاهدت، وإذا بحالتهما تتغير شيئًا فشيئًا، من

الكآبة، والتردد، والحيرة، إلى الاستجابة والانشراح، وصارا يتلقيان كلامي بابتسام، ويحييان عن أسئلتي بلهفة وبإفاضة. ولكن الاضطراب لم يزيلهما، اضطراب العاطفة الجياشة، وكانت أيديهما المعروقة تحتلج وترتعش إذ يفتحان لي الأبواب والنوافذ، وينحيان الأستار، وصوتها يتهدج، حتى ابتسامهما كان عن ألم مكنون؛ فهو لا يجاوز السطح ولا يؤثر في المطوي من الهم.

وحدثت نفسي أن حاجتهما ملحة إلى المال، وأنها عسى أن يكونا قد أنفقا على هذا البيت كل ما كان عندهما، فهما إذ يجدان مستأجرًا معذوران إذا اضطربا.

وقال الرجل: «والآن، إذا شئت يا سيدي، تفضل بنا إلى فوق لنريك غرف النوم.»

وكانت هذه الغرف حسنة التهوية، تدخل السرور على النفس، وكانت جدرانها مورّقة، وعلى نوافذها ستائر قطنية مطبوعة، وأثاثها كالمعهد في حجرات النوم الفرنسية. وكانت إحداها تبدو كأن هناك من يستعملها، فقد كان فيها متاع وأشياء — أشياء شخصية — لامرأة. وكانت آخر ما دخلنا من الغرف، وهي مقدمة وتطل على البحر، ورأيت على المنضدة فيها أمشاطًا وفرشًا، وعلى المكتب الصغير أقلامًا ومحرّبة ومحفظة، وعلى الرفوف كتبًا مرصوفة، وعلى

الصفة صوراً شمسية في إطاراتها، وفي الصوّان ثياباً معلقة، وعلى الأرض أحذية وخفافاً نظيفة مرتبة، وعلى السرير حبساً مبسوطاً، من الحرير الأزرق، وعلى الحائط ممالي السرير، صليياً معلقاً وإلى جانبه وعاء من الخزف فيه ماء مقدس.

فالتفتُ إلى الرجل وامرأته وقلت: «يظهر أن هذه الغرفة مسكونة.»

فلم يبد على السيدة ليرو أنها سمعت ما قلت، فقد كانت شاخصة لا تطرف وكانت شفتاها متباعدتين، وعلى وجهها سيء الضجر كأنها يكون من دواعي سرورها أن نفرغ من تجوئنا في البيت وطوافنا بغرفته، أما السيد ليرو فرفع يده إلى السقف بإيحاء غريبة وقال: «كلا، إن الغرفة ليست مأهولة في الوقت الحاضر.»

ونزلنا، وعقدنا الاتفاق على أن أتسلم البيت للسكنى مدة الصيف، وأن تقوم السيدة ليرو بطبخ الطعام لي، ووعد السيد ليرو أن يركب إلى ديب يوم الأربعاء ليعود بي وبحقائبي.

وفي يوم الأربعاء، كنا عائدتين، ومضى نصف ساعة ونحن صامتان، وإذا بالسيد ليرو يقول لي فجأة: «هذه الغرفة يا سيدي ... الغرفة التي ظننت أنها مأهولة؟»

فقلت، وقد رأيته يسكت: «نعم ... ما لها؟»

قال: «إن لي اقتراحًا أعرضه عليك.»

وكان يتكلم وبه على ما خيل إلي، خجل، وفي لهجته ما يدل على الإصرار وكانت عينه على أذني حصانه.

فقلت: «هات اقتراحك.»

قال: «إذا وافقت على أن تترك هذه الغرفة على حالها، بما فيها من المتاع، فإني مستعد لنقص الإيجار إذا رضيت أن تدعنا نحفظ بها كما هي.»

قال ذلك بلهجة المتوسل المتلهف، وزاد عليه: «إنك وحيد، ولا حاجة بك إلى هذه الغرفة، فإن ما يبقى من البيت فوق الكفاية ... أليس كذلك يا سيدي؟»

فوافقت، وقلت له إن في وسعه هو وامرأته أن يحتفظا بالغرفة إذا شاءا.

فقال: «شكرًا لك، وستحفظ لك زوجتي هذا الجميل.»

وعدنا إلى الصمت فترة، قال بعدها: «أنت أول مستأجر لبيتنا، فما أجرناه لأحد من قبل.»

فسألته: «صحيح؟ منذ كم بنيتاه؟»

قال: «أنا بنيتيه، بنيتيه منذ خمس أو ست سنوات.» وأمسك ثم قال: «بنيتيه لبتتي.»

وخفت صوته وهو يقول ذلك، ووقع في نفسي أن هذه ليست سوى فاتحة لشيء يريد أن يفضي به إلي، فقلت أستحثه وأشجعه: «آه! صحيح؟»

فقال: «إنك ترى أي ناس نحن — زوجتي وأنا — فلاحان ... خشنان. ولكن ابنتي يا سيدي»، ووضع يده على ركبتني وحدثني في وجهي، «ابنتي كالشفوف رقة.»

ورد عينه إلى حصانه، ولزم الصمت دقيقة أو اثنتين، ثم عاد يقول، وعينه على أذني حصانه لا يرفعها عنهما: «لم يكن في كل هذه الناحية سيدة أرق منها والطف» — وكان يتكلم بسرعة وبصوت غليظ كأنما يحدث نفسه — «كانت جميلة، ومن أحلى خلق الله طباعاً، ومن أحسن الناس تعليماً. تربت في الدير، بروان، دير «القلب المقدس» ... ست سنوات قضتها في الدير تتعلم — من الثانية عشرة إلى الثامنة عشرة. وكانت

تعرف الإنجليزية — لغتك يا سيدي ... ونالت جوائز في التاريخ وفي الموسيقى. ما من أحد يحسن العزف على البيانو كما تحسنه.» وسألني فجأة وبغنف: «فهل كان يليق بها كوخ ريفي ككوخنا؟» وأجاب عن سؤاله فقال: «كلا، يا سيدي! فما يجوز أن تلوث الثياب الرقيقة بوضعها في صندوق قذر. وقد كانت ابنتي سَكَبَ ماءٍ من الرقة، وكانت يداها أنعم من مخمل «ليون» وآه! من حسن مشمهما! أعني يديها! لقد كان الطيب الذي أجده في يديها يعشني. وكنت أَلْثَمهما، وأشمهما كما تشم الزهرة.»

وأخفت الذكرى صوته، ومضت لحظة أخرى من الصمت، ثم عاد يقول: «وكنت كثير المال — مدَّئراً ومُدْرهما — وكنت أغنى فلاح في هذه الناحية فبنيت هذه الدار — بناها المسيو كلير مون أكبر مهندس في روان، وخريج مدرسة الفنون الجميلة بباريس — هو الذي شيد الدار لابنتي — بناها وأثَّتها، وجعلها لائقة بكونتيسة. حتى إذا عادت من الدير لتقيم معنا وجدت الدار جديرة بها، انظر إلى هذا يا سيدي! أترى أن أفخم قصور العالم يكون كثيرًا عليها؟»

وأخرج كيسًا قديمًا من الجلد الأحمر، وناولني منه صورة غادة ناعمة لينة في السابعة عشرة من العمر، وفي وجهها قسامة، وفي معارفها عذوبة ورقة. وكان الرجل معلق الأنفاس محتبسها وأنا أتأمل الصورة، ثم ألح علي يسألني:

«أليست ظريفة؟ أليست جميلة؟» وكأنه يناشدني أن أعطف عليه وأرق له فأشاركه في ثنائه. وقد أجبت بما وسعني، بخير ما قدرت عليه، فأعاد الصورة بيد مرتعشة إلى كيسها، وأخرج من ناحية أخرى من الكيس بطاقة صغيرة بيضاء، عليها ما اعتاد الفرنسيون أن يحفروه على قبورهم — صورة الصليب، وحمامة — تحتها ما يأتي:

يولالي — جوزفين — ماري ليرو. ولدت في ١٦ مايو/ أيار سنة ١٨٧٤، وتوفيت في ١٢ أغسطس/ آب سنة ١٨٩٢. صلّ لها.

وقال: «الله يعرف ما هو صانع. لقد بنيت هذه الدار لبنتي، فلما تم تشييدها اختارها الله إلى جواره. وقد ذهب بعقلنا الحزن — زوجتي وأنا — ولكن هذا ما كان ليردها إلينا. وما يدريني؟ لعل عقلنا ما زال مذهوباً به من الحزن. فما نستطيع أن نفكر في شيء آخر. وما نحب أن نتكلم عن شيء آخر. ولم نستطع أن نعيش في البيت — بيتها — وهي ليست فيه ولم يخطر لنا قط أن نؤجره. لقد بنيت لابنتي، وفرشناه وأثاثناه لها، فلما جهّزناه ... ماتت. أليست هذه قسوة يا سيدي؟ وكيف أوجر البيت للأغراب؟ ولكني منيت في المدة الأخيرة بخسائر، فأنا مضطر أن أوجر البيت لأقضي ديني. ولكني لا أستطيع أن أوجره لأي إنسان. وأنت إنجليزي. ولو كنت لم أرتح إليك لما أجرته لك ولا

بمليون من الجنيهات الإنجليزية. ولكني مغتبط بأن كنت أنت المستأجر. وستحترم ذكراها، وستأذن لنا في الاحتفاظ بتلك الغرفة — غرفتها — وسندعها كما هي، بما فيها من الأشياء. نعم، هذه الغرفة التي حسبتها مسكونة، كانت غرفة بنتي.»

وكانت السيدة ليرو تنتظرنا في الحديقة، رفعت عينها إلى زوجها مستفسرة فهز رأسه وقال: «كل شيء على ما يرام. السيد موافق.»

فتناولت المرأة يدي وهزتها هزاً عنيفاً وقالت: «آه يا سيد! إنك رجل طيب.» ورفعت عينها إليّ ولكني لم أستطع أن أنظر فيهما، فقد كان الحزن الذي يطالعني من نظرتيما أهول وأقدس من أن أمتنه بالنظر إليه.

•••

وصرنا أصدقاء أصفياء، في الشهور الثلاثة التي قضيتها في البيت. وكانت السيدة ليرو تتعهدني، وترعاني، وتبرني وتسرنني، كأنها أُمي. وكان كلاهما — كما قال السيد ليرو — يؤثر أن يجعل ابنته موضوع حديثه، وكنت أصغي إليهما بغير نفور أو ملل، فقد كان في حزنهما عليهما، ودوام تفكيرهما فيها جمال عميق الواقع في النفس، وكان يخيل إلي أن طيف

الفتاة يرود البيت، البيت الذي بناه لها الحب وهو لا يدري أن الموت سيعدو عليها ويغولها منه، وكانت المرأة لا تمل أن تقول لي: «آه يا سيدي، إن من بواعث السرور لنا أن تركت لنا غرفتها.» وقد صعدت بي مرة إلى الغرفة، وأرتني ثياب يولالي، وحليها، وكتبها المجلدة الجميلة التي فازت بها تجزية لها، على اجتهداها في الدير. وفي يوم آخر أطلعتني على رسائل يولالي وسألتني عن خطها أليس جميلاً؟ وعن عبارتها أليست حسنة؟ وعرضت عليّ صوراً لها في كل سن، وخصلة من شعرها وملابسها في أحداثها، وشهادة الأسقف، ورسائل من راهبات «القلب المقدس» بروان، تصف تقدم يولالي في الدرس والتحصيل، وتطري سلوكها وأخلاقها، وكانت المرأة ربما غلبها الحزن فتقول، وكأنها لا تصدق ما حاق بها من فقدان، وما منيت به من الخسارة: «وتصور أنها ذهبت! تصور هذا!» ثم تعود فتقول همساً بلهجة الاستسلام لقضاء الله: «إنه هو أدري بما يصنع!» وترسم الصليب على صدرها!

وفي الثاني عشر من أغسطس — يوم ذكرى وفاتها — صحبتها إلى كنيسة القرية حيث أقيمت الصلاة على روح يولالي، وبعد انتهائها جاء القسيس الطيب إليهما وضغط يديهما، ورفه عنهما بكلمات عذاب.

وفي سبتمبر/ أيلول بارحت البيت عائداً إلى ديب. واتفق

عصر يوم أن التقيت في الطريق الأعظم لهذه المدينة بقسيس القرية، فوقفت معه قليلاً نتحدث عن ليرو وامراته، وطيب نفسيهما، وحزنهما على ابنتهما فقال القسيس: «لقد كان حبهما لها شيئاً فوق الحب. كان عبادة، وتألّيهًا. وما رأيت في حياتي الطويلة مثل هذا أو ما يقرب منه. وقد خفت عليهما، لما قضت نحبهما، أن يذهب عقلهما. فقد كانا مذهولين ... غائبين عن الوعي. ولبثا مدة طويلة كالمجنونين. ولكن الله رحيم، فقد تعلمّا أن يعيشا ومعهما مصابهما.»

فقلت: «إن في احتفاظهما بذكرها، وعبادتهما لها، لجماًلاً. وما أظن بك إلا أنك تعرف أنهما أبقيا غرفتها وفيها أشياءها، كما تركتها ... هذا فيما أرى جميل ... رائع.»

فسألني القسيس، وهو غير فاهم: «غرفتها؟ أية غرفة؟»

فقلت متعجباً: «أوه، أو لم تكن تعرف؟ غرفة نومها في البيت. احتفظا بها كما هي، أشياءها، وكتبها، وملابسها.»

فقال القسيس: «لا أظن أني فاهم. فما كان لها قط غرفة نوم في هذا البيت.»

فقلت: «عفوًا. إحدى الغرف المقدمة في الطبقة الثانية كانت غرفتها.»

فهز رأسه وقال: «هنا بعض الخطأ، فما نزلت قط في هذا البيت، لأنها ماتت في البيت القديم. وكان البيت الجديد لم يكسب تشييده. العمال لم يكونوا قد خرجوا منه.»

فقلت: «كلا، لا بد أن تكون أنت المخطئ، ويظهر أنك ناس. فلاني على يقين من الأمر، وقد حدثني لير و وامرأته بهذا مرات لا يأخذها حصر.»

فأصر القسيس على زعمه وقال: «ولكن يا سيدي العزيز، إني لست واثقاً فقط بل أنا أعلم. فقد حضرت وفاتها، وكنت إلى جانبها وهي تجود بنفسها، وقد ماتت في البيت القديم. وكانا لم ينتقلا إلى الدار الجديدة، وكانت الدار لا تزال تؤثث وتجهز، وقد وضعت فيها آخر قطع الأثاث قبل وفاتها بيوم. ولم يسكن أحد هذه الدار قبلك. أنت أول ساكن لها. وإني أؤكد لك هذا.»

فقلت: «إن هذا أمر غريب جداً.»

وساورتني الحيرة دقيقة، فلم أهتم على حل لهذا اللغز، ولكن حيرتي لم تطل أكثر من دقيقة، قلت بعدها: «فهمت. فهمت.»

فهمت، ورأيت، وأدركت كيف غلط هذان المنكوبان نفسيهما، وخلقاهما وهما يتعزيان به، فقد بنا الدار

لابتئيهما، فلما اكتملت الدار وتجهزت ماتت الفتاة. ولكنها لم يطيقا أن يتصورا أن لا تعيش في هذه الدار وتنعم بها ولو أسبوعاً واحداً، بل ولو يوماً واحداً، أو حتى ساعة مفردة! عجزا عن احتمال هذا الحرمان. ولم يستطع قلباهما الشاكلان أن يعترفاه، فأغمضا عيونهما حتى لا يريا ما يصنعان، وحملتا متاع الفتاة الميتة في خشوع، إلى الغرفة التي أرادا أن يفرداها لهما، ورتبها فيها، وقالا لنفسيهما بإلحاح: «هذه كانت غرفتها. هذه كانت غرفتها.» ليتقرر في روعهما بالإيحاء، وأبيا أن يصدقا النفس، أبيا أن يسمحا بأن يجري في خاطرهما أنها لم تنم فيها ولم تنعم بها ولا ليلة واحدة. أوحيا إلى نفسيهما هذه الأكذوبة الجميلة، هذه الخدعة الكريمة الرحيمة كأنهما طفلان يصدقان ما يتخيّلان وهما يلعبان. وقد قالها القسيس: «الله رحيم! فقد استطاعا أن يخلطا كذبتهما الجميلة بالحقيقة، وأن يجدا في هذا عزاءهما، ووسعهما أن ينسيا أن ما غالطاه به نفسيهما ليس أكثر من خدعة، ووهن وباطل ليس يجدي، وأن يعدا الأمر كله حقيقة يستمدان منها السلوان والصبر الجميل، وبهذا وقاهما الله أن يتقاضاهما الحزن آخر مجهودهما. فبقيت لهما هذه السلوة، فهي كنز لهما — كنز أنفوس وأجدي من الذهب الإبريز.»

الباطل؟ — الحق؟ أحسب أن هناك أوهاماً ليست من الأباطيل — وإنما هي ابتسامات من الحق رحمة بنا، وعطفاً علينا.

